



السلوك الاجتماعي في الجماعات غير المنظمة

رؤية علمية في دينامية الجماعات وأشكالها



السلوك الاجتماعي

في الجماعات غير المنظمة

(رؤية علمية في دينامية الجماعات وأشكالها)



مكتبة سور الازبكية
تليجرام
s://t.me/kotokha
@KOTOKHATAB

السلوك الاجتماعي

في الجماعات غير المنظمة

(رؤية علمية في دينامية الجماعات وأشكالها)

د.مأمون طربيه



دار النهضة العربية

رقم الكتاب	:13100
اسم الكتاب	:السلوك الاجتماعي في الجماعات غير المنظمة
المؤلف	:د. مأمون طربيه
الموضوع	:علم اجتماع
رقم الطبعة	:الأولى
سنة الطبع	:2014م. 1435هـ
القياس	:17 × 24
عدد الصفحات	:205

منشورات : دار النهضة العربية

بيروت ـ لبنان

بيروت ـ شارع الجامعة العربية ـ مقابل كلية طب الاسنان
بناية اسكندراني رقم 3 ـ الطابق الأرضي والاول

تلفون : 854161 ـ 1 ـ 961 +
فاكس : 833270 ـ 1 ـ 961 +
ص ب : 0749 ـ 11 رياض الصلح
بيروت 072060 11 ـ لبنان
بريد الكتروني: e-mail: darnahda@gmail.com

ISBN 978-614-402- 796-7

محاور الموضوعات

5

مقدمة عامة

اذا كان علم النفس الاجتماعي هو العلم الذي يدرس الافراد كما يتشكلون من خلال المواقف الاجتماعية المختلفة فأنه يعني – وفي جانب منه- الدراسة العلمية للسلوك الجماعي الصادر عن الافراد كجماعة تحت تأثير المنبهات الاجتماعية وما بينهما من علاقات.. والتعريف على هذا النحو يثير عددا من الاسئلة نجملها في:

أولاً: ما المقصود بالسلوك الجماعي؟

ثانياً: ما هي المنبهات االاجتماعية ؟

ثالثاً: ما صورة العلاقات القائمة بين المنبّه والسلوك؟

أولاً: ماهية السلوك الجماعي:

يعرف السلوك الإنسانى على انه الأنشطة المتعددة التى يقوم بها الإنسان فى حياته وذلك لكى يتكيف مع متطلبات البيئة والحياة المحيطة به .معنى هذا أن سلوك الإنسان هو ممارسات يكون الغرض منها إشباع وتحقيق حاجاته .ولاشك فى أن إشباع هذه الحاجات عن طريق عملية السلوك الإنسانى يتوقف على مدى قدرات الفرد فى تحقيق هذه الحاجات، فلكل فرد حاجاته النفسية وقدراته ودوافعه

الخاصة نحو تحقيق وإشباع هذه الحاجات لهذا يتخذ تحقيق الاشباع انواع:

*اما ان يكون فطريا: وهو السلوك الذى يمارسه الإنسان منذ ولادته بدون تعلم أو تدريب، كسلوك الطفل أثناء البكاء وممارسة الرضاعة والأكل.

*واما ان يكون مكتسبا: هو السلوك الذى يمارسه الإنسان منذ الصغر عن طريق التعلم أو التدريب على بعض النشاطات والمهارات مثل القراءة، الكتابة، السباحة...... إلخ.

*واما يكون فرديا: بمعنى تفاعلات الإنسان الفرد إزاء المثيرات فى الحياة من حوله. يفسر هذا النموذج السلوك الإنسانى من خلال مبادئ ثلاثة هى: مبدأ السببية: ترتكز فكرة أو مبداء السببية على أن السلوك الإنسانى هو سلوك مسبب فلكل سلوك سبب ولذلك لكى نستطيع تفسير سلوك الفرد لابد من البحث وراء أسباب هذا السلوك وتنتج هذه الأسباب من تأثير العوامل البيئية التى يعيش فيها الإنسان وكذلك العوامل الوراثية الخاصة به، ومبدأ الحاجة أو الدافع: بجانب وجود أسباب محددة للسلوك هناك حاجات أو رغبات أو دوافع أو محركات لهذا السلوك ومبدأ الهدف: ويقصد بذلك أن الفرد يسلك سلوكاً معيناً لتحقيق هدف معين. ويمكن النظر إلى أن السلوك الإنسانى كنشاط مستمر يبدأ بوجود سبب/ دافع وينتهى بتحقيق هدف ويمكن توضيح ذلك بمثال بسيط فحينما يشعر الفرد بأنه جائع فإن هذا الشعور بالجوع ينشأ بسبب خلو المعدة من الطعام وهذا السبب يخلق الحاجة أو الشعور بالجوع ويتحقق الهدف بحصول الفرد على الطعام وهنا يتوقف الشعور بالحاجة إلى الطعام وينتفى السبب بأمتلاء المعدة بالطعام.

*واما ان يكون جماعيا: يمثل هذا النوع من صور السلوك علاقة الفرد بغيره من الأفراد الأخرى كأفراد الجماعة التى ينتمى اليها (المنزل/المدرسة/ النادى/ مكان العمل.. إلخ) ولا شك بأن العلاقة في هذا النوع من السلوك هي علاقة تبادل

من حيث التأثير والتأثر وبرغم أن التفاعل فى هذا النوع من السلوك حادث بين الفرد والجماعة ومتبادل بينهم فإن درجة تأثير الجماعة فى الفرد تكون عادة أقوى بكثير من تأثير الفرد فى الجماعة ويركز هذا السلوك على المتغيرات الخاصة بالفرد والعالم المحيط به وبالأفراد الذين يتعامل معهم وهذه الأمور تؤثر على سلوكه. وفى نموذج سلوك الجماعة نجد أن كل فرد فى الجماعة يتفاعل مع باقى أعضائها ويتحدد سلوكه بسلوك الجماعة ويستجيب لمطالبها حتى يحقق الفوائد لنفسه ولذلك فإن الفرد يرتبط بالجماعة ويتخذ من سلوك الجماعة نموذجاً لسلوكه.

*واما ان يكون جماعيا غير منظما: يعتمد هذا النموذج من السلوك الإنسانى على عوامل محددة من المؤثرات هي: الجماعة (التي ينتمي اليها الفرد) والمثيرات التى تتلاقى مع الجماعة والمناخ والظروف الاجتماعية. ونتيجة للتفاعل بين هذه العناصر يتحدد سلوك الجماعة غير المنظمة ككل نتائج سلوك الجماعة. ومن هذا المنطلق سوف نتناول الجماعة كمفاهيم وتعريفات وصولا الى تحديد العوامل التي تساعد على تنظيمها وتماسكها والمعايير التي تتبناها، كي يتم على ضوء ذلك مقارنتها بالجماعات غير المنظمة.

ثانيـا: المنبهّـات الاجتماعيـة: يلاحـظ ان هـذا التعبـير يـرد في اسـتخدامات متنوعـة في الدراسـات التـي تتنـاول السـلوك مـن زوايـا متعـددة، ففـي كثـير مـن بحـوث علـم النفـس التجريبـي وعلـم النفـس النمـو يقتـصر الاصطـلاح عـلى الاشـارة الى الاشـياء

والى تغيرات الطاقة الفيزيولوجية التي تحدث في محيط الكائن والتي تؤثر فيه عن طريق حواسه او بعضا منها، وفي بحوث اخرى يتسع مضمونه ليشمل كل الحالات والتغييرات التي تتم داخل الفرد وتؤثر في توجهاته وسلوكه على انها بمثابة «منبهات» او "حوافز" او "دوافع"، الا ان المعنى الدلالي المقصود هنا هو المنبهات الاجتماعية وليس النفسية على وجه التحديد، فكلمة اجتماعي والملحقة بالمصطلح تشير الى العلاقة التي تقوم بين الفرد وألاخرين من جنسه، فكل ما ينتج من تغيرات في سلوك الفرد الاجتماعي نتيجة لاتصاله بآخرين بشكل مباشر او غير مباشر، يمكن عندها القول بأن هؤلاء الافرد اصبحوا بمثابة منبهات اجتماعية لقيام الفرد بأستجابات معينة..

وغالبا ما تكون هذه المنبهات اما بسيطة (كأن تصل الى سمعي فجأة صيحة استنجاد) او مركبة (كأن يلتقي شخص بشخص آخر او بجماعة ويقول لهم جملة من الانباء والتعليقات) في الواقع ان بعض المنبهات سواء كانت بسيطة او مركبة، مباشرة او غير مباشرة هي على درجة عالية من التعقيد نظرا لما يتداخل فيها النفسي والعاطفي والفكري والاجتماعي والتاريخي والثقافي والديني في مزيج يصعب عندها معرفة ما الذي ينبه ويثير جماعة ما تجاه موقف او ازمة: فقد يحدث مثلا حرق علم او تمزيق صورة زعيم من اطراف معادية ثورة غضب، وقد تهز حادثة تاريخية مأساوية مشاعر اناس معينين، وقد يثير مس معتقد معين عند جماعة حالات استنكار واستياء وعنف (الرسوم الكاريكاتورية عن نبي الاسلام وموجة الاحتجاجات العامرة في العالم الاسلامي ضد الصحف الدانماركية التي نشرت مثل هذه الصور)

على ذلك ندرك انه بحسب المثير (المنبّه) تتحدد الاستجابة، فأذا كانت المثيرات سارة قوبلت بمشاعر حب واحترام وتقدير واذا ما كانت سالبة كانت الاستجابة

على شئ من الكراهية والاحتقار والعداء. وهذا يعني ان سلوكنا تجاه الاخرين او سلوكنا تجاهنا محكوم بخط المثير والاستجابة، او بمعنى أدل بوقائع نفسية وابعاد حضارية وتفاعل اجتماعي، التي تكون جميعها بمثابة " الارضية" التي يبنى عليها السلوك اما بشكل متوافق او بشكل غير متوافق. (مثال: هناك بعض الجرائم ترتكب بالريف لا يمكن ان ترتكب في المدن لان موضوعها ليس له وجود تقريبا فيها كأتلاف الزرع اوتسميم الماشية، نحن هنا بصدد سلوك عدواني يتشكل وفق ظروف انتجتها بيئة خاصة.. وبالسياق ذاته يمكن الاشارة الى كثير من ظاهرات السلوك الجموعي التي تحدث في مجتمعات تختلف مثيراتها واستجاباتها في مناطق دون اخرى وهذا يعني ان مقومات الحضارة لبعض الشعوب هي التي تشكل السلوك ومثيراته ومنبهاته الاجتماعية .)

ثالثا: العلاقة بين المنبة والسلوك: وتشير إلى دراسة المواقف الاجتماعية غير المحددة نسبيا وما يرافق هذه المواقف من حشود وتجهيزات ومظاهرات ومسيرات وترويج اشاعات وانقسامات في الرأي العام. هذه الظواهر تتميز بالسلوك الذي لا تحدده القيم السائدة ولا الاعراف المعمول بها ولا حتى انظمة السلوك العادية. ذلك ان هناك شروطا او ظروفا ترافق وجود هذا السلوك وتسهم في ظهوره وهي بشكل عام ملازمة للمواقف الاجتماعية غير المستقرة وغير المحددة ومن هذ الظروف :

- ✓ فقدان الاشكال الاجتماعية الثابتة، اذ عندما تكون التدابير الاجتماعية السائدة غير مجدية يجد الافراد انفسهم مضطرين الى الارتجال والابتكار.
- ✓ الغموض والالتباس في المواقف، فالمسائل التي لا يبت بشأنها تبقي المجال مفتوحا للاخذ والرد والقيام بفعل ما ازائها.
- ✓ تغير القيم والمعايير: اذ غالبا ما ترافق التغيرات المادية اخرى معنوية، وغالبا

مـا تعجـز هـذه الاخـيرة عـن اللحـاق بالتغيـير المـادي السريـع بشـكل مـرض، فيجـد الافراد انفسـهم في ظـروف جديـدة عليهـم وليـس هنـاك مـن انمـاط اجتماعيـة قائمـة تقـود تصرفهـم مـما يدفعهـم الى التجمـع خـارج النطـاق الرسـمي .

- ✓ غياب التنظيم الاجتماعي: الذي يؤدي بدوره الى حالة ضياع، ذلك ان فقدان المرجعيات التي يحتكم اليها المرء في رغباته وميوله قد يؤدي الى اختلال التوازن بين ظروف الناس من جهة وتطلعاتهم من جهة اخرى.
- ✓ انهيار الشعائر التقليدية واخصها القيم الدينية التي تستحث في مأزم تاريخي الى اعادة بعث، اذ كثيرا ما يوّلد بُعد الناس عن "شعائرهم" الى حشد الطاقات وتعزيز الضغوط الرامية لعودتها من قبل جماعات تعتقد انها "الدواء" الناجع للمآزم الحاصلة.

اذن في السلوك الجماعي ثمة عدوى اجتماعية تلعب دورها، بل ترافق الكثير من الظاهرات الاجتماعية مثل الحشد والرعب والهوس الجماعي وهذه الظواهر تتميز بشعور مشترك وبحالة عقلية تتأثر بالعاطفة. ويظهر هذا الشعور المشترك كشئ ما في الجو ويسهم كل فرد في هذا الشعور بمقدار ما يظهر من مشاعره وانفعالاته، كما وتتأثر الجماعة بهذه الحالة بقدر ما يدرك الافراد شعور بعضهم البعض ويصبحون في حالة هيجان واستعداد لتغيير واقع ما من خلال التعاطف والتجاوب. وهذا هو المحور الفعلي لظهور العدوى الاجتماعية فهي تخلق وحدة نفسية خاصة في غياب الاسباب الطبيعية التي تنتج عنها، كما تساعد على تصريف النزعات الداخلية وعلى تشجيع التصرفات غير المألوفة، ولا تتوقف بالتالي عند حدود جغرافية وثقافية بل عند فقدان وسائل الاتصال.

الفصل الاول

مفاهيم في الجماعة

عندما نلاحظ أوجه النشاط الاجتماعي الذي يقوم به أي انسان نجد معظم هذه الانشطة ان لم يكن جميعها تحدث في نطاق «جماعات»، فهو عندما كان طفلا تلقى تعليمه بين جماعة من زملائه في المدرسة، وعندما يريد نشاطا ترفيهيا غالبا ما ينشد هذا الرغبة مع جماعة من أقرانائه، وعندما يلتحق بعمل معين نجده ينضم لجماعة مهنية ويصبح زميلا، كذلك الامر عندما يريد أن يشارك ويعبر عن آرائه يتجه نحو جماعة سياسية. في مجمل هذا «الانضمامات» يتفاعل الفرد مع غيره، فمن المشاركة يكتسب ما تقوم به الجماعة من اوجه نشاط تعود عليه بالنفع، لكن النفع الاهم هو انه يحقق وجوده الاجتماعي! وفيما لو اردنا فهما دقيقا للحياة الاجتماعية التي يحياها الفرد لا بد من ان نعطي قدرا مناسبا من الاهتمام للجماعة التي يعيشها، لهذا يتجه علم النفس الاجتماعي وعند دراسته الجماعة الى الاجابة على اسئلة مثل:

- كيف تتكون الجماعة؟
- ما هي العوامل التي ترتبط بها؟ وتزيد من فاعليتها؟
- ما هي العوامل التي تؤدي الى اندثارها وفنائها؟
- كيف تؤثر الجماعة في ادراكات الفرد؟ وسلوكه؟

- ما الذي يحدد العلاقات بين الجماعات المختلفة؟

مثل هذه التساؤلات تحدد الاطار العام لموضوع هام ضمن مجالات علم النفس الاجتماعي يطلق عليه « دينامية الجماعة»

تعتبر دينامية الجماعة من المجالات العلمية التي ولدت على اثر "مصادفات غريبة"، كما الحال خلال وبعد كل حرب، فبنظر الباحثين تعتبر الحرب صورة من صور التحول الاجتماعي، لهذا- وكما بيّن التاريخ- تنتهي حضارات بحرب وتولد اخرى بعد حرب، ومع التغير والولادة تشيع ظاهرات اجتماعية.

واذا ما حاولنا الاسترشاد بهذه المقولات وتطبيقها على الواقع اللبناني نجد ان الحرب ساهمت في إحداث ظاهرات جديدة من أنتقال ثروات/ افتقار جماعات وصعود اخرى/ خلخلة في بينة الهرم السكاني/ وفيات رجال عن نساء= فتيان عن شيوخ/ وأثرت حتى على علاقة الرجل بالمرأة وخاصة على موقف الفتيات من الزواج (تأخر سن الزواج)، اما التأثير الابرز فكان تقوقع اللبنانين ضمن مذاهبهم وطوائفهم وأنهيار القواعد الاخلاقية ورفع المحرمات (التابو/ العيب) بحيث تباح أعمالاً كان من المألوف تحريمها فتصبح مستحبة أو تفرض فرضا.

في ظل الازمات لا يتغير التارخ فحسب وأنما تولد علوم لتدرس هذه التغيرات فما تقدم أهتم به علم النفس الاجتماعي وشاع وأنتشر في أستخداماته حتى طال ظواهر اخرى مثل التنمية الادارية/ الأثر في تغيير العادات/ محاربة التعصب/ الاجتماع المادي لافراد الجماعة (معنى العيد) / طرق التسلية والترفيه/ حرب الشعارات وظهور مكثّف للجماعات والتيارات.. الخ، وكأن هذا العلم جاء للدلالة على أيديولوجية سياسية - نفسية - أجتماعية تتصل بطريقة تنظيم الجماعة/ أعادة تموضعها/ نمط أدارتها المطلوب/ ومدى أشراك أفرادها في صنع القرارات (المبدأ الديموقراطي)

الى جانب ذلك هناك من ينظر الى دينامية الجماعة على انها مجال دراسي يتيح للباحثين تحصيل معلومات وافية عن طبيعة الجماعة بهدف الوصول الى قوانين وتشريعات مناسبة من خلال بحث علاقة الافراد ببعضهم البعض/علاقتهم كجماعة بجماعة اخرى ثم علاقتهم ككل بالتنظيمات الاجتماعية والثقافية والسياسية القائمة.

1. تنظيم الجماعة:

في موسوعة علم النفس ورد تعريف الجماعة على أنّها ذلك الاطار الذي يكون فيها الفرد عضوا بالفعل، فهي تُعلّمه كيفية أرضاء دوافعه وأشباعها من خلال معاييرها، في جماعة المرجعية – مثلا- نعتبر أنفسنا من أعضائها والمنتمين اليها، منها نستمد القيم والاهداف والمعايير، لان كل انسان هو نتاج البيئة التي يعيش، هو مجموعة الاتجاهات التي يتمثلها من جماعته حتى تصبح جزءا من «الانا»، فالانتماء الى الجماعة يُكسب العضو المنتمي شعورا بالآمان والطمانينة.

في معجم علم الاجتماع عُرّفت الجماعة على أنها "مجموعة من الناس- كبيرة او صغيرة الحجم- تربط أعضاءها علاقات أجتماعية قوية تساعد على تحقيق أهدافهم الاساسية، ويمكن اعتبارها وحدة مستقلة في المجتمع، يترابط اعضائها بعلاقات غير رسمية (اسرة) ومن ناحية اخرى يمكن نعتها بأنها عدد من الافراد تربطهم علاقات رسمية أو مصلحة مشتركة (عمل)

أمـا علـم النفـس الاجتماعـي فيحـاول أن يجمـع بـين التعريفـات الـواردة، فهـو ينظـر الى الجماعـة مـن ناحيـة "هيكليتهـا والتنظيـم الـذي تتمثّلـه" هـل هـي منظمـة ام غـير منظمـة؟ هـل يشـعر جميـع الافـراد بالانتـماء، بتبـادل المعلومـات وبأنهـم معنيـون فعـلا بجماعـة معينـة؟ لـذا يركـز هـذا العلـم وعنـد تناولـه الجماعـات عـلى مسـالة التنظيـم

وبنية التعاطي بين الافراد ليصنّف بين جماعة مهيكلة (تعمل وفق اطار تنظيمي ثابت) وأخرى غير مهيكلة، بين جماعة أتوقراطية التكوين وجماعة ديموقراطية التكوين :

1. الجماعة المهيكلة: وهي الجماعة التي يعرف فيها الافراد بعضهم البعض، تنتظم فيه الامور عبر وسائل اتصال مقررة ومضبوطة، يمتاز عناصرها بتوزع هرمي محدد كما هو الحال مع الحزب السياسي : قيادة/ كوادر صف اول/ اعضاء فاعلين / مناضلين/ انصار..

2. الجماعة غير المهيكلة: وهي التي قلّما يعرف أعضاؤها بعضهم البعض، وهناك هوة بين مراكز القيادة أو جماعات الوسط وعناصر الاطراف، حتى يشعر هؤلاء وكأنهم على هامش الجماعة كما هو الحال مع جماعات تجار الجملة لا يتصل بعضهم ببعض الا في حالات الضرورة القصوى وبغرض التنسيق وتحقيق الصفقات والارباح.. وقد يخفي كبار التجار عن صغارهم بعض القرارات والمعلومات الخاصة بصفقات معينة.

ولتوضيح الفارق بين هذاين الصنفين نتوقف مثلاً عند مجموعات الضغط ومجموعات المصلحة، فجماعة الضغط هي كتلة من الناس احتشدوا او جمّعوا جهودهم عبر تحرك مطلبي، هذا التحرك قد يستمر ليتحول مع الوقت الى «جماعة ضغط» بغية التأثير على قرارات تتخذها هيئات حكومية او جهات مسؤولة، هنا يكون هدف معلن/ اهتمام مشترك.. يستتبعه تنظيم وتحرك للوصول الى الغايات. ام جماعة المصلحة فهي الجماعة اللانظامية التي تلتئم مؤقتا وتلقائيا (كالمظاهرات/ حشود الاحتجاج) لتعبر عن رأي، لكن سرعان ما تزول فور

أنتهاء التحرك. واعتبروا «جماعة» انطلاقا من اجتماعهم على «هدف مشترك» حتى اصبحوا يشكلوا ما يسميه جورج غورفتيش في كتابه سيكولوجيا الجماهير، بـ «الجمهور النفسي» حيث يصبح التكتل البشري ممتلكا خصائص جديدة مختلفة جدا عن خصائص كل فرد يشكله اذ تنطمس الشخصية الواعية للفرد وتصبح عواطف وافكار الوحدات المصغرة المشكلة للجمهور موجهة في نفس الاتجاه، فتتشكل روح جماعية عابرة ومؤقتة لكنها تتمتع بخصائص محددة، لتصبح والحالة هذه ما يمكن تسميته بالجمهور النفسي له كينونته ووحدته العقلية المشتركة. وبناء على ذلك ايا تكن نوعية الافراد الذي يشكلونه، ايا يكن نمط حياتهم متشابها أو مختلفا وكذلك اهتماماتهم ومزاجهم او ذكائهم، فان مجرد تحولهم الى جمهور/ حشد تظاهري يزودهم ذلك بنوع من الروح الجماعية، وهذه الروح تجعلهم يحسون ويفكرون ويتحركون بطريقة مختلفة تماما عن الطريقة التي كان سيحس بها ويفكر ويتحرك كل فرد منهم لو كان معزولا.[1]

إن السلوك الجماعي – أو الشمولي كما يسميه هربرت بلومر- ينشأ عندما تلتقي خطوط العمل الفردي استجابة لنزعات واهتمامات عدد كبير من الافراد المفصولين، المجهولين، المنعزلين حول نقطة معينة تبدو جديرة بالاهتمام ولا تقع ضمن دائرة اختياراتهم الشخصية. والتقاء اختيارات الناس هو ما يجعل من «ظاهرة التظاهر» قوة ذات تأثير.. وهذا ما حاول الباحث جون فرتش تبيانه عندما اعتمد اختبار يتضمن مشكلات ذات طبيعة عقلية (فردي) ونوع آخر من المشكلات يتطلب حلها تآزر وتعاون بين الاعضاء، كانت تعليماته تنص على أن تعمل كل جماعة بوصفها فريقا موحدا لحل المشكلات، وتنتقل الى عمل آخر اذا تعذر عليها انهاء واحد منها، فتبين له بالدراسة ان الجماعات غير المنظمة تفقد أهتمامها وشغفها بالعمل وتتفكك حين تبوء محاولاتها بالفشل وأنها تنفرط

الى مجموعات اصغر تنشغل عن المشكلة الرئيسية بأهتمامات خاصة بها، او بأمر ليس له علاقة بموضوع التجربة.. في حين ان المجموعة المنظمة وبسبب أدراكهم لما يربط بينهم من هدف مشترك كانوا يركزون جهودهم على حل المشكلات لفترة اطول، وهذا ما كان يجعلهم أكثر أنغماس أنفعاليا، لشعورهم كفريق متآلف وهو ما دفعهم للعمل وان يحسنوا التصرف لحل المشكلة وان يتبادلوا الود فيما بينهم. وصولاً نحو النجاح .

3. الجماعة الاوتوقراطية : في نطاق هذه الجماعة تجري الاتصالات من أعلى الى أسفل، حيث يتم التخطيط بشكل فوقي، وتستنزف الاجتماعات بين موظفي الفئة العليا غالب الوقت اعتقاداً منها بأن حل المشكلات التي ترفع اليها من المستويات الادنى هو من مسؤوليتها، في هذه الجماعة لا يُشجّع ذو المراتب الدنيا على التفكير او تحمل المسؤولية او على المشاركة في المعلومات بل يكون اتخاذ القرارات محصورا بالذين هم في أعلى المراتب، لهذا نرى كيف ان الموظفون الصغار يخشون اتخاذ القرارت او التصرف دون الرجوع الى من هم أعلى كي لا يكون موضع نقد من ذوي المراكز العليا، في ظل هذه الجماعة يتقبل الاعضاء مواقعهم، وقد يصبحون في لآمبالاة ازاء اي طموح، وتنتشر النزعة الفردية بشكل ملحوظ حيث يتنافس البعض على الوصول الى مراتب اعلى ولو على حساب سحق الاخرين.

4. الجماعة الديموقراطية: او التشاركية كما يسميها باحثون معاصرون،لان من اولى مبادئ تنظيمها هو اعتماد الادارة الذاتية، اي تشّكل مجموعات عمل صغيرة متجانسة مما يسمح للافراد بالمشاركة المباشرة، مع تنظيم

العمـل في وحـدات صغـيرة تصبـح آليـة التعاطـي مرنـة، وكل وحـدة تتحمـل مسـؤولياتها كاملـة عـن عملهـا.. لهـذا نجـد ان الممارسـات الاداريـة في ظـل هـذه الجماعـة تسـير عـلى الشـكل التـالي:

- المدير هو المنسق : يبني/ يدعم/ يدفع عمل المجموعات .
- المدير هو المبادر : يشجع / يأخذ زمام المبادرة .
- الاتصال مبني على تحاور/ تبادل بشكل منفتح.
- الشفافية ممكنة لجهة الحصول على المعلومات/ التعبير عن الرأي بصراحة.
- حل المشكلات واتخاذ القرارات يتم بناء على مسؤوليات معطاءة.
- اعتماد التخطيط : تحديد الاحتياجات/ التشارك في صياغة الاهداف/ والتقييم

ومن الدراسات الهامة في آلية تنظيم الجماعة ما قدمه الباحث هارولد ليفيت عندما أستحدث وسيلة لدراسة شبكات الاتصال المختلفة، فصمم مواقف تجريبية مشابهة لانماط الاتصال التي تنشأ في الجماعات الصغيرة، حيث أوجد أربع مجموعات تتألف كل مجموعة من خمسة أعضاء، وقدم لكل منها مشكلة يتطلب حلها تبادل قدر من المعلومات فيما بينهم، وكان ليفيت يقدم لكل واحد من الاعضاء الخمسة جزءا من المعلومات ويفرض على الاعضاء توصيل ما لديهم عبر رسالة يبعث بها الى من يعنيهم، ثم نظّم هذه المجموعات الاربع وفق التالي :

- واحدة على شكل دائرة
- الثانية بشكل خط مستقيم
- الثالثة على هيئة حرف Y

❖ الرابعة على هيئة حرف X

من الواضح ان هذه الانماط تختلف من حيث مرونة التنظيم ودرجة التواصل، فالدائرة والخط المستقيم أقل التنظيمات كفاءة كونهما يحتاجان إلى قدر أكبر من الرسائل للتوصل الى حلول، حيث يصعب على أحدهم التبادل مع الجميع أنما مع الذي بجانبه فقط. أما في النمط المتعاكس فأن الاعضاء الذين في الاطراف لا يتصلون إلا بالفرد الذي يقع في الوسط. فهو يلعب دوراً مركزياً في تبادل المعلومات. وعلى الرغم من أفضلية النمط المتعاكس إلا أن التجربة أثبتت أهمية ومزايا النمط الدائري لجهة انه :

- ✓ يتيح لأعضائه أكبر قدر من الاستقلال في العمل
- ✓ الاقل ظهورا لمجال القادة (مساواة)
- ✓ عند ارتكاب الاخطاء يسهل تصحيحها بشكل أسرع
- ✓ لا يشعر اعضائه بأنهم منشغلون بأمور هامشية.

من هذا الاختبار يتضح ان تنظيم الجماعة اضافة الى شخصيات الاعضاء يلعب دورا رئيسيا في تحديد السلوك، كيفية المشاركة، توزيع المهمات ويبين مدى احساس الفرد بأنه منتم.

2.أهداف الجماعة

عندما ننظر إلى الجماعة على إنها وحدة اجتماعية – سواء كانت أولية أو ثانوية، رسمية أو غير رسمية، دينية أو سياسية أو ثقافية- فأن ما يحدد سماتها الأساسية هو التفاعل وبأن هناك ثمة غاية من وجودها. وبهذا المعنى تصبح الاسرة والمدرسة والنادي والمركز المهني بمثابة جماعات بأعتبارها تقدم الى الفرد جملة ميكانزمات منها:

a) الانتماء :

ويرادف بعض الباحثين هذا المفهوم بمصطلح آخر هو: «الشخصية الاساسية basic personality» بأعتبار ان الانسان عندما يدخل وسطا اجتماعيا يكون بمثابة أوعية فارغة تصب فيه المعايير الاجتماعية حتى يصبح متوائما ومندمجا.. فالافراد الذي ينتمون الى شخصية اساسية يشتركون نفسيا -اجتماعيا في أذواق وأفكار ومواقف عملية تكون بمثابة القاسم المشترك بين جميع الاعضاء المنتمين. ومن الدراسات الهامة التي أجريت حول مفهوم الانتماء ما قام به شافتر من بحث حول الصلة القائمة بين الترتيب الميلادي للفرد ودرجة ميله لان يكون اجتماعيا او يعزف عن الاخرين. فتبين له ان الفرد الذي يكون أكبر أخوته او الذي يكون وحيد والديه يميل بصفة عامة الى ان يكون بين الناس حين يواجه موقفا صعبا، لان الطفل الاكبر في العائلة يترعرع في الغالب على أكبر قدر من التسامح من قبل الوالدين فيصبح أقل أعتمادا عليهما وأكثر ثقة بنفسه، في حين ان الطفل التالي عليه دائما ان ينافس طفلا سبقه وراشدا يفوقه نضجا وقوة.

في كتابه: «ترتيب الميلاد» يصف كيفين ليمان سمات الابناء بالتالي:

- اكبر الابناء: يتمحل المسؤولية / يعتمد على نفسه/ يملكون طاقة كبيرة / يجعل من نفسه مصدر راحة للاخرين / نادرا ما يقبلون مساعدة اخوتهم الصغار.
- الابن االتالي: محدث لبق/ يشجع الاخر على القيام بالعمل حسب اسلوبه/ يستخدم الذكاء وسحر شخصيته لتمرير خططه.
- الابن الاخير: يتحكم في اعصابه/ من الصعب تحميله المسؤولية/ لديه قدرات اجتماعية مميزة
- الابن الوحيد: اكثر ثقة بنفسه/ طموح/ يجد مشكلة في مشاركة الناس له (لانه لا يرغب المنافسة)/ يرغب بالانفراد من حين لآخر

ويقارب الباحث روبرت سبالديني مفهوم الانتماء بمبدأ "البرهان الاجتماعي" عندما بيّن- بناء على تجارب عدة- كيف ان كثير من مشاكلنا تحدث نتيجة الجهل الجمعي الذي نمر به أو نعيشه، ومن التجارب التي يعرضها حادثة الموت الفظيعة التي تعرضت لها فتاة في أواخر العشرينات من عمرها بمدينة نيويورك، ماذا حدث معها؟

لمدة تزيد عن نصف ساعة شاهد ثمان وثلاثون من المواطنين الملتزمين بالقانون في شارع فرعي من احد احياء مقاطعة كوينز الامريكية قاتلا يمشي وئيدا ويطعن امرأة في هجمات ثلاث، قاطعته مرتين اصواتهم وأنوارهم المضاءة فجاءة، التي كانت تخيفه فيهرب ثم يعود مرة اخرى يبحث عنها ويطعنها ثانية، ولم يقم اي منهم بمكالمة تلفونية للشرطة خلال الهجوم، شاهدٌ واحد فقط استدعى الشرطة ولكن بعد ان قتلت الفتاة بالكامل، كبير مفتشي الشرطة ورغم بحثه الطويل في جرائم القتل لا يزال مصدوما، فالحادثة التي حصلت تحيره لا لانها جريمة قتل ولكن تساؤله عن السر الذي جعل الناس الطيبين يتخاذلون عن أستدعاء الشرطة في الوقت المناسب.

لا يستطيع أحد أن يقول لماذا لم يرفع الثماني والثلاثون الهاتف حينما كانت المرأة تهاجم، حتى هم أنفسهم لا يدركون ذلك، الا أنه يمكن القول بأن لآمبالاتهم وعدم انتماءهم الحق للجماعة وتقديرهم لقيم المشاركة بفعل المدنّية هي واحدة من أسباب عديدة، انه يكاد يكون أمراً لاستمرار البقاء الذاتي بمأمن، فحينما يحاط المرء بملايين الناس متعرضاً لضغوطهم فالسبيل الوحيد لتجنب الضغط هو تجاهلهم كلما ما أمكن، هذا فضلاً عن إن عدم اهتمام المرء بجاره أو بمتاعبه أو بأخيه الإنسان فعل منعكس

شرطي في حياة الجماعات غير المتماسكة...» وهكذا، اذا لم يكن لدى الشهود الاهتمام الكافي للتورط كنا في طريقنا لان نكون جماعة من أناس أنانيين وبلا حساسية، ان صعوبات الحياة العصرية جعلتنا قساة، ننحو نحو مجتمع بارد، لا نشعر ولا نهتم بنكبات أخواننا المواطنين» بهذه الكلمات علقت مجلة التايمز على حادثة القتل معتبرة انها حالة لها دلالة اجتماعية عريضة تتمثل في اللامبالاة .[2]

وهذا ما بينّته حوادث اخرى جرت في انحاء مختلفة من العالم ففي بريطانيا: تعرضت مراهقة لعملية أغتصاب في أحد الشوارع المزدحمة دون أن يحاول أحد مساعدتها. وذكرت صحيفة «الدايلي مايل» ان المهاجم الذي كان يغطي رأسه وبقبعة بيضاء، هاجم الفتاة البالغة من العمر 20 سنة خلال سيرها في أحد شوارع منطقة ستوكتون المزدحمة. وقالت إن ما لا يقل عن خمسة أشخاص من بينهم سائقو تاكسي لم يتدخلوا لمساعدة الفتاة التي حاولت الدفاع عن نفسها ولكن مقاومتها أنهارت بعدما سدد لها المهاجم سيلا من اللكمات إلى وجهها وأغتصبها. من جانبها قالت الشرطة إن حادثة الاغتصاب وقعت في وسط الطريق لكن أحداً لم يتوقف لمساعدتها، رغم انه كان هناك ما لا يقل عن خمس سيارات شاهد أصحابها الحادثة ونريد من هؤلاء الأدلاء بإفاداتهم حول هذه القضية... إلى ذلك قالت أنجريد سالومنسين ـ مديرة إحدى المنظمات الاجتماعية التي تعنى بالدفاع عن النساء اللاتي يتعرضن للاغتصاب ـ إن الناس لا يحبون التورط بمثل هذه الحوادث. وأضافت بإمكان هؤلاء القيام بأشياء بسيطة مثل لفت الانتباه إلى ما يحصل ووقف سياراتهم وأطلاق أبواقها وإضاءة مصابيحها العالية والاتصال بالشرطة.

لهذا نؤكد على أهمية الانتماء الاجتماعي لما يعنيه من مفاهيم سامية كالتفاعل والتساند والتشارك والتضامن والتكافل والتعاقد وأكثر من ذلك لما من شأنه أن يُعلي من انسانية الانسان ويسهم في أنتشار القيم الحضارية والاهم من ذلك يضع حدا للانحراف اذ لا معايير ولا ضوابط ولا قيم الا اذا تحسس كل واحد منا بأن الاخر يعنيه والاخرين مهمين بالنسبة له.

b) التكيف:

يؤكد علماء النفس الاجتماعي على أهمية التكيف منذ مراحل العمر الأولى بمختلف الجماعات كي تتأمن للانسان القدرة على مواجهة التغيرات ويدرك عوالم أخرى غير وسطه الحميمي (الأسرة)، ذلك ان الانسان معرضا في أية لحظة إلى ظروف بيئية او اجتماعية او اقتصادية او حتى إنسانية (فقد عزيز) وأن لم يألفها فقد تسوء حالته.. لهذا تأتي اهمية التكيف والتدرب عليه عبر معرفة معطيات الحياة المستجدة او التعرف على الجماعة الجديدة كأحدى أواليات التأقلم الهامة، ويبين علم النفس الاجتماعي إن الناس – تلقائياً- تميل نحو التي تماثلها، سواء كان التماثل في مجال الاراء او في سمات الشخصية او في الخلفية الاجتماعية او في نمط الحياة (لهذا نلاحظ ان الذين يرغبون في ان يكونوا محبوبين لنا يمكنهم تحقيق غرض ذلك عن طريق ظهورهم مماثلين لنا، فقد وجد احد الباحثين الذين تقصوا سجلات المبيعات لشركات تأمين ان العملاء كان يزداد احتمال شرائهم لوثائق التأمين حينما كان المندوب يزورهم على شاكلتهم ان لجهة السن/ او الديانة/ او الثقافة/ او حتى في عوائد خاصة.. كعادة التدخين.)

كيف يمكن ان تتكيف بسهولة؟ ليس بسهولة يمكن ان نتكّيف خاصة اذا اختلفت علينا الاجواء، ويمكن ان تلحظ ذلك بانتقال احدنا من المدرسة الى الجامعة،

من الجامعة الى ميدان الاعمال، ومن حياة العزوبية الى عالم الزواج.. الانتقال هنا يُشّبه البعض صعوبته بصعوبة الانتقال من نيويورك والسكن في اسطنبول، حيث يتطلب اختلاف الثقافة شئ من التكيف، ولكن كيف؟ عن ذلك تشير الباحثة في شؤون المهارات الذاتية الكاتبة الامريكية بربارا شير التي ترى ان حياتنا كلها محطات وكل محطة نحن فيها مبتدئين. ننتقل فيها من شئ نعرفه الى شئ نجهله وبعد ان نتعلم، ينتظرنا شئ آخر نجهله! الحياة أشبه بسفر دائما نحو ارض جديدة. ولكن كيف يمكن ان تتكيف في العيش على هذه الارض الجديدة؟ أن تتعلم اي جديد تصادفه او تتنظره..ان تتعلمه كشخص مبتدئ..وان وجدت نفسك في المكان الخطأ ولا تستطيع التكيف فعليك بالخطوات التالية: خطط لدعوة اصدقاء الى حفلة/ اعمل اي شئ لنفسك وليس لاجل الاخرين/ اكتب يومياتك كأنك تعد تقريرا..سجل ملاحظاتك على ما يصادفك. وهذا ما تسيمه: REGRUOPING: it's a whole new ball game . وتوضح لنا ذلك بمثال جورج، ذاك الشاب الذي يعمل مستشار فني في مجال الكمبيوترات لدى احدى الشركات الهامة، يرغب بشريكة حياة كي يستقرا واياها معا. لكنه متوهم من الفكرة فالذي يأخذه من راتب لايكفي لاختيار زوجة مناسبة/ انجاب اولاد/ تأثيث المنزل من جديد و شراء سيارة. اقترحت عليه هذه الاخصائية، ان يبدأ بخطوة صغيرة مميزة كي تحلل كل عوائقه، بأن يذهب الى المناسبات العامة (حضور الكنيسة نهارالاحد / الخروج الى الحدائق/ الذهاب الى اماكن التسوق حيث وجود النساء يكون وافرا.. او يساهم ويشارك في نشاطات اجتماعية يتواجد فيها من هم في عمره من الشباب والفتيات فهو الطريق الاقصر للتعرف على اصدقاء واصحاب، بعد عدة اشهر اشار جورج بأنه تعرف على انواع متعددة من النساء. وماذا عن السيارة؟ يجيب: «جميعهن لديهن سيارات»، وبأستطاعتهم مرافقتي الى حيث اريد، وماذا بعد نسأل جورج؟ اعتقد بأنني منجذب الى احداهن! [3]

يتطلب التكيف الجيّد ان يندمج المرء بالجماعة وفق المتاح ويقدم ذاته على انه جاهز ليعمل/ ليشارك/ ليؤدي دورا.. بدلا ان يبقى متفرجا.. فالعمل هو طريقة التعلم لان تعرف من انت في هذا العالم .. وطريقك الامثل لتحسين تكيفك في العالم الجديد..

C) ألتسهيل:

متى يمكننا تأدية الاعمال بشكل أفضل: عندما نكون منفردين أم عندما نكون وسط جماعة؟ هل تعتقد ان وجود الزملاء معنا يبعث على الاثارة اكثر مما لو كنا لوحدنا؟ الجواب نعم! ذلك ما اثبتته الدراسات المتخصصة كيف ان سرعة النشاط وكميته تزداد نتيجة مشاركة افراد يقومون بنشاطات مماثلة.. لهذا نجد انفسنا - مثلا- نأكل أكثر من حاجتنا عندما نكون وسط جماعة وهكذا يبدو بالنسبة لكثير من الاعمال التي نؤديها بين أن نكون منفردين وبين ان نكون وسط جماعة كيف يتغير حالها. وهذا ما اشار اليه الباحث السيكولوجي البورت بأن وجود أشخاص أخرين في نفس العمل قد يزيد من النشاط والسرعة في الاداء مما لو كان الشخص منفردا...أنه التسهيل، الذي يعني ان للجماعة تأثير على سلوك الفرد، ويمكن ملاحظة ذلك بسهولة من خلال قياس الافكار حول مسألة معينة، عندما نأخذ رأي الفرد منفردا، ثم عندما يكون وسط جماعة كيف تتخذ الاجابة منحى مغايرا.. قد يتذبذب اويبدي رأياً محافظا كرأي الاخرين..لان النزعة لرؤية فعل على انه الاسلم غالبا ما تتم عندما نلاحظ آخرين يفعلونه امامنا.

وقد جرت العادة انه اذا كان كثير من الناس يؤدون شيئا فهو الصواب لأن نفعله. ولتأكيد هذه الفرضية عمد عالم النفس البرت بندرا الى أختبار حاول خلاله ان يبين وزملائه كيف ان الناس الذين يعانون مخاوف مرضية يستطيعون التخلص منها بأسلوب بسيط عبر استبعاد السلوك غير المرغوب بواسطة آخرين يفعلونه..

ولغاية الاختبار عمد هذا الباحث الى اختيار اطفال في سن الحضانة لديهم خوف من الكلاب وجعلهم يشاهدون لمدة عشرين دقيقة طفلا في مثل سنهم يلاعب كلبا..وقد ادى هذا العرض الى تغيرات ملحوظة في استجابات الاطفال الخائفين. فبعد أربعة اسابيع من العرض المتواصل أبدى 67 % من الاطفال رغبتهم بملاعبة كلب، وبعد اشهر على مرور التجربة لمس البورت التحسن الهائل في تصرفات الاطفال تجاه الكلاب وكيف انهم أصبحوا أكثر تقبلا لها وتفاعلا معها.

d) المسايرة :

تعني حرفيا : ان يسير المرء مع ألاخر ويرافقه ويتلآءم معه الى حدود الممكن والمعقول، والمسايرة كهدف وشرط للفرد في المواقف الجماعية، هي ذات وظيفة اجتماعية هامة تؤدي الى خفض التوتر من جهة والى تقوية التواصل مع ألاخرين من جهة اخرى، ان وجهها الايجابي يكمن في تلك المجاملات او الواجبات المتبادلة التي يقوم بها الناس في حياتهم اليومية اذ من شأنها ان تدفع نحو التآنس وتعزز من عمليات التفاعل، فبعض علماء الاجتماع ذهبوا الى القول – وبعد دراسات مكثفة- انه لا يوجد مجتمع بشري لا يأخذ بهذه القاعدة. حتى عالم الآثار المشهور ريشارد ليكي يعزو جوهر ما يجعلنا بشرا الى نسق المجاملة لقوله: «نحن بشر لان اجدادنا تعلموا ان يتقاسموا طعامهم ومهاراتهم في شبكة مبجلة من الالتزام المتبادل»[4] فتبادل اشكال متنوعة من السلع والخدمات المختلفة ووجود مجموعة من الاتكالات المتبادلة هو ما يربط الافراد بعضهم ببعض في وحدات ذات كفاية عالية. لهذا نجد انفسنا في ظل « الجماعة» آخذين بقاعدة المسايرة التي تقول بأنه علينا ان نقوم بسداد ما قدمه شخص آخر لنا، (فاذا قدمت سيدة لنا معروفا علينا ان نرد جميل عرفانها، واذا ارسل احدهم هدية لنا في عيد ميلادنا فعلينا ان نتذكر

عيد ميلاده بهدية من قبلنا واذا دعانا زوجان لحفل فعلينا ان نتأكد من دعوتهما الى احدى حفلاتنا لآحقا..) مما يعني – وطبقا لقاعدة المجاملة- اننا ملزمون في المستقبل برد الصنيع والهدايا والدعوات وما شابه.

قد يحمل مبدأ المسايرة في طياته الكثير من السلبيات (استغلال/ خضوع/ ابتزاز/ مكر ودهاء.) وبأن كثير من الناس ترفض عروض الاخرين خوفا من التزامات تابعة، الا ان هناك اخرون يقبلونها طبقا لما هي عليه وليس طبقا لما قصد بها ان تمثله، فأذا قدم احدهم صنيعا لآخر فليقبله على اعتبار انه «دين» وقد الزم نفسه برده بعد حين.. وبهذه المعادلة يكون الجميع قد تساووا في العطايا..وهذا لايعني في طياته اننا تقيدنا بألتزام آخر عن «طريق مجاملته لنا» بل على العكس تماما عليه ان يعي انه اشتراك سليم في شبكة الاحترام المتبادل المتوارثة منذ فجر التاريخ.

e) الايحاء :

وهو القبول المبدئي او الانصياع لفكرة من الافكار يلجأ اليها المرء عندما لا يتمكن من التفكير بتمعن فيتقبل آراء غيره من الناس خاصة المقربين لديه. واكثر من ذلك قد يتعرض لايحاء عابر من اشخاص مماثلين له في التوجه والمسلك. على ان الاخذ بهذا المبدأ واثره الفعلي يبقى نسبيا.. ذلك لانه محكوم بعوامل موضوعية وذاتية ويقصد بهذه العوامل: العدد (رأي الاكثرية ..) النفوذ (رغبة ذوي السلطة) قبول الامر الواقع (ليس هناك من خيارات اخرى) وبالحديث عن الايحاء نذكر هنا قصة سارة وثيم اللذين تقابلا في احدى المستشفيات، هو يعمل كفني اشعة وهي كأخصائية تغذية. تواعدا فترة طويلة حتى بعد ان فقد تيم وظيفته ثم انتقلا

ليعيشا معا..لم تكن الامور تجري كما يجب بالنسبة لسارة التي كانت تريد من تيم ان يتزوجها ويتوقف عن افراطه في شرب الخمور رفض تيم الفكرتين وبعد فترة عصيبة من الصراع قطعت سارة العلاقة وترك تيم المنزل.. وقد تصادف في نفس الوقت ان عاد الى البلدة بعد سنوات صديق قديم لسارة، فآخذا يتلقيان وسرعان ما اتخذت العلاقة شكلا جديا، قررا الزواج ووزّعا الدعوات، أثناء ذلك اتصل تيم بها نادما واراد العودة ليستأنف العلاقة فلما اخبرته عن نيتها الزواج من صديقها القديم، توسل اليها ان تعيد النظر في قرارها وابدى رغبة بأن يعود كما تريد هي.. رفضت عرضه الا انه ألّح عليها باديا رغبته المخلصة في الزواج منها وانه مستعد التخلي عن شرب الخمور اذا ما تراجعت عن قرارها.. وتحت هذا الاحساس والاصرار نجح تيم في التغلب على تردد سارة واقناعها بفكرة العودة معا، ففسخت خطوبتها وألغت فكرة الزواج وسحبت الدعوات ودعت تيم يعود ليعيش معها.. لم يكد يمضي شهراً حتى اخبر تيم سارة بأنه ليس في امكانه التوقف عن شرب الخمر ثم اخذ يماطل في فكرة الارتباط .. وانقضت سنتان دون ان يتغير شئ، تيم وسارة يعيشان معا كما كانا من قبل: هو لا يزال يشرب الخمر ولا توجد خطط للزواج قريبا..الا ان سارة تبدو اكثر وفاء له حيث تقول: ان اصراره اعلمها ان تيم هو صاحب رقم واحد في قلبها وهكذا اختارته عن الاخر رغم ان الشروط المتفق عليها مع تيم لم تتحقق.. ولكن كيف يمكن تفسير ذلك؟ ثمة جزء في اعماق سارة لعب دورا في عملية التبدل ولا نستطيع ان نجزم او نعرف اين يقع هذا الجزء..الا ان لغتنا اليومية تعطيه اسم « قلب القلوب» وهو بحكم التعريف المكان الوحيد الذي لا نستطيع فيه خداع انفسنا، انه ذلك «اللب» ا لذي لا يخترقه اي من اعذارنا او اي من مبرراتنا..

وتبين الادلة النفسية ان خبرتنا بمشاعرنا نحو شئ معين امر يتم في جزء من

الثانية قبل ان نتمكن من صبغه بصبغة فكرية. وطبقا لهذا الاسلوب فعلت سارة عندما سئلت: اذا ما استطعت العودة بالزمن الى الوراء فهل تقوم بنفس الاختيار؟ تجيب: ربما نعم!! لان المشاعر الاولى التي احست بها كانت الاستجابة، ووثقت بها واعطتها اشارة القبول العاطفي بسرعة.. وهذا هو فعل الايحاء.. نلجأ اليه احيانا لانه يحقق بعضا من مصالحنا

على ما تقدم نوجز القول بأنه ظهرت دلائل كثيرة على التيسير الاجتماعي في سياقات عدة (تكيف/ مسايرة/ ايحاء/ تسهيل) وعلى رغم الاعتقاد السائد بين المدرسين والاهل بأن الصفوف الصغيرة العدد هي الافضل تعليميا، بينت الوقائع انه في بعض الظروف قد يتعلم الاطفال بدرجة اكبر في الفصول الكبيرة العدد، فعندما يوجد عدد كبير من الافراد حولنا يقومون بالشئ نفسه الذي نقوم به، قد نشعر بشكل ما «اننا ينبغي ان نكون في الموضع المناسب» ولأن نكون اقل قابلية للتشتت. وايا كان المبرر الدقيق وراء هذا الامر فأن الصفوف الكبيرة العدد تقوم – احيانا- بتوليد طاقة اجتماعية معينة تعمل على تعزيز الاداء

3 ـ معايير الجماعة

لا تختلف الجماعات في عدد افرادها او من حيث اهدافها وطبيعة اعمالها وحسب وانما ايضا من حيث سلوك اعضائها وحسن استعدادهم للتضحية من اجل استمرارها وبقائها، اذ هناك جماعات تنتشر المنافسة والمشاحنة بين افرادها وتفتقر الى الود والصداقة، وهناك النقيض من ذلك. لهذا تبرز المعايير كمجموعة من القواعد والاسس التي يُقّيم من خلالها سلوك اعضاء الجماعة. توقعاتهم تجاه بعضهم البعض، وقد اشار عالم النفس الاجتماعي فستنجر بأن هناك جملة من

العوامل لها علاقة بالمعاييرمنها:

- لكي يكون هناك توّحد بالجماعة من جانب أعضائها فلا بد ان يكون هناك وحدة أتجاهات .
- لكي تحصل الجماعة على اهدافها لابد من تعاون فيما بين الاعضاء للقيام بالنشاط
- يجب ان يكون هناك تحديد لسياقات الاداء: من الذي سيقوم بالنشاط ؟ متى ؟ وكيف...

وتعتبر المعايير هي الواقع الاجتماعي الذي يميز جماعة معينة عن غيرها، ذلك ان اي جماعة منظمة تتسم بالمعايير التالية :

i. غايات واضحة يتقبلها الناس بقوة وأيمان

ii. قيادة مميزة تأخذ بالمبادرات

iii. أطر تنظيمية مدروسة

iv. تشارك قوي في تأمين الموارد

v. ألتزام مخلص من قبل الاعضاء.

ويلخص كارترايت وزاندر اسباب الالتزام ومسايرة الفرد لمعايير الجماعة في ثلاثة: ان عضوية الفرد في الجماعة تحدد الكثير من الاشياء التي يراها ويفكر فيها ويتعلمها ويفعلها.ان الفرد قد يسلك مسلكا مشابها لسلوك غيره في الجماعة لانه يريد ان يتأكد ان موقفه سليم وان فهمه للامور هو فهمٌ جيّد، فاذا لم يكن واثقا من سلامة موقفه وسلامة فهمه تقبل اراء الاشخاص الذين يحبهم ويحترمهم ويثق في رأيهم (وهم الذين يكونون جماعته المرجعية) وهناك نوعان من الضغوط التي

تساعد على الالتزام ومسايرة الفرد لمعايير الجماعة: ضغوط تنشأ من الصراع داخل الشخص حين يلاحظ ان آرائه او سلوكه يختلف عن اراء وسلوك الاخرين، وضغوط موجهة من الاعضاء الاخرين للتأثير في اراء او سلوك الفرد (ضغط الجماعة على الاعضاء، هذه الضغوط تُوجه لتحقيق الوظائف التالية:

ـ مساعدة الجماعة في حركتها نحو اهدافها.

- صيانة الجماعة والابقاء عليها.

- مساعدة الاعضاء على ان يجدوا سندا لارائهم وسلوكهم في الواقع الاجتماعي اي الاتفاق مع الجماعة على الرأي الصحيح او العقيدة الصحيحة عندما يتعذر على الفرد ان يلجأ الى واقع مادي.

هذا ويؤكد فستنجر اهمية عملية التنشئة الاجتماعية على ان الفرد دائما يسعى للحصول على القبول الاجتماعي ويبذل كل جهده لتفادي الرفض الاجتماعي وذلك عن طريق التزامه ومسايرته لمعايير الجماعة. وفيما لم يلتزم هذا الفرد نصبح هنا ظاهرة انحراف عن المعايير .

*هل نحن فعليا أسرى معايير الجماعة ام لدينا خيارات الحرية بالتصرف؟ بسؤال اكثر دقة متى نلتزم ومتى ننحرف؟

في الوقت الذي ذهب فيه بعض علماء الاجتماع والنفس الى القول بأننا أسرى التنشئة الاجتماعية ومعاييرها (مسيّرين بالمفهوم السوسيولوجي)، يقدم باحثو التواصل الاجتماعي الرمزي وجهة نظر مفادها بأننا لسنا مجرد أوعية فارغة بأيد الآخرين او الجماعة التي ننتمي، اذ ليس مكتوب علينا ان نتصرف وفق معايير الجماعة وان كنا اعضاء فيها، فلدينا الخيار بأن نعيش ونعيد أنتاج توجهاتنا وأفكارنا الخاصة وفق ما نريد (التخيير بالمفهوم السوسيولوجي) وللدلالة: اذا

اعتبرنا ان طلاب الجامعة هم بمثابة «جماعة» داخل جماعة منظمة لها معاييرها الاكاديمية والمبادئ العامة التي يجب ان يسير عليها كل من يريد الانتماء اليها، الا ذلك لا يعني بالضرورة الزام الجامعة طلابها جميعا بخيارات تأسيس جماعات شبابية داخلها، بل هناك متسع من الانشطة يمكن للطلاب الاتجاه نحوها سواء كانت فكرية او رياضية او فنية او سياسية او اجتماعية.. حيث تنوّع الخيارات متاح، فقد يلتحق احدهم بجماعة طلابية تناضل من اجل قضية انسانية او بيئية وآخرين قد يلتحقون بجماعات شغب وسلب ونهب من المحلات التجارية خلال عطلة نهاية الاسبوع، ثمة توّجه متناقض في الاهتمام بناء على رغبة الافراد وقد تهيأ مثل هذه الخيارات التوقعات المنتظرة من هؤلاء الطلاب مستقبلا، فالذين أنضموا لجماعة النهب قد يتطور الامر معهم ليصحبوا جماعات ذات نشاطات اجرامية بينما الجماعات الناشطة قد تطور من اداء توجهاتها لتحدث تغييرا اجتماعيا رائدا على صعيد الجماعة او المجتمع حيث تعيش.

في هذا السياق جهد باحثو علم الاجتماع بتقديم تفسيرات على سؤالنا: متى نلتزم ومتى ننحرف؟ فأرجع بعضهم المسألة الى نظرية الضبط الاجتماعي، والبعض الاخر الى نظرية السمات :

أ) نظرية الضبط: في داخل كل واحد منا رغبة قوية لأن يتصرف بشكل فوضوي وقد يصل بنا الأمر ان نفعل هذه العبثية اما بأمور محببة لدينا (من باب اشباع الملذات بالاستمتاع ولو اقتضى الامر خروج عن المألوف) او بأمور تبدو للبعض ذات سمة عنفية (رغبة الايذاء والتخريب وحب الانتقام..) الا أن ثمة وازع يكبت مثل هذ الرغبات، لماذا؟ لانه موجود في داخلنا ما يسمى بالضابط الذاتي والمتمثل بالضمير والوعي والمبادئ الدينية ومعرفتنا لما هو خطأ ولما هو صواب، وينشط دور هذا الضابط عند

علمنا بوجود عقاب او قصاص او لخوف من الملاحقة القانونية وللرغبة الملحة بداخلنا في ان نكون على مستوى جيد من الاستقامة والسمعة الحسنة. الى جانب الضبط الذاتي هناك الضابط الخارجي والمتضمن في الناس والعائلة والاصدقاء والشرطة وهيئات المجتمع المدني حيث نتلمس التوجية والارشاد والنصح والمساندة الاجتماعية كي لا ننحرف. على ذلك نلاحظ بأن لكلا الضابطين علاقة بالجماعة – المجتمع ومعاييرهما، فالمعايير هنا هي التي تحدد درجة الضوابط وفعاليتها وفق الأطر التالية:

- العلائقية (التعلق)، حيث الشعور الطيب بأن من يجل المعايير ويحترم قيم الجماعة هو انسان جيد
- الالتزام (التمسك)، حيث الرغبة بالتوافق والتكيف للحصول على تقدير من الاخرين
- الارتباط (الانخراط)، وذلك بأظهار الاهتمام بالاهداف السامية التي تضعها الجماعة وترّغب بها
- الاعتقاد (الاقتناع) ، اي الايمان بأن هناك امور مرغوبة واخرى غير مرغوبة، بأن هناك صح وهناك خطأ

هذه الاطر الاربعة تعزز ليس ما يعرف بضبط النفس وانما تحدد الروابط التي تصل بين الناس والمجتمع وانماط السلوك القويمة، وعندما تتعزز هذه الروابط بصورة كافية فأنها تساعد في الحفاظ على الضبط الاجتماعي والامتثال للحيلولة دون انتهاك الناس للقوانين وعندما تضعف هذه الروابط يبدأ الجنوح والانحراف بالانتشار، لهذا يرى اصحاب نظرية الصراع في علم الاجرام الجديد ان الجانحين غالبا ما يكون لديهم المستوى المتدني من ضبط النفس ناجما عن تنشئة اجتماعية قاصرة في البيت او المدرسة، و لكي يكون هناك مستوى عال من الانضباطية

فأن المفتاح الرئيسي لذلك هو الالتزام بمعايير التنشئة الاجتماعية كما افترض الباحث TAVIS HERCHI (1969) [(5)]

ب) نطرية السمات، ركز باحثو التواصل الرمزي في العلاقات الاجتماعية على اهمية أغناء الصفات التي تُمنح للمرء من قبل الآخرين، فهي الهوية الاجتماعية التي يتطلع اليها أي منا، ويحدث ان يعطي او يمنح المرء هذ الصفات منذ بداية حياته وتلازمه طوال حياته الا أنها تغدو ذات اهمية في طور الشباب حيث يعيد الانسان بناء ذاته مع عالم الجماعات الجديدة التي يدخلها بناء على ما ثقف من معايير، لتصبح بدورها هذه المعايير بمثابة السمات التي تميزه كأنسان أجتماعي له دوره الايجابي في التفاعل مع المجتمع. ولكن ماذا يمكن ان يحدث فيما لو رفض احدهم ان يتخذ هوية ذاتية من جماعته (نتيجة تفكك اسري او تمرد..) ولا يرغب بالتالي الانسياق وفق قيم جماعته او الاخذ بمعاييرها؟ الاجابة على هذه الاشكالية قدمها السوسيولوجيان DAVID MATAZ & GERHAM SYKES (1988) اللذين درس حالة الاولاد الذين يعيشون مواقف الرفض بالالتزام فوجدا بأن هناك خمس تقنيات نفس اجتماعية يعتمدها هؤلاء لتبرير عدم انسياقهم.

1) أنكار المسؤولية: وتشير اليه عبارات من قبيل: «انا لست مسؤولا لما يمكن ان يحصل، لان......»، اي انهم يعتبرون ما حصل كان حادثا، خارجا عن ارادتهم لا علاقة لهم به بل هم ضحايا المجتمع، لذا يجدون انفسهم كأنهم طابات بليارد تقذف هنا وهناك على طاولة الحياة.

2) انكار الاذى: وتختصره عبارة: «ما فعلته ليس خاطئاً..لانه لم يؤذ احدا..» اي انهم يعتبرون تخريب ممتلكات الغير شر لا بد منه، وقتال

الشـوارع شـجار عـادي لا يسـتحق الاهميـة وسرقـة السـيارات هو أعـارة لقضـاء حاجة، يتصـور اصحـاب هـذا الموقـف ان مـا يفعلونـه هـو شـئ لآقانـوني ولكنهـم يدرجونـه ضمـن سـياق اللهـو واللعـب (just having a little fun)

3) انكار الاجرام، بعض الاولاد يتصرفون على اعتبار ما يقومون به هو بمثابة ردفعل على أذى لحق بهم ، فتخريب سيارة معلمهم في المدرسة هو انتقام على اعطائهم علامات متدنية فهو لم يكن منصفا برأيهم، وسرقة المحلات التجارية ثأر من اصحابها لانهم لم يوظفوهم او لانهم طردوهم ولم يوفوا حقهم .

4) انكار الادانة، ويظهر خلال اقوالهم:«من انتم لتحكموا عليي ..من اعطاكم الحق بأدانتي» مثل هذه العبارات توحي بأن الاولاد ينكرون على الاخرين الحق بأن يعاقبوهم عملا بقاعدة: قبل ان تحاسبني حاسب نفسك.. ومن منكم بلا خطيئة فليرمي بحجر.. برأيهم كلنا مخطئون اذن لا تدين حتى لا تدان.

5) ألتماس الخيرية، كقول احدهم: «اردت ان اساعد صديقي فأضطررنا الى استخدام العنف مع المعتدي علينا» هنا ثمة تبرير بأن الاعتداء واستخدام العنف هو نوع من المساعدة المفترضة تجاه من يعنينا امرهم، فالشهامة تتطلب ان تساعد اصدقاؤك ولو اقتضى الامر خروج عن المألوف..بالنسبة لأصحاب هذا الموقف ممارسة الافعال التي يرفضها المجتمع اهم من الالتزام بمعايير سمحة.

4 ـ تماسك الجماعة:

يُسـتخدم هـذا المفهـوم للدلالـة عـلى جوانـب الاندمـاج والالتـزام عنـد اعضـاء جماعـة معينـة، وتـارة يعـرف هـذا المفهـوم عـلى انـه «الـروح المعنويـة» التـي تشـد

أعضاء الجماعة نحو بعضهم البعض، وتارة اخرى يُعرّف على أنه «الشعور بالاقبال» على نشاط الجماعة، وطورا اخر يستخدم المفهوم للدلالة على قوة جذب الجماعة لافرادها، الذي يتوقف بدوره على مدى توفير الجماعة ألامان والتقدير اللازمين بالنسبة للمنتسب. وقد أفترضت دراسات عديدة انه بتماسك الجماعة تزداد قوتها في التاثير على أفرادها، فأذا كانت قوة الجذب أكبر وأقوى من القوة اللازمة لاحداث التغيير في سلوك الجماعة فسيحدث التغيير. أما أذا كانت قوى الضغط أقوى من ناحية الفاعلية في توجيه الفرد فلن تغير الجماعة من سلوكه وسلوكها (وقد ينفّض الافراد عنها) ويؤيد هذا الافتراض كل من الباحثين شاختر وفرانش الذين توّليا مفهوم «التماسك» في أحدى دراساتهما عن طريق قياس تجربة « التماسك والانجذاب عند مجموعة من العمال» حيث وُجّه اليهما أسئلة محددة منها :

- ما مدى حبك للمجموعة التي تعمل معها؟
- ان أشتركت في تجربة أخرى فما مدى رغبتك في العمل مع نفس المجموعة؟
- ما مدى رغبتك في رؤية اعضاء مجموعتك؟

فتبين بأن ما بين التماسك وسلوك الجماعة ومظاهر نشاطها وقوة جذبها ليس بالعلاقة البسيطة، أذ – وبرأي باحثون آخرون- هناك محّكات عديدة تلعب دورها في التماسك مثل مؤشر الصداقة الموجود بين افراد الجماعة، الذي أختبره أحد باحثي علم النفس الاجتماعي بالتجربة التالية: أعطي لجماعة معينة عددا من الفرص لاختيار اصدقائهم، ثم أحصى النسب المئوية بين عدد الاختيارات من أفراد الجماعة الى عدد الفرص المختارة. فأذا أعطى الفرد مثلا 50 فرصة لأختيار أصدقاء له وأختار هذا الفرد 40 شخصا من داخل جماعته ثم 10 من

خارجها دلّ ذلك على أن نسبة اندماجه بالمجموعة عالية، أذ كلما ارتفعت النسبة كان ذلك دالا على أرتفاع عامل التماسك وكلما انخفض كان ذلك دالا على ضعف قوة الجماعة لافرادها

هذا يعني أن مؤشر جذب الجماعة لافرادها يعتمد بصورة على مدى تقديرها لمعيار الصداقة بين الاعضاء، اشاعتها المعاملة الجيدة، ابداء الحرص على القيام بأنواع مختلفة من الانشطة التي يميل اليها لعضو ويرغب في ممارستها، خاصة وان كثير من الاعضاء لا ينجذبون الى جماعة معينة الا لانهم يجدون فيها الاشباع الذي يتطلعون اليه/ أهداف يقدرّونها/ تقدير الاخرين لهم/ الامن الاجتماعي/ مزيد من المال/ رغبة الوصول الى عمل/ مزيد من التعاون والتآزر.. وعليه نجد أن هناك عوامل اذا ما وجدت ازداد تماسك الجماعة ونعني بها: تقدير اهمية التعاون/ التشارك في القيم والاهداف/ التواصل السهل/ تأمين الاشباعات التي يتطلع اليها العضو، أما اذا ظهرت عوامل سلبية بين الاعضاء كالتنافس/ تعريض العضو لمواقف غير سارة / عدم تقدير الفرد بأعمال أدنى مستوى منه/ او تهميشه واشعاره بأحباط لعدم احترامه، فقد يؤدي ذلك الى انخفاض في قوة الجذب وبالتالي الى ضعف في التماسك. وفي هذا السياق يبين الباحث النفساني الامريكي ديفيد ليبرمان في مؤلفه :"get anyone to anything" الى ان آلية تماسك الجماعة تفرضه في ظروف عامة جملة عوامل ابرزها:

- حينما تكون الجماعة امام خطر يتهددها،
- عندما تشعر بأنها بحاجة لحماية ذاتها من نذير قد يهدد بقائها،
- عندما تجد نفسها في موضع منافسة مع جماعة اخرى فلا تجد بُدّاً من التكاتف والتعاون،
- وعندما تضع اهدافا وتطلعات تهم افرادها وينبغي تحقيقها من اجل مصلحة الجميع،

ويشير ليبرمان الى ان اهم مؤشرين يمكن ان يعملا على التماسك ويشد من ازر الجماعة الى بعضها البعض هما:

1) ايجاد خطر خارجي مرتقب (اي ايهام حقيقة او افتراضا بأن هناك خطر مهين يتهددهم وعليهم التآزر)

2) وضع الجماعة في موقع تحد وتنافس مع جماعة اخرى وشدد على ان ذلك لا يتم الا حينما تتفهم المجموعة روح التعاون قبل روح التنافس، (فالتعاون اهم وافضل من التنافس / التنافس مرحلي بينما التعاون ينبغي ان يدوم) [6]

ومثال على ذلك نقتطفه من كارثة اليابان الأخيرة (زلزال 2011) و كيف عاش ابناء المقاطعات المنكوبة حال التماسك وتغليب الروح الجماعية على المصالح الذاتية الانية ابان الكارثة وبعدها ، هذه الكارثة التي قُدِرَ ضحاياها بعشرات الآلاف، كانت اثر زلزال هائل ضرب شمال شرق اليابان، بتاريخ 11 آذار / مارس 2011، بدرجة 8.9 بمقياس ريختر المدمر وأدى إلى المزيد من الكوارث النووية المرعبة، جعلت العالم يقف في ذهول امام أخلاقيات الشعب الياباني التي تجلت في روح الايثار والاندفاع والمساعدة للاخر امام الذات كما جعلت المهتمين بدراسة سلوك الجماهير في علم الإجتماع، يتساءلون عن "ظاهرة التعاون وحياة التماسك في ظل الازمة"، كما حدث مع قناتي بي بي سي البريطانية، وسي ان ان الأميركية، اللتان استضافتا أكاديميين مختصين بدراسة سلوك الجماهير في الكوارث وآخرين في علم الإجتماع، فآشاروا الى جملة خصال بدت في تلك الظروف عند اليابانيين وهي :

1) الهدوء: لا منظر للنواح أو الصراخ أو ضرب الصدر

2) الاحترام: طوابير انتظار للماء و المشتريات، لا كلمة جافة، ولا تصرف جارح، ولا زحام.

3) الرحمة: الناس اشتروا فقط ما يحتاجونه للحاضر، حتى يستطيع الجميع الحصول على ما يحتاجونه

4) النظام: لا فوضى في المحال .. و لا استيلاء على الطرق .. ولا تجمهر، فقط التفهم

5) التضحية: خمسون عاملاً ظلوا في المفاعل النووي يضخون ماء البحر فيه، كي لا يتسرب

6) الرفق: المطاعم الفنادق والشقق خفضت أسعارها، كل شيء وكل مكان أصبح أرخص مما هو عليه قبل الزلزال، حتى أجهزة الصرف الآلي تُرِكَت على حالها..

قد يكون ما تقدمنا به هو من قبيل التحليل الإنساني، الا أن مثل هذا التحليل ما كان لولا وقائع ميدانية تسجلّت عن تماسك هذا الشعب ازاء ازمته وظهور «روح الجماعة»، ومما يؤثر في هذا المجال ما رصدته تقارير اعلامية عن وقائع تبين الروح الجماعية العالية ومنها:

- حينما اقفلت الافران وقفت سيدة مسنة أمام أحد المخابز المقفلة توزع الخبز مجاناً على المارة، حتى في مثل هذه الأوقات العصيبة، كان الناس يحاولون البحث عما يمكنهم القيام به لمساعدة الآخرين.
- في السوبر ماركت، حيث سقطت جميع السلع من الرفوف، كان الناس يلتقطون الأشياء التي يودون شراءها بدقة، ومن ثم الوقوف بهدوء في الطابور لشراء الطعام، بدلا من خلق حالة من الذعر، كانوا يشترون بقدر الحاجة، بل اشتروا أقل ما يحتاجونه تاركين المجال لغيرهم
- في مكان آخر في الطريق، كانت هناك سيدة تحمل لافتة كتب عليها "الرجاء

استخدام المرحاض لدينا"، وكانت قد فتحت منزلها للناس الذين شردهم الفيضان والزلزال لاستخدام حمامهم

- شاب يملك دراجة نارية رغب تقديم المساعدة بطريقة ما، حتى لو كانت فقط لشخص واحد، فكتب لافتة : "إذا لم تكن تمانع في ركوب دراجة نارية، فبإمكاني إيصالك إلى منزلك"، وقد وقف في البرد حاملاً هذه اللافتة، ثم اخذ يوصل أحد المارة إلى بيته في منطقة توكوروزاوا وهي بعيدة جداً.
- احدى شركة عصير المعروفة قامت بتوزيع العصير مجاناً على المنكوبين والنازحين، كذلك شركات الهاتف قامت بزيادة عدد نقاط توصيل الانترنت والانترنت اللاسلكي (wifi) لتسهيل التواصل، كما قامت شركة مواد غذائية بتوزيع مليون علبة من الشعرية والشوربة المعلبة مجانا، والجميع يحاول تقديم المساعدة بأفضل طريقة ممكنة.
- عندما انقطعت الكهرباء في المحال أعاد الناس ما بأيديهم إلى الرفوف و مشوا بهدوء!! ومما ذكرته صحيفة " الديلي تلغراف " اللندنية أن أعمال السرقة والنهب لم يكن لها وجود في اليابان على الرغم من حالة الارتباك العارمة وغياب القانون وإنشغال الشرطة في عمليات الإنقاذ، في حين أن البعض قال أنه لم يتم تسجيل حالة سرقة واحدة في هذه الكارثة
- ولعل من اكثر المشاهد تأثيرا هو ما حدث في مجمع تجاري حيث التقطت الكاميرات مقطع للعاملين فيه وهم يحاولون تثبيت الأشياء والرفوف في مكانها، عوضاً عن هروبهم من المحل أثناء حدوث الزلزال لينجوا بأرواحهم، كذلك موظفي غرفة الأخبار الذين حاولوا تثبيت المكتبات وشاشات الكمبيوتر.

*هل تؤثر الجماعة فعلا على خياراتنا الخاصة ؟ وما مدى هذا الاثر؟

يحرص بعض الناس وعندما لا يكونوا في حالة « عدم تأكد» الى وضع

رأيهم مع الاغلبية، لاننا كثيرا ما نضع قدرا كبيرا من الثقة العمياء في المعرفة الجماعية، في حين أن الجماعة غالبا ما تكون مخطئة لا لانها تتصرّف على أساس معلومات وأنما على أساس أنسياق، والمثال على ذلك نلاحظه مع ما يفعله أصحاب الاعلانات التجارية عندما يعمدون الى أستخدام آراء الناس في الطريق ليثنوا على سلعة ما دون غيرها.. مثل هذه الشهادات لعدد من الناس العاديين تتضمن نوعا من التشويه الخفي، فالمنتجون التجاريون لايهمهم الشهادات الصادقة والمشاركون في التسويق ممثلون لدور مؤقت والمواقف المعلنة واضحة التمثيل، كل ذلك بهدف أقناعنا بالدليل الاجتماعي المزيف عبرالتحكم بسلوكنا. وليس أدل على ذلك أكثر من أستخدام مصمّمو أعلانات السلع الغذائية لاطباء ومعالجين، فالمعلنين هنا أستغلوا مقدار الاحترام الذي يُضفى على الاطباء عندما يستأجرون ممثلين ليلعبوا دور الاطباء للدعاية حول منتج ما، لماذا؟ لانه ببساطة متناهية من غير المعقول أن تتم السيطرة على المشاهد الواعي عبر تعليقات رجل عادي بل لا بد من ربطه بشخص ذو مركز مهني- أجتماعي مهم حيث أعتاد الناس على احترامه.. وفي هذا السياق قدم عدد من الباحثين في علم النفس الاجتماعي العديد من التجارب للتدليل على مدى أثر الجماعة نذكر منها:

1) تجربة شريف

تهدف هذه التجربة الى معرفة مدى تأثير الجماعة في رأي الفرد، ولغاية التجربة أختار شريف عينة من أربعين طالبا جامعيا، وكانت تعليماته لكل طالب: حينما تظلم الغرفة ظلاما تاما ستمر أمامك نقطة مضيئة، أثناء ذلك عليك أن تضغط على المفتاح الذي أمامك فيختفي عندها الضوء. المطلوب أن تقدر المسافة التي تحركت بها النقطة. وقد أجرى شريف هذه التجربة في موقفين مختلفين حينما كان

الفرد منفردا في الغرفة، والتجربة الثانية حينما كان وسط جماعة من اصحابه. ثم أعاد الكرة – ثالثا- حينما كان بمفرده. فتبين له أن الافراد حين يدركون النقطة المتحركة فأنهم يكونوّن لأنفسهم اطارا مرجعيا ذاتيا يحددون على أساسه حركة النقطة، أما بالنسبة للمرحلة الثانية فقد وجد شريف أن الجماعة التي تواجه الموقف التجريبي فأنها تكّون لنفسها مدى من التقديرات لحركة النقطة الخاصة بها (غالبا ما يحكمه رأي الاكثرية) أما عن المرحلة الثالثة فقد قصدها شريف حتى يتمكن من معرفة ما اذا كان الموقف الاداركي الذي تكون أثناء الموقف الجماعي سيظل يحدد استجابته المرء وهو بمفرده ام لا..) نستنتج من تجربة شريف الى أن تواجد الافراد بصورة جماعية يتيح الفرصة لنشأة نوع من الاطار المرجعي يميل بموجبه أفراد جماعة الى أن يعدلوا من استجاباتهم بحيث تتلاءم مع ذلك المعيار الذي تقرره الجماعة .

2) تجربة كيرت ليفين

هدفت هذه التجربة الى معرفة أثر كل من المناقشة والمحاضرات في تغيير سلوك أفراد الجماعة لبعض العادات، ولغاية ذلك عمد ليفين للبحث عن وسيلة دعائية يتم من خلالها زيادة أقبال ربات المنازل الامريكية نحو أنواع معينة من اللحوم – الكبد والكلاوي- التي يعزف الامريكيون عن أكلها.. فأختار لتجربته عينة من 6 مجموعات تراوح عدد كل مجموعة بين 13و17 ربة منزل، ثم قسمت هذه المجموعات الست الى قسمين، قُدّم للقسم الاول منها محاضرة علمية تتضمن شرحا عن فؤائد الكبد والكلاوي وطريقة أعدادها وطهيها، وللقسم الثاني جرى حوارا وحلقة نقاش حول أبتكارات الطبخ الجديدة وأمكانية أستخدام لحوم غير مرغوبة.. فتبين بالمحصلة أن

السيدات اللواتي ألقيت عليهن المحاضرة 3% منهن تحولن الى تناول اللحوم المذكورة و32% ممن شاركن بالمناقشة تحولن الى هذه الاطعمة.. يفسر ليفين هذه النتائج بأن المحاضرة لا تتضمن التفاعل كما في المناقشة لانه في حالة المناقشة أنتهى الحوار الى قرار جماعي أو معيار عام وبالتالي اصبح الفرد اكثر تقبلا للفكرة، بينما في المحاضرة فأن الفرد لا يجد نفسه ملزما حيال اي التزام لما يقرر من الغالبية.

3) تجربة آش

يقال ان الكثرة تغلب الشجاعة ويضيف آخرون بل ان الكثرة ايضاً تغلب الادراك والعقل والمنطق احياناً واستدلوا على ذلك من تجربة العالم آش التي اجراها في عام 1952 لاختبار تأثير الجماعة او ما يعرف بمفهوم المسايرة الاجتماعية على الافراد في تعديل وتحريف احكامهم وقراراتهم ومعاييرهم، استخدم آش في هذه التجربة اختبار المزاوجة حيث طلب من الافراد ان يحاولوا المزاوجة بين طول خط أساسي محدد وبين أحد خطوطة ثلاثة غير متساوية في الطول في مجموعة كبيرة من الاختبارات التي تقيس العلاقات الإدراكية البسيطة، وضع آش المجموعة داخل غرفه ولكنه قبل ان يضعهم بالغرفة قام بالاتفاق مع 7 من الثمانية افراد على اصدار احكام علنية خاطئة ومنافيه للواقع وتبتعد عن المنطق وابقى على فرد واحد من المجموعة دون ان يوجهه او يتفق معه على شيء فكان يوجد في كل مجموعة سبعة افراد (عملاء) ويترك واحد سليم النية لا يعرف شيء عن الاتفاق القائم بين آش وباقي الافراد العملاء وبدأت التجربة عندما طلب آش من المجموعة ان تبحث عن الخط المساوي للخط الاساسي من بين الخطوط الاخرى فأجمع

الافراد العملاء على اصدار احكام غير صحيحة ومحرّفه فكان بأن هذا الخط القصير هو المساوي بالطول للخط الاساسي

اجريت التجربة اكثر من 50 مرة بأستخدام شخص جديد (غير عميل) في كل مرة والنتيجة كانت كالتالي: (32 %) من الأشخاص الجدد موضع التجريب اضطروا الى مسايرة احكام المجموعة غير الصحيحة والمحرفة التي اجمع عليها السبعة الافراد العملاء فلم يكن امامهم إلا مسايرة اختيار الاغلبية و(68 %) من الاشخاص الجدد اصدروا احكاما صحيحه بعضهم كان واثقا من حكمه والاغلبية كانوا مترددين كثيراً قبل اصدار الحكم الصحيح، بعد ذلك قام آش بالاتفاق مع 6 افراد فقط على تحريف احكامهم بالاجماع في بعض التجارب وكان هناك اثنان تحت التجربة وهما مختلفان عن السابقين والنتيجة كانت: ان الفردان قاما بتحريف احكامهما في (10,4 %) فقط من مجموع الاحكام بدلاً من (32 %) في التجربة الاولى والسبب ان الاغلبية قررت، بعد ذلك اتفق آش مع 7 افراد من المجموعة على تحريف احكامهم ولكنه في هذه المرة طلب من الفرد السابع ان يصدر الحكم الصحيح دائماً قبل الفرد الثامن (الذي كان تحت التجربة ولم يجر الاتفاق معه) والنتيجة كانت ان الفرد الثامن قام بتحريف احكامه في (5,5 %) من مجموع الأحكام وذلك لأن الفرد السابع اصدر حكما صحيحة منافياً لحكم الاغلبية المحرف وغير الواقعي. واستخدم آش المجموعات المكونة من 16 فردا وفي البداية اتفق مع فرد واحد يكون عميلاً على الجماعة بينما كان 15 اخرون تحت الاختبار ولآحظ انه لم يكن للفرد المدسوس اي تأثير على احكام الاخرين بل قوبل بالسخرية من قبلهم وبدأ آش يزيد عدد الأفراد فكلما زاد من عدد المدسوسين كان تأثير احكامهم يظهر على احكام الاخرين وكلما زاد عدد الأقلية اخذ

رأيهم يصبح له تأثير متزايد على الافراد الاخرين، اجرى آش تجارب اخرى مماثلة ولكنه زاد من غموض المثيرات فأستخدم الخطوط الملتوية وطلب اصدار احكام صعبة ولاحظ ازدياد مسايرة الأفراد لحكم الاغلبية بوجه عام وقلّ اضطراب الافراد وترددهم ونقصت حدة موقف الصراع والقلق مع ازدياد تعقيد وغموض المثير . نستنتج من تجربة آش ان مسايرة الفرد لحكم الجماعة حتى لو كان هذا الحكم منافياً لمنطقه وعقله ومعياره الخاص يزداد كلما زاد عدد المعارضين لرأيه وكلما اجمعوا على رأي ضده وايضاً كلما غمض المثير وزادت صعوبة الموضوع.

- **تجارب اخرى:**

من التجارب ما قام بها عالم نفسي حيث كان هدف التجربة هو معرفة آثر رأي الجماعة على الفرد الذي عمد الى تجهيز غرفة ووضع فيها عشرة كراسي موجة نحو باب الغرفة وأحضر تسعة أشخاص اتفق معهم على تجربة تقضي بان يجلس الأشخاص التسعة والشخص الذي ستقع عليه التجربة على الكراسي العشرة ثم يخرج العالم من الغرفة و يرد الباب وراءه، ليقوم بعدها بإشعال ضوء أحمر خارج الغرفة لمرة واحدة ولأجزاء من الثانية وبالطبع أثر الضوء سوف ينفذ إلى الغرفة و يراه الجميع، ثم يعود العالم للغرفة و يبدأ بسؤال الأشخاص عن لون الضوء بعدما اتفق مع الأشخاص التسعة على الكذب في أن يقولوا أن الضوء هو أخضر امام زميلهم العاشر ويبدأ العالم بسؤالهم واحداً تلو الآخر أمام الشخص موضوع التجربة عن لون الضوء . فتبين من النتائج ان:

- ✓ **30 % من الأشخاص أجابوا بأن الضوء أخضر بدون تردد و بسرعة**

(انقياد تمام مع الجماعة)

- ✓ 55 % من الأشخاص أجابوا بأن الضوء أخضر لكن بعد فترة من الصمت (انقياد مع تردد)
- ✓ 15 % من الأشخاص أجابوا بأن الضوء هو أحمر (خالفوا الجماعة و قالوا الحقيقة)

1) تجربة Philip Zimbardo:

من اجل دراسة سلوك الانسان في بيئة السجن قام فيليب زيمباردو بإجراء تجربة عام 1971 تسمى «Stanford Prison Experiment», وفيها استعرض مدى سهولة جعل الانسان يقوم بأعمال لااخلاقية، كان يعتقد أنه ابدا لن يجرأ على القيام بها، في سرداب الجامعة انشئ زيمباردو سجناً. شارك لتجربته 25 شخصا من بينهم اشخاص معروفين بنضالهم من اجل حقوق الانسان واشخاص اخرين اهتمامات مدنيّة لهم، من خلال القرعة توزع الجميع على فريقين: السجانين والمسّاجين. فريق المساجين جرى تجهيزهم بالعصي والكلبشات ونظارات سوداء، وكانت مهتمهم الحفاظ على النظام خلال الاربعة عشر يوما القادمة. وفريق المسجونين تم ربط ارجلهم بالسلاسل واعطاءهم ملابس الاعتقال المخططة. وعوضا عن اسماءهم اطلق عليهم ارقام. اليوم الاول من التجربة مر بكل هدوء ولكن جماعة الخفر الليلي اصيب بالملل لذلك قاموا بإيقاظ المساجين في الساعة الثانية والنصف ليلا واجبروهم على ترتيب اسرتهم. وإذا لم يكن الخفر الليلي راض عن الترتيب يقوموا بتخريبه واجبار السجناء على الترتيب من جديد .ازاء ذلك قام المساجين بالانتقام اذ في الصباح اعتصموا في زنزانتهم ونزعوا

الارقام عن ملابسهم. وعليه كانت ردة فعل الحراس سريعة. لقد فتحوا عليهم عبوات اطفاء الحريق واخرجوا الاسرة من الزنزانات وتركوا المساجين يجلسون عرايا، في حين وضع قائد الانتفاضة في السجن الانفرادي. بعد 36 ساعة انهار السجين رقم 8612 وطلب مغادرة التجربة. غير ان البروفيسور طلب منه الاستمرار بصفة جاسوسه الخاص.غير ان المسجون رقم 8612 قد اعتقد انه من غير المسموح بمغادرة التجربة واصيب بالانهيار العصبي وبدأ بالصراخ الى ان سمح له بالمغادرة. في الايام التالية انهار المزيد من المساجين، في الوقت ذاته ازدادت سادية السجانين الذين منعوا المساجين عن الذهاب الى الحمامّات او حتى تفريغ السطول الممتلئة بمخلفاتهم. في النتيجة اصبحت الزنازين تعبق بالروائح الكريهة. عندما اصبح السجانين ينظرون الى انفسهم من خلال الجماعة كوظيفة "نحن السجانين"، اضحت العدائية هي القيمة التي ينتجها مثل هذا الانتماء الى هذه الجماعة.

تبنئ مثل هذه التجربة عن نشوء خبرات سارة بين جماعة واخرى غير سارة ضد اخرى تضطهدها، فالسجانين مثلا نمى لديهم مشاعر غير ودية تجاه السجناء. وهذا يؤشر - حسب احدى مبادئ علم النفس الاجتماعي – الى تفضيل الانسان للجماعة التي ينتمي اليها ويصم بسهولة "مختلف المساوئ" بأفراد الجماعة الاخرى. ظاهرة التقسيم الى جماعة (نحن، وهم) تنشئ عندما يبدأ الفرد بوعي هويته وانتمائه من خلال الجماعة (نحن)، بإعتباره جزء من الكل. كلما زادت رؤية المرء لنفسه كجزء من الجماعة كلما زاد تقبله لقيم الجماعة وقواعدها. عندها يقوم بتصحيح مفاهيمه الخاصة لتتناسب مع مفاهيم الجماعة العامة وتعلو المصلحة المشتركة على حساب القيم الفردية، حتى يصبح احدهم على استعداد للتضحية بحياته من اجل الجماعة. على خلفية هذه الصورة يمكن

ان نفهم حتى العمليات الانتحارية للمتطرفين الدينيين، عندما يصبح الانسان مذابا في الانا الجماعية يتوقف عن استخدام تعبير انا وانت، ويصبح التعبير المستخدم هو " نحن، وهم"، والاخيرة يكون لها مضمون عدائي غالبا. لهذا السبب يقال ان فكر الجماعة يعيد الفرد الى ماضيه المتوحش والبدائي وعلى الاخص الذي كان يستأنس بلجوئه الى حالة جماعية يظهر فيها اضمحلال للشخصية الفردية امام ضغط السلوك الجماعي او رغبته. ليصبح الوضع هنا اشبه - وكما يوضح عالم النفس الاجتماعي فيليب زيمباردو - بحالة المخلل اذ " في وسط الخل من المستحيل ان تبقى الخيارة حلوة» (7)

على ما تقدم ندرك ان هناك اسبابا عديدة تتحكم بظهور الفئات الخاصة بالجماعة لتجعلها جماعة، وأولها ان الفرد المنضوي اليها يكتسب بواسطة العدد المتجمع شعورا عاما بالقوة وهذا ما يتيح له الانصياع الى بعض توجهاتها، اما السبب الثاني فهو العدوى العقلية الذهنية، حيث الفعل الكلي او الاجماعي يتنشر ليتأثر به الاجزاء - الافراد فيصبح لدى هؤلاء فعليا خصائص الانخراط بالجمهور وهي:

- ✓ تلاشي الشخصية الواعية،
- ✓ هيمنة الشخصية اللاواعية،
- ✓ توجه الجميع ضمن نفس الخط بواسطة التحريض والعدوى للعواطف والافكار،
- ✓ الميل الى تحويل الافكار المحرض عليها الى فعل ممارسة .

وهكذا لا يعود الفرد هو نفسه وانما يصبح في الجماعة عبارة عن انسان آلي لم تعد اراداته بقادرة على ان تقود..عملا بالمقولة التي تشير :

اذا قال لك احدهم بأنك حصان، فبالطبع هو انسان مجنون

واذا قال ثلاثة اشخاص انت حصان فثمة مؤامرة تحاك ضدك ..

اما اذا قال لك عشرة اشخاص بأنك حصان، فهو الوقت لكي تشتري سرج

هوامش الفصل الأول:

1) غوستاف لوبون، سيكولوجيا الجماهير، ترجمة هيثم صالح، دارالساقي، بيروت 1991

2) روبرت سبالديني: التأثير: وسائل الاقناع، ترجمة سعد جلال ، دارالفكر العربي، 1988

3) **BARBARA SHER, I could do any thing, dell publishing, newyork, U.S.A,1994**

4) روبرت سبالديني، المرجع نفسه

5) **JAMES M.HENSLIN, SOCIOLOGY a down to earth approach 7th, U.S.A..2005**

6) **DAVID LIBERMAN, get anyone to do anything, st martin's griffin' newyork, 2000**

7) سلوك الجماعة يخلق طغاة com.nadyelfikr.www

الفصل الثاني

الجماعات غير المنظمة

الجماعات غير المنظمة والسلوك الشمولي- مدخل:

يرتبط هذا السلوك بوجود الفكر الشمولي في المجتمع الشمولي، ومثل هذه التعابير (السلوك/ الفكر/ المجتمع: الشمولي) انبثقت من الثورة الصناعية التي شهدتها المجتمعات على اختلاف ازمانها وجغرافيتها، حيث كانت احدى ملامح القوة العاملة القادمة من الريف الى المدن والذين عملوا على تأسيس منظمات عمالية عمد بعدها ارباب العمل وطبقة التجار الكبار الى تذويب تطلعاتها الطموحة بأشاعة مقولات من قبيل: الشعب له معنى ايجابي والجماعة لها معنى سلبي، مما اوحى بأن أي تجمع عمالي له هدف سلبي على المجتمع، وبات ينظر اليه على انه خطر ومحظور. ويحدد دانييل نيل ثلاثة افتراضات اساسية لنظرية المجتمع الشمولي هي:

1. ان الافراد في المجتمع الشمولي اكثر شعورا بالغربة واكثر تباعدا
2. فرَضَ انهيارالايمان التقليدي في هذا المجتمع سلطة النخبة المتعلمة
3. المجتمع الشمولي هو المجتمع الذي يظهر فيه تشابه سلوك لدى أبنائه في محطات وفترات رغم الاختلاف والتباين القائم .

وعليه نفهم السلوك الشمولي على انه السلوك السائد في جماعة حيث معظم مؤسساتها تسمح بالتعامل مع افرادها كمجموعات منظمة او ككتل غير منظمة. ذلك انه مع وجود اعداد كبيرة من الناس لا رابط بينها ولا ولاء يشدها، تبرز امكانيات متاحة للتحرك واعادة التجمع، ومجرد وجود مجموعات من الناس مفككة وغير ملتزمة يكون بحد ذاته دعوة للقادة والزعماء من اجل السعي للسيطرة عليهم وتعبئتهم وعندها يظهر الاستغلال بشكل واضح .

يتميز السلوك الشمولي (سواء كان ثقافة او تحركا) بصفتين اساستين: شعبية واسعة وجاذبية ناشطة بين مختلف فئات المجتمعات، فأزاء ثقافة نخبوبة غير مهتمة بمصالح هؤلاء الناس ومع اهتراء منظمات تقليدية لا تلبي رغبات الناس العادية في ابسط امور حياتهم ومع تدني ظروف الحياة والعيش والتعليم والاستهلاك تصبح الظروف مهيأة لبروز سلوك شمولي كرد فعل قهري من قبل اعداد كبيرة من الناس يعيشون تحت ظروف مادية ومعنوية قاسية. وقد قدم برامسون عرضا واضحا لنشأة مفهوم السلوك الشمولي مظهرا الصلة بينه وبين حالة الرعب التي تسود المجتمعات بسبب الغوغائية التي كانت تصدر عن الرعاع الثائر، ويلاقي برامسون في التصور غوستاف لوبون الذي يربط بين سلوك الحشد والتفكك الاجتماعي [1]، وعلى ذلك يمكن دراسة وفهم طبيعة السلوك الجموعي غير المنظّم من خلال درس بعض الاطر مثل: الحشد، الرعاع/ الشغب والهلع، والهوس والرقص المسعور/ الهستيريا والتدافع والصرعات والازياء السائدة والثورات الشعبية في صور الاحتجاج والتظاهر وحملات الاستنكار وجماعات المقاطعة، وغيرها من الظاهرات الجماعية على نحو ما سوف نعرفها تباعا:

1. الحشد : ويشير الى وجود عدد كبير من الناس في مكان واحد وانما يختلف بدرجة التفاعل القائم فيما بينهم، حيث في بعض حالات الحشود هناك وحدة شعور آني وتصرف مؤقت، اذ وجود الإنسان وسط حشد من أقرانه يشعره بالأمان وعدم الخوف غريزيا ومن هنا تبدأ المشاعر المكبوتة في الظهور دون تفكير في عواقبها، لأن من صفات الحشد غلبة العاطفة على العقل ومحاولات التفكير عموما وعندما ما تبدأ المشاعر المكبوتة في الخروج من قلة معينة في الحشد وغالبا ما تكون هستيرية لتنتشر بين باقي الحشد كالنار في الهشيم وبسرعة خيالية يصبح معها الحشد كتلة واحدة ينفعل ويتحرك ويتحد افراده معا، ولكن إن طبقنا هذا الشعور على الحشد الأكبر بعيدا عن حشود التجمعات ونقصد هنا المجتمع ككل، فكل فرد في حد ذاته يخاف الخروج عن الحشد ثقافيا أو فكريا أو عمليا.

ويحرك الحشد هنا الشخصيات البارزة التي بدورها تختلف باختلاف المجتمع ذاته فهناك مجتمعات تحركها الشخصيات السياسية وهناك مجتمعات يحركها رجال الصناعة وهناك مجتمعات يحركها نجوم الغناء والتمثيل،(كلنا يعرف الفارق بين كل هذه المجتمعات ونعرف بالطبع من يحرك عقول الحشد من حولنا الذي ينتظر بفارغ الصبر صدور احد الألبومات الغنائية لأحد المطربين والذي يتميز بوجود الكثير من الذين لا ينتظرون الألبوم لسماعه بل لتقليد قصة شعر المغني الجديدة) وبالطبع هناك حشود تتجمع بناء على مواقف وطنية مؤثرة بصورة عفوية.. وتلك التي تتحرك لاجل قضية انسانية طالت مواطنهم او مست كرامتهم ومقدساتهم.

وتحـاول السـلطة الواعيـة دومـا تحـاشي الحشـود أو مواجهتهـا لان الحشـد لا يمكـن التكهـن بخطوتـه المقبلـة المتقلبـة كمثـال الحشـود التـي كانـت تقـف وتهلـل في

ساحات الإعدام للاقتصاص من المجرمين ثم تهلل مرة أخرى بعد الإعدام في فرح ونشوة في حالة هروب المحكوم عليه بالإعدام وأيضا لا يتوقف الحشد من تلقاء نفسه فلابد من تغير خارجي عن الحشد حتى يوقفه ففي حالة التجمعات نعلم أن استخدام القوة هو الحل المتواجد باستمرار وهناك أيضا حلول أخرى ولكن لا تعتبر جذرية ولا تستخدم في اغلب الأحيان مثل دس بعض العناصر لتغيير تفكير الحشد وكما تبدأ هستيريا الحشد من فرد أو اثنين فيمكن دس بعض الأفراد لتحويل هذه الهستيريا إلى اتجاه أخر ولكن هذا الحل فيه بعض المخاطرة بالفشل ولكن ما ينجح دوما هو تشتيت الحشد قبل تواجده في الأصل وذلك عن طريق الترهيب أو الترغيب أو كلاهما أو بجذب الأنظار في اتجاه أخر وهو ما يعرف بأسلوب (الجرافة) حيث يتم إبهار أنظارك بشئ في جهة اليمين بينما يتم اللعب في جهة اليسار وهو ما نراه عند الهاء الرأي العام عن أحداث هامة تخص أناس مهمين لا يريدون لفت الأنظار إليهم في جهة اليسار. من هنا يلعب أصحاب السلطة على وتر حشد المجتمع والرأي العام ككل كي يتحاشوا وجود حشود وكتل تقف في مواجهتهم، الا ان من يقرأ الواقع السياسي سرعان ما ينقلب الى صفوفهم عملا بالمقولة التي تقول: «لن يبدأ السياسيون المظاهرات لكنهم يتسابقون لقيادتها متى بدأت».

2. الرعاع: جماعة من الناس يقومون بأعمال شغب وتخريب تعبيرا عن شعور عام بالاستياء اكثرمما تعبر عن اهداف محددة، ومع ظاهرة هذه الجماعة وحالة «الشغب» التي تصدر عنها، يُنظر دائما الى من يقوم بها والبيئة التي يأتون منها؟ فغالبا ما تلعب الخلفية الثقافية – الاجتماعية دورا في تصوير معالم التحرك الذي يقوم به الرعاع، فهم اما قادمون من أرياف الى مدن

وسكنوا الضواحي، وأما هم أيد عاملة تكدست في احياء، واما هم شبيبة موتورة تحتمي بقوى مسلحة تثير الفوضى هنا والرعب هناك بهدف تحريك وضعا يراد منه الضغط على مواقف سياسية غير مرحبة من فئة معينة من الناس او ضد اجراءات حكومية اتخذت، فيشعر هؤلاء بأنهم مستهدفون في تلك المواقف او الاجراءات فيأتي رد فعلهم غاضبا يتخذ صورة الشغب الشوارعي المؤقت. من هنا نفهم بأن الرعاع او حالة الشغب هي الفعل الظاهر لذلك الشعور الذي اصاب بعضهم بالاستياء والاحباط والغضب والحرمان والشعور بالقهر والاضطهاد.

ويصف بعض الباحثين في الدراسات السوسيولوجية بأن هذه الحالات تزداد حدة مع مرور الوقت فتصبح على شئ من الغليان نتيجة التوتر المكبوت عند الفئات المهمشة او العاطلة عن العمل او المغيبة عن السياسات الاجتماعية الى ان يأتي حدث يكون بمثابة «الشرارة» الذي يفجر هذه التراكمات في صورة عنف جماعي موتور. مما يعني – ومن وجهة النظر النفس اجتماعية- ان اي توتر مشحون ينتظر دائما «عود ثقاب» لينفجر من قبل كل الفئات الاجتماعية فيصبح الجميع رعاعا يشعرون بأن ما يحدث يهز كيانهم بغض النظر عما يعانونه من حرمان او احباط او قهر او استياء بل يتحركون بالانتفاض لانهم متشاركون في مآسي الحدث وهم واحد كما هو الحال عند اغتيال زعيم سياسي كيف ينتفض مناصروه من كل الشرائح الاجتماعية في سورات غضب وعنف تعبيرا عن قهر .

3. الهلع : يحدث عند مواجهة المخاطر المفاجئة والحالات الطارئة التي تهدد السلامة العامة، فلا يكون بمقدور الناس فعل شئ أزائها بل يصبحوا اكثر

حـدة بالخـوف خصوصاً عندمـا يستسـلمون للموقـف المفاجـئ والمهـدد وبأنهم سـيصبحون ضحيـة للحـدث المرتقـب. يـؤشر ذلـك الى ان النـاس قـد تصبـح في حـالات الهلـع - ونتيجـة الظـروف النفسـية التـي تمـر وتعـاني- عـلى شـئ مـن العدائيـة كـرد فعـل عـلى «ضغـط الخـوف المتـوالي» او قـد يصبحـون أكـثر توتـرا وعصبيـة لدرجـة قـد يخرجـون مـن بيوتهـم تائهـين لا يـدورون ايـن يذهبـون او يقـودون سـيارتهم بشـكل جنـوني .

وغالبا ما ترتبط ظاهرة الهلع بالاخبار الاعلامية، عندما يعمد بعض المراسلين او المحققين الى بث اخبار اولية وبشكل متقطع عن ما يمكن ان يحدث او حدث بالفعل ويأخذون بسرد القصص عن تبعات ذلك الحدث، فأذا قال احد المراسلين بأنه يتحدث من وكالة فضائية وثمة مؤشرات تشير بأن هناك نيزك كبير يقترب وسيسقط في مدينة معينة فلا شك ان سكان تلك المدينة سيدب فيهم الهلع. ويزداد الامر سوءا عندما يبدأ الاعلاميون أثارة الاحداث ونقلها عبر تقارير متواصلة وصاخبة بين الحين والاخر. وهذا ما لآحظه السوسيولوجي السويدي willim bainbridge (1973) عندما رصد وسائل اعلامية محددة اخذت تبث اخبارا عن حرب نووية محتملة وتتعامل مع الحدث كأنه وشيك ومحتمل الوقوع في اي لحظة، كيف بادر الناس -وحسب مراقبة الباحثين- الى التصرف بردود فعل مفزعة، بعضهم أتصل بمراكز الشرطة للاستعلام أو بأقرباء لهم يستسفرون، وبعضهم أخذ يوضب اغراضه للرحيل الى مكان آخر يعتقده اكثر امانا.. والقليل منهم اخذ يحكم اغلاق نوافذ بيوتهم خوفا من تسرب نووي الى منازلهم[2] مثل هذه الاستجابات الهلعية مع حدث مفترض يؤكد فاعلية الاعلام ومساهمة وسائله الفعالة في اثارة الرعب وحالات الهلع. وليس اقله الهلع الاخلاقي:

I. الهلع الاخلاقي: يظهر مثل هذا الهلع عندما يصبح الناس اكثر اهتماما وخوفا تجاه بعض التصرفات التي يعتقدون انها ستصيب قيمهم وتقاليدهم وحتى معاييرهم الاخلاقية، وغالبا ما يلعب الاعلام دورا في ايجاد « النقزة» لدى فئات عديدة من خلال تصوير ابعاد ما حدث على انفسهم وحياتهم بشكل خطير، والمثال على ذلك ما نسمعه عن التحرش بالاطفال جنسيا في دور الحضانة او مراكز الرعاية البديلة، وكيف ان احدى هذه المراكز تعمد الى تعرية الاطفال فيكشف الاعلام بعضا من تفاصيل ما حدث بشكل مخز ومخجل مما يترك حالة ارتياب وخوف ويدب الذعر والهلع لدى الاهل الذين يودعون اولادهم في الدور الرعائية البديلة، مما يجعل العاملون بها تحت المراقبة وعرضة للمساءلة والامهات العاملات في حالة تخوف، لا لشئ الا لأن سمعة احداها السيئة انتشرت وجعلت المعنيون بهذه الظاهرة يتحسبون ويتوجسون خوفا وهلعا على ابنائهم.

كذلك الامر بالنسبة لحالة الرعب التي تعتري كثيرون من اعتداءات قد تطال الفتيات او الاطفال في الممرات المقفرة او الملاعب والحدائق العامة من اشخاص غرباء تتمثل في حالات اغتصاب او نشل وتعدي او مضايقات مزعجة مرافقة بافعال عنفية مؤذية، وهذا ما يبرر قلق الاهل الذين يعيشون دوما هاجس ان يكون ابنائهم من ضحايا مثل هذه الاعتداءات، فيعيشون هلعا لمجرد ان سمعوا او قيل لهم او شاهدوا على التلفزة حوادثا من هذا القبيل مما يجعلهم يتحسّبون ويتعقبون اولادهم خوفا وقلقا عليهم اويتحركون واياهم بحذر، ليجعل هؤلاء يسيرون وفق خوف ملازم اعتقادا منهم بأنهم : قد نكون نحن الضحية التالية.! وتزداد

حدة الهلع الاخلاقي كلما كانت الوقائع اكثرغموضا والمجتمع في حالة فوضى واضطراب مما قد يعزز لدى ابناء هذا المجتمع عوامل القلق والهم من انعكاسات الفوضى والاضطراب على مسار حياتهم فيشعرون بأن دائرة آمانهم الشخصي تقلصت فيصبحون اكثر عرضة لأي اعتداء محتمل .

قرر جون قضاء سهرة نهاية الاسبوع في احدى الحانات (**nightclub**) وهناك تعرف على فتاة جميلة فأمضيا معا وقتا ممتعا ثم غادرا الحانة وذهبا الى نزل قريب في المدينة واستأجرا غرفة خاصة لهما، في صباح اليوم التالي استيقظ جون ولم يجد تلك الفتاة في الغرفة، فقد غادرت قبل ان يستقيظ..وعندما همّ لدخول الحمام رأى رسالة منها مكتوبة بأحمر الشفاه على المرآة تقول فيها: " اهلا بك الى عالم رائع ....عالم الايدز"

4. الهوس: ويعني التعلق الشديد بظاهرة ما، لدرجة تصبح بمثابة حاجة نفسية حادة يقدم عليها صاحبها لانها تقدم اشباع ذاتي لديه، ومن الامثلة عنه هوس التجميل والترشيق والنحافة، ويعرّف التجميل بانه «تخصص دقيق تابع للجراحة العامة يختص بترميم اعضاء الجسم المختلفة جراء الحوادث او التشوهات الخلقية او بعد عمليات استئصال الاورام»، في السابق كانت عمليات التجميل تختص بمن تقدموا في السن او تعرضوا لحادث ما، بينما اليوم تشكل حالة من الهوس في تقليد المشاهير والرغبة بأجرائها من أجل الجمالية اكثر من ضرورة اجرائها كترميم. ويرجع باحثون مختصون انتشارها الى الواقع الفكري عند الاغلبية، حيث أصبح الاتجاه الى الاهتمام

بالشكل والصورة اكثر من الاهتمام بالجوهر والفكر والحاجة الى التقليد بالآخر رغم ندرة الوفر المادي (لدرجة ان هناك مصارف باتت تدرج ضمن برامج قروضها: القرض الخاص بعمليات التجميل). هذا فضلا عن الزخم الاعلاني المكثف الذي يحاول اقناعنا بما لا حاجة لنا به والى تحسين نمط حياتنا وأسلوبها حتى وصل به الأمر لأن يجعلنا مستهلكون بأمتياز لسلع يعلن عنها يوما بعد يوم وان نكون مهيأين لعمليات تجميلية بعدما اصبح الامر متيسرا بالدعاية والترويج لصناعة الجمال بكافة السبل. وخاصة مع ظهور ما يسمى بـ "طب الرفاه"، وهو الاستعانة بالطب من اجل الجمال والكماليات العصرية مواكبة لكل ما هو جديد. والامر الذي يبعث على القلق هو ما بات يعلن عنه بأن أختيار انف جديد مثلا هو كشراء ثوب وان الاجراءات التجميلية له خالية من الالم والمخاطر. إن مقاربة هوس التجميل مسألة مركبة يتداخل فيها الجانب النفسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي، ولكن يبقى العامل النفسي هو الاهم والمحور الذي تدور حوله كافة العوامل وهذا ما يظهر عمليا عبر عامل الغيرة وحب الامتثال بالاخر ذلك انه اذا تم توجيه سؤال للواتي اجرين عمليات تجميلية لِمَ قمتم بهذه المجازفة؟ تكون اجابتهن إن "وجدت غيري فعلها وما صار فيه شي! ولم لا افعلها انا" وهذا ما ينبئ بان عمليات التجميل اصبحت واحدة من علامات الهوس، وان الفتيات والشباب اصبحوا يقومون بها كصرعة من صرعات الموضة.

وظاهـرة اللجـوء الى مسـائل التجميـل والترشـيق مـن الناحيـة النفـس اجتماعيـة تنطـوي عـلى تـرف يركـز عـلى الشـكلانية كمسـألة جوهريـة، حيـث ينظـر الى الجسـد بوصفـه شـكلا قائمـا يستحسـن تحسـينه، ومثـل هـذا النظـرة اختزلـت الانسـان في مظهـره الخارجـي واخـذت تعـزز لديـه فكـرة النـزوع نحـو تغيـيره اذا لم يكـن

متناسقا عن طريق الجراحة واتباع وسائل حمية او رياضة ما، كما يعكس ميلا الى التنميط والتماثل مع نماذج اجتماعية تستقطب الاضواء فيعكس هذا النزوع – في مجتمعاتنا العربية على الاقل- دونية ومحاولة للتشبه بما تقدمه الثقافة الغربية ولو على حساب الابعاد الاخرى للانسان كجوهر ينطوي على قيم واخلاق. إلا أن هناك أيضاً مكون نفسي بالغ الاهمية حيث تستثير هذه الجراحة رد فعل حاد من المريض وذويه بالارتياح فيما لو كانت بشكلها السليم وادت غرض التجميل. وقد تؤدي الى تعاسة ما عندها صاحبها بعد اجراء العملية.. فقد لا يكون راضون عن نتائج الجراحة إذ جاءت على غير توقعاتهم فيعيشون خيبة واحباط. حيث لوحظ ان هناك امرأة من بين اربعة يشعرن بخيبة امل وقلة اعتداد بالنفس بعد قراءتها مجلات الموضة لانها تدفعها – اعلانات المجلة- الى الخروج والبحث عما يجعل هذه المرأة شبيهة مع ما تشاهده وتشتري آخر مبتكرات الموضة وادوات التجميل (وربما لا تستعملنه) فتقع في حالة شعور بالخيبة لان ذاتها بقيت هي هي (3)

ويرتبط الهوس بظاهرة العدوى الاجتماعية بمعنى وجود آخرين يساهم في خلق حالة التماثل ويعود ظهور العدوى الى انتشار ظواهر اجتماعية في مكان ما، تتلّقفها جماعات اخرى في مناطق تتقارب واياها بميزات مشتركة عاطفيا وعقليا. وهكذا تصبح العدوى الشعور المشترك بين افراد جماعات الذي يظهر «كشئ ما في الجو» وكل فرد يتأثربهذا الشعور السائد (الجو) ويصبح على حالة استعداد لتغيير تصرفاته تجاوبا معه، ومما يعزز انتشار الهوس كعدوى في الاوساط الاجتماعية المختلفة جملة عناصر منها :

a. **<u>ارتفـاع درجـة الايحـاء</u>: مـن المعـروف ان مغريـات الاشـياء المفتقـدة تولـد رغبـة بالاقتـداء فكيـف اذا ارتفعـت درجـة ايحائهـا عـبر الاسـتدراج**

النفسي واللعب على العواطف بالاعلان والدعاية حيت تضيق مساحة الادراك العقلاني

b. تجانس الوضعيات: اي ان الخبرات المتجانسة بين الناس والافراد والجماعات المنتمين الى ظروف متشابه بنمط الحياة يمكن ان يساهم في سريان العدوى

c. الرغبة في التماثل، وتحدث عندما يرغب احدنا فعليا بان يكون كآخر او تود جماعة معينة ان تتشابه واخرى مما يسهل فرص العدوى في الوصول ويهيأ من فرض انتشارها على نطاق واسع

5. الهستيريا الجماعية :في سياق متصل مع ظاهرة الهلع التي تحدث في اكثر من مكان تظهر الهستيريا الجماعية كتعبير مرادف أو كظاهرة اخرى تعبر عن السلوك الجماعي، ويمكن فهم هذه الظاهرة فيما تصوّر أحدنا انه في مركز تجاري او نزيل في فندق سياحي فجأة اندلع حريق هائل سنجد الجميع يهرعون من كل حدب وصوب بحثا عن مخرج في مجهود مضاعف عن ما هو معروف لديهم للهرب او للتخلص من حالة الخطر المحدق بهم. ولكن هل الجميع سيتصرفون بشكل هستيري ازاء حالات الخطر الواقع؟ مثل هذ التساؤل كانت اشكالية لدراسة سوسيولوجية قام بها الباحثان الامريكيان Drue Johnson &Norris Johnson (1989) على عينة من العاملين والاداريين والزبائن في نادي بيفرلي هيلز الخاصة بنخبة المجتمع الامريكي أثر حريق شب في هذا النادي، فخرج الباحثان بالنتائج التالية : 29 % غادروا المكان فورا، 41 % ساعدوا آخرين على المغادرة، 17 % ساهموا في اعمال اغاثة واطفاء، 7 % تابعوا سير عملهم المعتاد، 5 % اخذوا

يتفقدون اصدقائهم وزملائهم. على ضوء هذ المعطيات نستنتج بأن ليس كل انسان يمكن ان يصاب بهستيريا في المواقف المرعبة، فبعض الناس قد تتصرف بشكل لآمبالي، وبعضهم الاخر قد يكون اكثر وعيا واستيعابا للحدث ومخاطره فيعمدون الى التخفيف من مآثره على المحيطين بهم (كما يفعل الاباء امام اطفالهم في حالات الاحداث الامنية العاصفة بالقصف والتفجيرات) ومنهم من يهب للمساعدة ولعب دور مشارك. وهذا ما استنتجه السيوسيولوجيان على ضوء استطلاعهم من ان هؤلاء (الذين يلعبون دورا مشاركا) يعمدون الى ما اصطلحا على تسميته ب: **role extesion** اي ما يتصرف به بعض الناس في المواقف الهلعية كيف انهم يهتمون ليس فقط بالمحافظة على هدوئهم وانما يبادرون الى لعب دور انقاذي او مساعد ويسألون عما يمكن فعله. انه الدور الاستثنائي الذي يتولاه العمال المناوبون والدائمون (في فندق/ مركز تجاري/ شركة / مصنع...) بعيدا عن واجباتهم الأساسية فيما لو حدث شيئا طارئا يتعلق بمكان عملهم.

ولكن كيف يمكن ان ندرك بأن ما يقوم به هؤلاء العمال من دور استثنائي هو سلوك متعلم يتحضرون له عند حدوث امر طارئ وليس سلوكا عفويا يفترضه الموقف المتأزم كما في مثال الحريق؟ الجواب قدمته التجربة ذاتها عندما وجد الباحثون بأن هناك عمالا كانوا بعيدين عن المكان وفي نوبات عمل بأقسام اخرى بعيدة عن مكان الحريق فتركوا عملهم وتوجهوا حيث الحدث لمساعدة زملائهم في عمليات الانقاذ وتأمين السلامة والحماية والامأن للآخرين. (4) وهذا ما يفسر لنا كيف ان بعض السلوك الجماعي يمكن ان يكون متعلما ومدروسا وليس بالضرورة عفويا او تلقائيا.. ولكن ماذا عن الحالات التي يتحرك فيها الناس بشكل لآواع في حالة هيجان وهرج ومرج..

كما في الحوادث التالية على سبيل المثال:

- ✓ خلال العام 1997 اثنان وثلاثون فتاة اماراتية هرعت الى قسم الطوارئ في مستشفى العين اثر فرارهن من مهاجهن في سكن خاص بالطلبة الجامعيين (dormitory) بعدما سمع دوي انذار الحريق في ذلك المبنى بشكل مفاجئ في احدى الليالي، وكما هو متوقع في مثل هذه الحالات بدأ هؤلاء الفتيات بالصراخ وبدا عليهن الوهن والتعب والفزع والتوتر والهلع، علما انه لم هناك نارٌ اصلا قد اندلعت، كل ما في الامر ان هناك طالبة ارادت ان تحرق البخور في غرفتها وعندما تصاعد الدخان المتكاثف الى سقف الغرفة انطلق جرس الانذار مما احدث بلبلة وحالة من الهستيرية الجماعية في قسم الاناث. دون ان يتحققن من حقيقة الامر

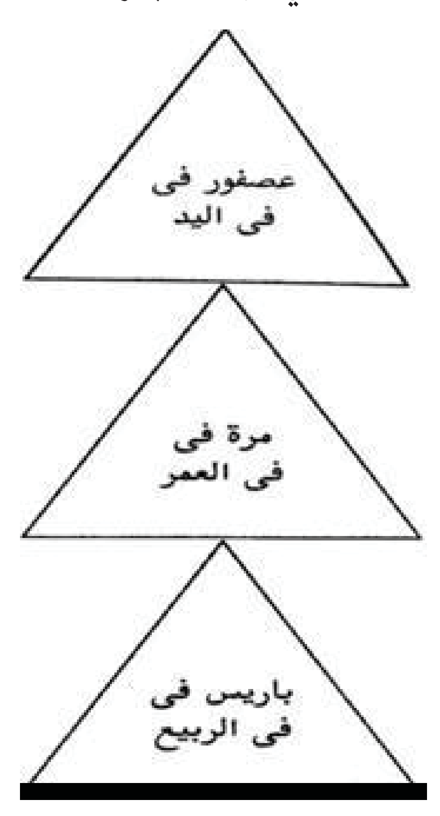
- ✓ خلال العام 1998 اخذت تظهر على كثير من الفرنسيين والبلجيكيين عوارض مرضية غريبة بعدما تناولهم مشروب الكوكا كولا، تحقيقات مخبرية سريعة اجريت على الفور لمعرفة السبب الذي يؤدي لمثل هذ العوارض فتبين ان المشكلة تكمن في مادة bad carbon dioxide ومادة fungicide المحتمل وجودها في هذا المشروب، مما اصاب الناس حالة هلع ودخول حوالي 15 مليون شخص في حالة هستيريا جماعية بالامتناع عن شرب الكوكا كولا خلال تلك الفترة رغم أن التحقيقات المتابعة لم تجد شيئا في ذلك المشروب .

ما الذي يجعل الناس تتصرف بهستيريا جماعة رغم عدم وجود المصدر الفعلي للقلق؟ لعله مجرد افكار او اوهام تدور في رأس أي واحد منا بأن الأسوأ قد يحدث دائما وفي وقت ما علينا ان نكون حذرين، قد يكون هذا الافتراض

صحيحا ولكن ما تبين لآحقا ان الظروف الموضوعية (وليس الذاتية) والعوامل الخارجية (وليست المتعلقة بالشخص ذاته) لها علاقة بما يحدث احيانا كما هو الحال في مثال مشروب الكوكولا، وكذلك لا يمكن بالمقابل ان نقول بأن ما في رؤوسنا هي مجرد خيالات «مضخمة عن المخاطر» تهول علينا تبعات النتائج رغم ضآلة الموقف الحادث اوالقول بأنه امر واه ولا يستدعي القلق وبأن المرء هو من يضع نفسه به فيعيش حالات هلعية (كالقول بأن هناك اشباح تمشي في الليل او صحون طائرة تغزو الارض وتخطف البشر) محللون نفسانيون حاولوا تقديم تفسيرات عن ظاهرة الهستيريا التي تعتري الناس فربطوا امكانية حدوثها بما يمكن ان يحدث لهم واذا ما حدث فأنه يساهم في اثارتها بشكل مخيف، انه نوع من توقع السئ يتحسبه اي منا وربما لذلك علاقة بغريزة حفظ البقاء حيث يتصرف احدنا دونما وعي بالابتعاد تلقائيا عن اماكن الخطر، ولكن مثل هذا التبرير يبقى مجرد افتراض مع تساؤلنا: لماذا ينفعل احدنا ويتصرف بشكل هستيري بينما آخر بجانبه لا تظهر عليه رد فعل؟ تبقى المسألة المطروحة والتبريرات المقدمة عنها محض افتراضات قابلة للتحقق.

تبين من الابحاث التالية سر حدوث الهستيريا الجماعية ولكن لغاية الآن ليس هنالك شيئا ثابتا سيما وان حالات الهستيريا تحدث في كل الثقافات بشكل مختلف عن الاخر، فما يقلق جماعة هنا ويجعلها تنطلق هستيرياً قد لا يفعل فعله عند جماعة اخرى وهذا ما يجعل القول بأن الهستيريا هي اكثر ارتباطا ببعض عوامل ومبادئ السلوك الجماعي الخاص بجماعات دون اخرى، اما وما هي تلك المبادئ «المحددة للظاهرة» فالبحث جار. ومنها ما ارجعته بعض النظريات الى ما يعرف بالبرمجة المسبقة، ووفق هذه البرمجة تبدأ عقولنا في تخزين جميع خبراتنا و تجاربنا السابقة ونبدأ في التصرف والحكم على الأشياء من خلال هذه التجارب و الخبرات دون تفكير. وبعد

ذلـك نقـوم بالتصرفـات التلقائيـة التـي تـم برمجتنـا عليهـا دون ان ندقـق مـا إذا كانـت صحيحـة أم لا ..كـما في قراءتنـا بسرعـة الجمـل المكتوبـة في المثلثـات



بالتأكيد لم تلاحظ أن كلمة (في) مكتوبة مرتين أليس كذلك ما الذي حدث؟ طبقا لخبراتك السابقة تمت برمجة عقلك أن كلمة (في) لا تكتب سوى مرة واحدة في الجملة.. لذلك لم يرها عقلك وجعلك ترى الجملة (في ضوء تجاربك السابقة) لا كما يجب أن تراها، القصد من هذه المثال هو التوضيح بأننا نرى العالم طبقا لبرمجتنا السابقة فقط. لا كما يجب أن نراه..نحن لا نرى الحقيقة الا من خلال تجاربنا نحن

6. الصرعـات، (fads) وهـي عبـارة عـن أمتثـال مجموعـة مـن النـاس لمنتـج أسـتهلاكي ظهـر فجـأة ليلاقـى بـدوره هـوى في نفـوس بعضهـم حيـث يظهـر

مـن خـلال طريقـة ثيـاب، موسـيقى رائجـة، قصـة شـعر...الخ، في الغالـب عندمـا تُذكـر كلمـة صرعـة يربطهـا النـاس بالثيـاب وطريقـة أرتدائهـا والـدارج مـن الالـوان أو التصاميـم، لكـن واقـع الموضـة (الصرعـات) قـد يكـون أكـثر تقبّـلا مـن الصرعـة لانهـا تظهـر كأسـلوب حيـاة جديـد أو متجـدد مـع معطيـات العـصر وتدخـل في سـمات ثقافيـة وأجتماعيـة أخـرى: السـيارات، الرياضـة، الدرامـا، الفنـون، الصحـة، الاثـاث المنـزلي، وحتـى بأختيـار الحيوانـات الاليفـة حيـث مجملـه اصبـح يحـدده "الـذوق الـدارج"، كل ناحيـة مـن نواحـي حياتنـا اليوميـة نجدهـا مفتوحـة عـلى خيـارات صرعـة او مـوض (حتـى أعـادة تشـكيل الجسـد/عمليات التجميـل والترشـيق باتـت خاضعـة لمسـائل الموضـة)

وقد أهتم باحثو علم الاجتماع بهذه الظاهرة ومآلها فوجدوا أن الصرعة غالباً ما تكون نمط حياة مغاير لثقافة معاشة وسائدة، سريعة الزوال، تسعى الى البحث عن جديد بهدف الجديد، كما أنها تصبح المقياس الذي يفرّق به الناس بين ما هو رمز ثقافي أصيل وما هو طارئ ومؤّقت لزمن محدد، لهذا يقال بأن هناك عادات وتقاليد (أصول) وهناك موضة دارجة اليوم (صرعة) واحدة ثابتة على الدوام كمحور ثقافي وأخرى متغيرة كسمات مستحدثة، تظهر اليوم وتستمر لحين ظهور سمات جديدة تحل محلها، الاولى (التقاليد) مرتبطة بالارث الثقافي- الديني المتوارث، الثانية (الموضة والصرعات) مرتبطة بالذوق الشخصي.

تظهر الصرعة كشئ ترفيهي يستهوي جيل الشباب فيأخذ به ويمارسه كحالة مزاج، بينما الموضة غالبا ما تعطي الانطباع بأنها تلازم أصحاب الثروة وذوي المكانة الاجتماعية (الفنانين/ المشاهير/ رجال الاعمال) كما يمكن أعتبارها تعبير عن الأراء والاتجاهات والفنون والتكنولوجيا وغيرها من

المعنويات الثقافية التي تتبناها جماعة أو طبقة في المجتمع لفترة من الزمن ثم تنخفض بعد ذلك ليحل محلها موضة أخرى جديدة. وفي مقاربة أولية لموضوع الموضة وجماعتها، تبين أنها أنماط سلوكية أنتقالية تعكس نظام طبقي مرن يمكن تناقلها من طبقة لاخرى، وأن الذي يتنبى الموضات بدايةً هم الاغنياء ثم تنتقل بعد ذلك الى أفراد الطبقة الوسطى فأفراد الطبقة الفقيرة، بأعتبار أن النخبة هي التي تهتم بالمظهر وبمسائل التأنق في وقت يكون أبناء الطبقات الفقيرة مهتمين بأمور أكثر حاجة، وفي الوقت التي يعتبرها باحثون انها من وحي التماثل مع الاخر وتدفع الناس الى نوع من الامتثالية بحيث يصبح التقليد المبدأ الاساس في الموضة، يذهب البعض الى الاعتقاد بأن دافع التفرّد يُعتبر من الدوافع الاساسية في نظام الموضة [*] لان الامتثالية عكس ما يبغيه جماعة الموضة، حيث ان احدهم يميل الى الاعتقاد بأنه في عصر التبدلات الذي نعيش فيه وحيث تسيطر ثقافة النظر الى استعمال الثياب كطريقة للتعبير عن الذات والفردانية والتميز «يمكننا من خلال ثيابنا تمرير رسالة عن شخصيتنا بعيداً عن التماثل مع الاخرين وأننا أيضا نستعمل الثياب لنعطي صورة مميزة عن ذاتنا ولكن ما نجهله هو أن صورة الذات التي كوناها عن أنفسنا ليست سوى أنعكاسا لتفكير الاخر بمعنى أننا ننظر الى انفسنا من خلال أعين الاخرين، وبما ان الثياب هي جزء من صورة الذات ومن مظهرها الخارجي فأننا نعمل لكي تلقى قبولا عند الآخرين»[5] كأن هناك نوع من الامتثالية والفرادنية لهذا نعتبرالموضة سلوك جماعي يتاثر به الفرد كي يصبح مماثل لآخرين ، فالفعل الفردي والجماعي في عملية ارتداء الثياب هو تحضير الجسد للدخول الى المجتمع ولجعله مقبولا ومحترما وحتى مرغوبا (لهذا نجد في مقولاتنا الشعبية : «كُل على ذوقك ..وألبس على ذوق الناس») ...

اذن يمكن فهم الصرعة على انها مبتكر يجد قبولا عند فئة معينة من الناس، يظهر فجأة ويتنشر سريعا بالمحاكاة والتقليد خاصة بين اؤلئك الذين يبحثون دائما عن جديد. وتلعب وسائل الاعلام دورا ناشطا في في نشر الصرعة وتعريفها، الا ان ما يميز هذه الظاهرة رواجها المؤقت فهي تبقى الى ان تظهر صرعة جديدة اخرى فتضمر الاولى ويؤخذ بالثانية واذا ما ظهرت احداها بشكل صارخ مختلف عن مسار وحياة جماعة عندها تصبح بمثابة هوس اما اذا استمرت الصرعة اكثر من المعتاد فأنها تصبح كموضة (fashion) التي تأخذ بالظهور في اشكال الثياب والوانها والاثاث المنزلي ولون بناء العمارات وإلى كل ما يمكن ان يطال الذوق العام، حتى اسماء الابناء تندرج في كل عصر وفق ما هو شائع حينه على انه "موضة اليوم"، وفي هذا السياق لاحظ السوسيولوجي **john lofland** (1985) كيف ان التعابير المتداولة بين الناس تتغير هي الاخرى وفق السائد كأنها دخلت عالم الموضة تتبدل بين زمن وآخر. ففي خمسينات القرن الماضي كان الناس يقولون "Neat" وفي الستينات ساد تعبير "Right on" وفي السبعينات كانوا يقولون "Really" وفي الثمانينات انتشر تعبير "Awesome" وفي التسعينات بات الكثير يردد "Bad" وفي بداية الالفية ظهر تعبير "Sweet" بشكل منقطع النظير، اما اليوم فأن اغلب الناس تستخدم تعبير "Cool" [6] أو "Like"

7. الازياء : في دراسة حول الدوافع والدلالات المتعلقة بموضوع الثياب في الحياة اليومية عند اللبنانيين تبين ان الموضة تخضع بشكل اساسي لثقافة المجتمع ونظرته الى الجسد، يمكن مقاربتها كحقل رمزي وكمجموعة من

الـدلالات بحيـث يمكـن قـراءة دوافـع المجتمـع وحاجاتـه الكامنـة مـن خـلال الشـكل المعتمـد للثيـاب. وعليـه يمكـن تصنيـف النـاس بنـاء عـلى اشـكالية الثيـاب والازيـاء الدارجـة بـأن هنـاك «جماعـة ال IN“ (أي التـي عـلى الموضـة) و”جماعـة ال OUT“ (أي مـن هـي خارجهـا). ووفـق هـذه الفرضيـة في مقابـل المـرأة (in) تظهـر صـورة المـرأة الملتزمـة لبـاس شرع دينهـا، وفي المقارنـة بـين المرأتـين يظهـر الترابـط بـين الـزي والجسـد، بحيـث تصبـح دراسـة نظـرة المجتمـع الى الجسـد ضروريـة لفهـم نظـام الازيـاء .

وفي سياق متصل عندما نقول «ازياء» فأن اول ما يخطر ببالنا هو صورة الازياء النسائية، وكأن موضة الثياب وجدت خصيصا للمرأة ومما يعزز هذه الفكرة هو تعلق المرأة بالموضة وفق ما أظهره استطلاع للرأي أجرته «كشافة فتيات الولايات المتحدة» شمل أكثر من ألف فتاة أميركية تتراوح أعمارهن بين 13 و17 سنة، ان 89 % من المستطلعات يعتبرن ان الأزياء تتسبب بضغوط كبيرة عليهن، و88 % يرين ان وسائل الإعلامهي السبب في ذلك. واعترفت 9 مراهقات أميركيات من أصل 10 بأن قطاع الأزياء مسؤول ولو جزئياً عن هوس الفتيات بالنحافة المفرطة. لكن بالرغم من انتقاد قطاع الأزياء إلا ان 3 من أصل 4 مراهقات يؤكدن ان الأزياء ”مهمة جداً“ لهن. وأعربت 75 % من المراهقات عن ميلهن أكثر لشراء ملابس يرونها على عارضات بحجمهن الحقيقي وليس على نساء مفرطات في النحافة. وقال 82 % من الفتيات ان زملاءهم و81 % ان أصدقاءهم و65 % ان أهلهم يتركون التاثير الأكبر على كيفية نظرة المراهقات إلى أجسامهن. ومما لا شك فيه ان الموضة المتعلقة بشكل وجمالية الجسم واجزائه وفي الثياب وما يلحق بها من ملحقات زينة لها جاذبيتها بالنسبة للشباب والفتيات

تصل الى درجة التطرف والغلو في التشكل وابتكار اشياء غريبة توضع على الجسم او على الثياب.

انسجاما مع الابعاد النفسية الخاصة بهذه المرحلة العمرية لجهة حالة التمرد عند الشباب والرغبة في شد الاهتمام ولفت الانتباه وفي ان يكون احدهم متميزا قد يجد بعضهم ان قليلا من العبثية في الشكل لا بأس به اذا ما كان مقصود بها تحقيق نزوة مع مجموعة من اصحابه خاصة تلك المتعلقة بالزّي المتطرف أو وشم الجسم بألوان ورسوم مثلا. الا ذلك لا يثنينا عن البحث في الاسباب التي تدفع بعضهم الى ذلك التعلق: فبعض السلوكات قد تكون عابرة نتيجة ظرف ما، واخرى قد تكون مؤقتة لحين من الزمن حتى تظهر اخرى جديدة، وبعضها قد يكون لسبب تقليد صديق أو تحدّ لجماعة اخرى، وبعضها الاخر قد يكون لاثارة اهتمام الجنس الاخر، وقد يطول امر ظاهرة الاخذ بالاشياء الغريبة او الدارجة حتى تصبح صفة متكررة وسمة غالبة وملازمة لنمط معين من الجماعات، لتستهلك وقتها وتفكيرها وطاقاتها وحتى مصاريفها المادية لنجد انفسنا امام شيء من الاضطرابات النفسية التي تتسم في الغرابة بالمظهر والثياب(**)، بل «بعضهم يعاني من صراعات شديدة داخلية مرتبطة بسلطة الوالدين او احدهما او بالتنافس مع الاخ والاخت او صراعات حول هويته الجنسية او حول الثقة بالنفس والجسد وهنا بدلا من الاهتمام بالمكون الداخلي من فكر وعقل وثقافة وفن وعواطف، يأتي الاستغراق بالشكل الخارجي وبذل الوقت والجهد والمال فيه كنوع من التعويض عن الفراغ الداخلي بشكل مبالغا فيه على المظهر وما يستبعه»[7] .

يبدو ان كل امرئ- وكما يقول فرويد – « ينتمي الى عدة ارواح جماعية : روح عرقه، روح طبقته وروح طائفته» ولعل سلوك القطيع هو ترجمة للسلوك الجماعي. ولكن هل يمكن بأن القول بأن سلوك الكتل المنظمة هو فعليا سلوك قطيع؟

1) سلوك القطيع

يعتبر فرار الحيوانات الضعيفة من الحيوانات المفترسة تمثيلا جيدا لسلوك القطيع عند المخلوقات الدنيا، اما عن دلالته لدى المخلوقات العليا من بنى البشر فقد اجريت عدة دراسات في قبل العديد من الباحثين لفهم تحرك البشر في الجماعة الواحدة عندما يقومون بتصرف او سلوك متشابه في نفس الوقت، فوجد بعضهم- ومنهم عالم الاحياء هاملتون في مقالته هندسة القطيع الانساني- انه غالبا ما يكون من اجل الامان والحماية لقوله: كل عضو بشري في مجموعة ما– كما في قطيع الحيوان- يخدم بالدرجة الاولى نفسه حيث يقلل من الخطر عن ذاته منفرداً، بالدخول في الجماعة والتماثل بسلوكها. وهكذا يظهر القطيع بمظهر «الوحدة» الواحدة وهو في حقيقة امره لخدمة من ينضوي في تلك الوحدة، اما البعض الاخر من الباحثين فوجد ان الغاية من اخلاق القطيع او سلوكه هو الرغبة في التماهي بالافضل اذ يميل الاشخاص الاقل مركزا والاقل تأثيرا في الجماعة الى التصرف بسلوك من هم اعلى مركزا واحسن حالة وظيفية واجتماعية. وفي مجمل التصرف التلقائي كما الاخرين او معهم فأن ذلك يقدم فائدة حصوله على تأييد لقراره، وتحقيقه لمصالح شخصية واراحة لعبء نفسي يمكن ان يرزحه تحته فيما لو كان بعيدا..عملا بالقول الشهير: النعجة التي تبتعد عن القطيع تشبع ضربا. اذن يمكن النظر الى كلمة قطيع على انها مجازاً: مجموعة من الاشخاص يتبعون فرداً او جهة معينة في رأيه وفكره وقناعاته ووجهات نظره وتفسيره

للامور وكل ذلك دونما نقد فيما كان ما به تلك الجهة صحيحا او لا. ويمكن ان يلاحظ سلوك الناس مثالاً عليه بالانواع التالية:

1) سلوك الايحاء: ويظهر عند الاشخاص خلال حياتهم اليومية لدى اتخاذ قرارا ما حيث على المرء ان يتخذ قراره بناء على خبراته وتجاربه ومعارفه، واذ به يقرر احيانا ليس على قناعة منه بالموقف وانما لما يتصرف به الاخرين.. أو يراه منهم، على سبيل المثال لنفرض ان شخصا خرج في احدى الليالي يبحث عن مطعم يتناول فيه عشاؤه، فمرّ على مطعمين (أ) و(ب) وكانا في نفس المستوى من ناحية المظهر الخارجي الخدمة المقدمة وانواع الاصناف الموجودة، لكن المطعم (أ) يوجد فيه زبائن بينما الاخر كان فارغا، سنجد ان الرجل يتوجه تلقائيا الى المطعم (أ) لاعتقاده ان وجود الناس فيه لا بد وان يعني بأنه الافضل

2) سلوك التنافس: وهو سلوك المضاربين في البورصة وسوق الاسهم، حيث تتم صفقات بيع وشراء محمومة ثم تتوقف لفترة لتبدأ بعد حين من البيع والشراء المحموم، في هذا النوع من السلوك يلجأ الاشخاص الى اجراء صفقات بشكل لآعقلاني حيث يحركهم انفعال الرغبة في المشاركة والتنافس ونزوع نحو التملك، ذلك ان دخولهم للسوق ورؤيتهم اقبال الناس على الشراء والبيع « بشراهة» سيجعلوهم يقعون في فخ المضاربة.

3) سلوك الاحتشاد، يحدث دون تحضير مسبق او ربما بشكل عفوي لمشاهدة حادث طارئ او مع وقوع مأساة تهز مشاعر المعنيين، في هذه الحالة هناك تصرف انفعالي شديد يشوبه الغوغائية والفوضى والاضطراب كرد فعل استنكاري، قد ينتج عنه في بعض الاحيان اصابات في الارواح ومن الامثلة على ذلك اغتيال زعيم محبوب لدى طائفة معينة من الناس او خسارة فريق

رياضي حيث يندفع عنده جماهيره الغاضبة بجماعات موتورة تخرج الى الطرقات لتحطم وتكسر وتعيث فسادا.. تعبيراً عن استيائها وغضبها.

يمكن ان نتعرف على جماعة القطعان البشرية في حالات :

- ✓ وجود قائد لا يستطيع احد مناقشته في قناعة من قناعته انما هناك خضوع تام
- ✓ الولاء الاعمى لدى جماعة تجاه زعيم يتولاها .
- ✓ نظرات الاستغراب والاستهجان والاستنكار تجاه من يخالف " الزعيم"
- ✓ التسليم بصحة ما يراه ويقوله الزعيم سواء كان مصيبا او مخطئا.

هذا يعني ان من ابرز سلوكيات جماعة القطيع انعدام التفكير النقدي، العدائية تجاه الاخر، الخنوع والدونية، عدم المحاججة وغالبا ما يكون أفرادها صورة طبق الاصل عن بعضهم في احاديثهم وافكارهم وتوجهاتهم . وإذا حاولنا البحث في أساسيات ثقافة الحشد لتقريبها من الأذهان لوجدنا أنها اقرب إلى سلوك القطيع، فالقطيع يقضي كل احتياجاته البيولوجية جماعيا ولا يشعر بالاطمئنان إلا ضمن جماعته اذ لا يمكن لأي كائن حي في القطيع أن يتخيل نفسه خارج القطيع لان لا قيمة له إلا ضمنه فهو يشعر غريزياً بأنه الأضعف والأقل حظاً وقد يَمضي إلى قَدر سئ ان لم يحميه القطيع حيث هو خارج قطيعه/ ملته/ جماعته/ حشد انتمائه... عديم الإرادة سهل الافتراس وسريع الاستسلام

وسلوك القطيع هي غريزة حيوانية لها مكانها بين غرائز الإنسان أذ هي ليست

في إطار النظام المدرك لدي وإنما تتسرب من الجزء اللاواعي من البشر حيث أطلق عليها -احتراما للإنسان- ثقافة الحشد أو سيكولوجيا الحشد وهي أقرب في مفهومنا إلى التعصب الذي يُفهم بدوره على انه نوع من ثقافة الحشد والتصرف بلا أي عقلانية أو على أي أساس منطقي بل هو ارضاء لجموح الاتباع والكثرة التي تجعلك بلا وعي تهتف مع الحشد وتهلل له وتدافع عنه. وربما هذا هو الشعور الذي يخالجنا عند المشاركة بأية تظاهرة احتجاج عبر الرغبة في الدخول والهتاف والصراخ وأيضا بالعراك في حين إننا لا نعرف أحدا من المتظاهرين بل وربما في أحيان كثيرة لا نعلم بهدف المظاهرة.

إن الجماهير قوة هائلة دفعت قاطرة التاريخ وسرّعت من حركته في كثير من المنعطفات وهي تتحرك بأنفعالاتها حيث لا مكان فيها للهدوء والتروي، تريد كل شيء في نفس اللحظة وهي سهلة الانقياد إذا وجدت من يحسن العزف على أوتار تطلعاتها أو نزقها، يرى المفكر الفرنسي ومؤسس «علم فلسفة الجماهير» غوستاف لوبون أن الجماهير لا تعقل، فهي ترفض الأفكار أو تقبلها كُلاّ واحداً. من دون أن تتحمل نقاشها، فما يقوله لها الزعماء يغزو عقلها سريعا فتتجه إلى أن تحوله حركة وعملا. لا يهم أن تكذب على الجمهور لانه لا يطلب الحقيقة أصلا بل إن المهم أن تعرف كيف تحرك هذا الوحش الرهيب لتحقيق أهدافك السياسية. ما ومن تؤمن به الجماهير ترفعه إلى مصاف المثال ثم تندفع به ـ في صورة إرادية ـ إلى التضحية بالنفس، فهي ـ أي الجماهيرـ وبرأي لوبون لا تعرف غير العنف الحاد شعورا، وتعاطفها لا يلبث أن يصير عبادة، ولا تكاد تنفر من أمر ما حتى تسارع إلى كرهه، بل حتى لو كانت تلك الجماهير علمانية الفكر والهوية، فإنه تبقى لديها ردود فعل دينية، تفضي بها إلى عبادة الزعيم والى الخوف من

بأسه وإلى الإذعان الأعمى لمشيئته، فيصبح كلامه جدليّة لا تناقش، أما الذين لا يشاطرون الجماهير إعجابها بكلام الزعيم فيصبحون هم الأعداء. لهذا- وكما قال لوبون قبل قرن من الزمان مقولته الشهيرة بأنه-: لا توجد الجماهير من دون القائد والعكس صحيح. إذ لا يوجد قائد من دون جماهير[8]..

ولعل السؤال الابرز الذي يطرح عند الحديث عن "القطعانية" كيف يصبح الرأي الشعبي رأيا عاما؟ عندما نريد ان نُدخل الافكار والعقائد ببطء الى روح الجماهير فأن ثمة اساليب ووسائل عمل يستخدمها المحركون او القادة: وهي

- ✓ اسلوب التأكيد، ان التأكيد المجرد من كل محاجة عقلانية او برهان يشكل الوسيلة الموثوقة لإدخال فكرة ما في روح الجماهير <u>وكلما كان التأكيد قاطعا وخاليا من كل برهان كلما فرض نفسه بهيبة اكبر</u>، فالكتب الدينية وقوانين كل العصور قد استخدمت دائما التوكيد المجرد.

- ✓ اسلوب التكرار: يمكن ان نفهم جيدا تأثير التكرار على الجماهير عندما ننظر الى الهيبة التي يمارسها الشخص المستنير، فنحن عندما نكرر الشئ مرارا وتكرارا ينتهي بنا الامر الى الانغراس في تلك الزاويا العميقة للاوعي حيث تصنع دوافع كل اعمالنا. فبعد ان تمر فترة من الزمن ننسى من هو مؤلف القول المكرر وينتهي بنا الامر الى حد الايمان به. مثال على ذلك: عندما نقرأ مأئة مرة ان افضل انواع الشوكولا هو نوع (ت) نتخيل بأننا سمعنا بذلك وينتهي بنا الامر الى الاقتناع به كحقيقة يقنية. ومن كثرة ما يكررون في صحيفة معينة ان (أ) هو وغد وحقير وان (ب) هو رجل نبيل وشريف فأن الامر ينتهي بنا الى تصديق ذلك ما دمنا لم نقرأ صحيفة اخرى ذات رأي مضاد. وهذا سر اللعبة في الاعلان / اعتماد التكرارية.

✓ اسلوب العدوى: تبين ان الافكار والانفعالات والعواطف والعقائد الايمانية تمتلك سلطة عدوى بنفس كثافة الجراثيم، ويمكن ان نلاحظ هذه الظاهرة ببساطة لدى الحيوانات: فصهال حصان في اسطبل سرعان ما يعقبه صهال الاحصنة كلها، وبالمثل أي خوف او حركة مضطربة امام خروف قد يؤدي الى ذعر وهلع بقية الخراف. وبالمثل يحدث في العالم الانساني حيث عدوى الانفعالات والاضطرابات العصبية وظاهرات الهلع والخوف (ولو على سبيل المزاح) تنتشر بين الناس بشكل تلقائي. (راقب مقالب الكاميرا الخفية عندما يوهم صاحب المقلب الاخرين بأن ما لديه مخيف كأن يرمي شنطة في مكان ويهرب، لنلاحظ هلع الموجودين بشكل عفوي وفرارهم سريعا من المكان) ان للعدوى من القوة – غير المبررة- من ان تفرض على البشر ليس فقط بعض الاراء وانما ايضا بعض الطرق في الاحساس والشعور، فهي التي تجعل الناس يحتقرون في فترة ما عملا ادبيا او انسانا مشهورا، وهي التي تجعلهم بعد فترة ما يعجبون بنفس العمل او الشخص.

خلاصة فصلية:

بعد استعراض عدد من الظاهرات الجماعية اصبح من الممكن ادراك آالية تجمعها، تحركها، توزعها على مسميات شتى بحسب العوامل المكونة لها، الا ان دراسة تكوينها الذهني ايضا له من الاهمية بمكان لجهة اساليبها في الاحساس والتفكير وكيف تولّد آراؤها وعقائدها. ذلك ان العوامل التي تحدد ارآء الجماهير وعقائدها اما منها ما هو متراكم عبر الزمن حيث تتمأسس البنية الاولية لنمو افكار جديدة وفي لحظة نضوجها تخرج الى العلن بشكل صاعق. الا ان الانفجار العفوي – المباغت لا يمكن ان يفعل فعله دونما الاقتناع الكلي لدى الجميع. ونعني

بالاقتناع تبلورالفكرة وتجييشها وتهيجها بكل نتائجها وانعكاساتها لان تحت ضغط العوامل المباشرة تنبثق القرارات التي تحرك الجماعات البشرية فجأة، وهي التي تظهر في انفجار تمرد شعبي او شن اضراب ما، وهي التي تدفع اغلبية كبيرة من الشعب بأيصال شخص معين الى سدة السلطة او اسقاط حكومة معينة. وبقي علينا في هذا السياق ان نبين المسببات الكامنة خلف العمل الفوري الذي يساهم في تشكيل آراء الجماهير الثائرة بالتساؤل عن: ما الذي يدهش مخيلة الجماهير ويصدمها؟ ما الوسائل الكفيلة بالتأثير على روح الجماعات المحتشدة وجذبها؟ بما ان التحريضات الممكنة لتحريك الجماهير شديدة التنوع فأن الاسباب القادرة على التأثير يمكن ان تكون بدورها مختلفة بما فيها الكفاية... الا ان بعض الباحثين في سيكولوجيا الجماعات حددوا بعضا منها :

1. الصور/الكلمات والشعارات: غالبا ما تتأثر الجماهير بالصور التي تبهرها فعلا، فهي تثير في مخيلتها قوة تحرك صاعقة، سيما اذا استخدمت بشكل ذكي وصائب وترافقت بعبارات مناسبة تصبح عندها كألاعصار. لان العقل لا يمكن ان يقاوم عندها الصياغات التعبيرية المنفعلة فكيف اذن بالصورة المؤثرة. ومثلما تفعل الصورة كذلك تفعل الكلمات والشعارات المدوية في القدرة على التأثير والفعل، فلو عدنا بالذاكرة الى الثورات العربية التي اندلعت مؤخرا في بعض الدول العربية (بدايات عام 2011) لوجدنا كيف ان صرخات المحتجين تصدح دوما بعبارات مثل: حرية/ مساواة/ ديموقراطية... فأن حروف تلك الكلمات لها من القوة السحرية كما لو انها حلٌّ لكثير من المشكلات التي يعانونها منذ زمن. وهكذا ندرك ان الكلمات ليست الا معان متحركة ومؤقتة ومتغيرة من عصر الى عصر، ومن شعب

الى شعب، وعندما نريد ان نؤثر على الجمهور بوسطتها، فأنه ينبغي علينا اولا ان نعرف ما هو معناها بالنسبة له في لحظة معينة وليس معناها في الماضي او معناها بالنسبة لافراد ذوي تكوين عقلي مختلف ..

2. المحركون: ما ان يتجمع جمهور من البشر حتى يضعوا انفسهم بشكل «غريزي» تحت سلطة قائد او محرك لهم، فمثل هذه المحرك يلعب دورا ضخما كونه يمثل النواة التي تتحلق حوله الاراء والاشخاص وبأعتباره – وربما يصبح لاحقا- الناطق الرسمي. وغالباً ما يكون المحرك شخصا يتسم بسمات القيادة ومنبهرا بالفكرة، ملهما للآخرين وليس بالضرورة ان يكون المحركون دوما اصحاب فكر وانما رجال ممارسة واهتمام واصحاب قضية لدرجة قد يضحون بمصالحهم الشخصية وبعائلاتهم وبكل شئ اذا لزم الامر في سبيل توقهم، حتى غريزة حب البقاء تمحى لديهم الى حد ان المكافأة الوحيدة التي يرجونها هي الاستشهاد. لان كثافة الايمان تخلع على مثل هؤلاء قوة تحريضية كبيرة وهكذا تصغي الكثرة دائما للانسان المزود بأرادة قوية. وبما ان الافراد المجتمعين يفقدون كل ارادة وبما ان الجمهاهير عبارة عن قطيع تبحث عن سيد، فأنهم يتجهون غريزيا نحو ذالك الشخص – المفعم بالايمان والمحرك في آن.

على الرغم من أن الجماهير والشعوب تتأثر بعوامل عديدة مثل العرق والمناخ والتقاليد الثقافية والمخيال السياسي والبعد الديني والتي تجعلها تختار مواقف معينة في لحظات تاريخية حاسمة وترفض مواقف أخرى تأثراً بعوامل تتعلق بأختيارات حددتها الظروف المستجدة والتحديات الخارجية. فأنها تشكل – الى

جانب بعض عوامل اخرى بالطبع مثل الزمن، المؤسسات الاجتماعية، التعليم- المبعث الفاعل على تهيئة روح الجماهير للثورة او التحرك. ولكن كيف نفهم سلوك الجماهير التي انتقلت فجأة من حالة المسايرة والتأييد الى وضع النهوض والثورة على كل دوائر السلطة والرموز التي تمثل الأنظمة الفاسدة وشرعت في تحطيم الأصنام وكنس الأوثان؟ وما الذي يحصل للناس حتى يتحولوا من السلبية والوعي الزائف والسكون الى الايجابية والوعي الثاقب والحركية والاجتماع في شكل كتلة تاريخية من أجل الضغط على الحكام ومطالبتهم بالرحيل؟ وكيف تحول العقل الجماعي الى طاقة فاقت قدرة العقول الفردية وغيّر سيكولوجيا الشعوب من الاستسلام الى الخروج والتمرد؟

ينعت بعض الكتبة من الأرستقراطيين الجماهير بأنها حشود جاهلة من الرعاع والدهماء القاصرة ومجموعة من الأرهاط العاجزة عن الحركة في الواقع والفعل ويطلقون عليها عبارات مثل الأغلبية الصامتة والسوقة والغوغاء ويتهمونهم بالانفعالية وسبب الفوضى والهرج وترويج الاشاعات ومصدر القلاقل وبث البلبلة والتخريب والنهب. كما تُعتبر الثورة في عرف هؤلاء مجرد فعل هستيري وسلوك عدواني تنخرط فيه جماعة من البشر تفجر مكبوتاتها الدفينة وعقدها المرضية التي سببها القمع السلطوي وتتميز بالعنف الشديد وممارسة الانقلاب وبث الفوضى التي تسري في النظام مثل النار في الهشيم والتي لا تنتهي الا ببروز القائد الثوري وخضوع الناس لأوامره والشروع في الاقصاء والتمييز ومحاسبة الموالين للعهد السابق، غير أن مثل هذه الأقوال هي مجرد آراء فقد أثبت الثورات المندلعة عبر التاريخ بطلان مثل هذه الأحكام التي تبررها ايديولوجيا مغلقة تتبني نظرة هرمية للمجتمع ومعيار تراتبي للقيم. ان أهم قوة شعبية تدفع الجماهير الى الثورة هم الشباب والطلاب والعاطلين عن العمل وكل القوى المهمشة وغير

المنخرطة في علاقات الانتاج والمنتفضة على الفكر المنمط والعالم السياسي الفاسد والرقابة الصارمة، والطامحة الى القيام بتغيير تاريخي بأستشراف آفاق المستقبل والالتزام بالفكر الايجابي وبناء مجتمع تعددي وانسان منتج مؤمن حقا بمواطنيته .

*هوامش الفصل الثاني:

1. د.باسمة سكرية عيد، محاضرات في المدخل الى علم الاجتماع، الجامعة اللبنانية، كلية الاعلام والتوثيق، الفرع الاول ، 1983، (غير منشور)
2. JAMES M.HENSLIN, SOCIOLOGY a down to earth approach 7th, U.S.A..2005
3. د.مامون طربيه، وصفة معنويات، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 2006
4. JAMES M.HENSLIN, SOCIOLOGY a down to earth approach 7th, U.S.A..2005
5. رانية سعد، الدوافع والدلالات المتعلقة بموضة الثياب، مجلة اضافات، مركز دراسات اوحدة العربية، بيروت ، صيف وخريف 2008

*) ومن عالم الصرعات المنتشرة بين الشباب اللبناني ما يعرف ب: صرعة الموتوبيلات، حيث يعمد كثير من الشباب الى شراء دراجات نارية تتصف بالسرعة والقوة مثل (JSXR 750) (JSXR 1100) والتي يؤدي ركوبها العنيف والفائق السرعة الى القيام بحركات بهلوانية من القفز والتمايل والسير على عجلة واحدة بشكل عامودي.. مثل هذه الظاهرة الصرعة استدعت انتباهنا في استطلاع رأي للوقوف على المغزى من اقدام الشباب على ركوب الموتوبيلات اهو مجرد صرعة ام هواية ركوب المخاطرة؟ ليتبين كيف ان هذه اللعبة او الهواية ترادف حياتهم لدرجة الادمان « فالموتو هو قبل أي شئ آخر في حياتنا ..بل كل حياتنا» ، حتى ان بعضهم بات يكنى بشهرة نسبة لبراعته في قيادة الدراجة، ولدى سؤال افراد العينة عن سر استعراضاتهم الخطيرة في ركوب الدراجة النارية؟ ليجيب بعضهم ان ذلك يكون بداعي: الهواية / والجغولية (ابراز براعة قيادة امام جمهور) ولاثبات الشخصية والامكانية الفائقة بالقيادة، وآخرين يركبونها بداعي التحدي/ حب المغامرة/ او للازعاج ومطاردة الاخرين.. ولكن السؤال الاهم الذي توقفنا عنده: ماذا تعني لك مثل هذه اللعبة الخطيرة ؟ ما الفائدة التي تقدمها لك؟ فأشار بعضهم الى انها تريحهم من ضيق نفسي او لتصريف توتر ومنهم من اعتبرها نوع من التباهي والاعتداد الفائق بالشخصية

وآخرون رأوا في اللعبة نوعا من الامتاع والشعور بالفرح لدى ممارستها. ورغم معرفة ممارسو هذه اللعبة بخطورتها واذيتها التي يمكن ان تصل الى حد الموت او الاعاقة او التشوه والتعطل عن العمل لهوسهم بها.. يستمرون بها بشكل غير اعتيادي كمن اعتاد على جرعة دواء في اوقات محددة. وهذا لا يعني الا هوس الى حد الادمان .

.6 JAMES M.HENSLIN, SOCIOLOGY a down to earth approach 7th

**) شاعت بين الشباب اللبناني ظاهرة لبس اسوارة كابالا (kabbalah) حول المعصم وهي عبارة عن اربعة خيوط مطاطية حمراء تنتهي بكلا الطرفين بسلك معدني مرصرص معلق به قطعة معدنية على شكل كف اليد، وسر هذه الصرعة بدأت قديما في القرن السابع مع افكار غربية حول جماعات تشعر بالاضطهاد لتصبح فيما بعد بمثابة رمز لجماعات تعتنق معتقد فكري او ديني معين ..

7. الشباب والموضة (بحث جامعي) رنا طرابلسي وروان شلق/ الجامعة الحديثة / بيروت/ 2010، غير منشور

8. غوستاف لوبون، سيكولوجيا الجماهير، مرجع سبق ذكره.

الفصل الثالث

الخصائص العامة لأتجاه الجماعات المنظمة وغير المنظمة

اولا: تعريف الاتجاه

1) كيف تتكون الاتجاهات؟

2) ما هي طرق قياس الاتجاهات؟

3) هل تتعدل الاتجاهات؟

4) الاتجاهات التعصبية مثالاً؟

ثانيا: اتجاه الجماعات المنظمة:

1. الجماعة المتجانسة/ الاحزاب
2. الجماعة المدعوة بالمجرمة/ المافيا
3. الجماعة – الزمرة/ الاخويات
4. الجماعة – الشبابية/ الكشافة

*الخصائص العامة لاتجاه الجماعات المنظمة

ثالثا: الاتجاهات النفسية والاجتماعية عند الجماعات غير المنظمة

1) جماعة طلاب الريف في المدينة

2) جماعة شباب الدليفري

3) جماعة التواصل الالكتروني والشبكة الاجتماعية

4) جماعة اطفال الشوارع

رابعا: السلوك الجماعي والحراك الاجتماعي

خلاصة فصلية

اولا : تعريف الاتجاهات:

يمكن فهم الاتجاهات على انها: توّجه ثابت او تنظيم مستقر للعمليات المعرفية او الانفعالية والسلوكية، كما انها مفهوم يعبر عن نسق لمشاعر الفرد ومعارفه او تنظيم لسلوك الجماعة واستعدادتها للقيام بأعمال معينة تتمثل في درجات من القبول والرفض لموضوعات محددة. وبوجه عام يكون موضع الاتجاه شئ له حضور سيكولوجي في حياة الافراد او الجماعات وعليه يكون لهؤلاء الافراد او تلك الجماعة نوعاً من التفاعل يحدده ذلك الحضور اما بالسلبية او الايجابية، بالاتساق والاتفاق او بالنفور والتجنب. بناء على ذلك يمكن اعتبار الاتجاهات بمثابة محددات منظمة لسلوك الجماعات تتكون طبقا لمثيرات اجتماعية يشترك بها عدد من الافراد، وبهذا المعنى تفهم على انها :

- ✓ متعلمة ومكتسبة
- ✓ ومن انها لا تتكون من فراغ
- ✓ وتتضمن دائما علاقة بين فرد/ جماعة وموضوعا من موضوعات البيئة.
- ✓ وبأنها تتعدد حسب المثيرات المرتبطة بها
- ✓ وهي تشير لوجود علاقة بين فرد او افراد ومثيرات اجتماعية تسمح التنبؤ بالاستجابة

ويغلب على الاتجاهات من حيث محتواها صفة الذاتية اكثر من اتسامها بصفة الموضوعية ، كما لها صفة الاستمرار والثبات النسبي الا انه يمكن تعديلها

وتغييرها تحت ظروف معينة (كالاتجاهات السياسية او النظرة الى المرأة) وقد تكون قوية وتستمر عبر الزمن (الاتجاه التعصبي). كذلك قد تكون الاتجاهات نوعيّة كخوف الطفل مثلا من الارانب دون الحيوانات الاخرى، او قد تكون عامة كموقف الرجل من عمل المرأة، كما يمكنها ان تكون موجبة كالاحترام والتقدير، وقد تكون سالبة كالكراهية والنفور. وقد يكون الاتجاه قويا وهنا نسميه عاطفة، وقد يأخذ صفة التشبث والعناد وهنا نسميه بالتعصب، وقد تكون الاتجاهات كذلك سرية كموقف جماعات من سياسة نظام قائم، وقد تكون علنية كأتجاهات اصحاب الفكر عبر المنابر الاعلامية. وقد تكون متذبذبة تتوقف على الموقف الذي يوجد فيه المرء وعلى الدور الذي يتوقع القيام منه، كالطفل هو غشاش في المدرسة وأمين في البيت وكذلك الجندي هو في حرب لا يؤمن بها اقل شجاعة من حرب يؤمن بها، ومن الاتجاهات ما تبدو متفاوتة عند اصحابها فقد يكون احدهم متساهلا تجاه مسألة من حيث الرأي وعند يصل الامر الى تمثيلها في الواقع لا يتأخر في ابداء الصرامة والرفض المطلق مثال ذلك استطلاع اتجاهات الناس نحو مسائل الزواج المدني والعلاقات الجنسية والخيانة الزوجية والاجهاض والتبرع بالاعضاء البشرية وغيرها من المواقف المثيرة للجدل، أذ يُظهر بعضهم تساهلا وتضامنا بالرأي في ضرورتها ولكن عندما يسئلون عند مدى تطبيقهم لها وفيما لو كان الامر يتعلق بهم شخصيا سرعان ما يعدلون.

وقد أوجز علماء النفس الاجتماعي وظائف الاتجاهات في جملة امور منها:

1. أنها توجه استجابات الفرد والجماعة نحو الاشخاص الاشياء والموضوعات بطريقة شبه ثابتة
2. انها تنعكس في سلوك الفرد وفي اقواله وافعاله وتفاعله مع الاخرين ازاء

الجماعات المختلفة حيث يعيش (النظرة الى الاقليات والاثنيات)

3. انها توضح وتبلور صورة العلاقة بين الفرد والجماعة وعالمها الاجتماعي

4. انها تيّسر للجماعة القدرة على السلوك واتخاذ القرارات في المواقف المتعددة على شئ من الاتساق دونما تفكير وانما بناءً على موقف مسبق ومنمط

5. انها تؤشر الى انصياع الافراد لجماعات وما يسود هذه الجماعة من افكار وتوجهات وقيم ومعايير

1) كيف تتكون الاتجاهات؟

يتم اكتساب الاتجاهات اما بالتعرض لمواقف او بالتفاعل مع الاخرين المتمسكين بها، وفي الغالب يتمأسس الاتجاه انطلاقا من وجود استعدادات عميقة في الشخصية والاسرة والجماعة والمنظمات تجاه موضوع او ظاهرة او موقف. ولعل حلقات التنشئة الاولية من اسرة ومدرسة وجماعة رفاق والمرجعية الدينية هي من البيئات المهيأة لصوغ الاتجاهات. ولا يمكن بالطبع اغفال الدور الذي يضطلع به الاعلام بوسائله والتعليم بمؤسساته لما له من دور بارز في تكوين الاتجاهات. حيث مع عملية التعليم والتواصل الاعلامي المكثف لمواقف وآراء قد يحدث محو تعلم سابق مألوف اعتاده احدهم ليحل محله تعلم جديد او سلوك جديد وهو ما يعرف بالانتقال السلبي او الكف النشط، وحين تتعمق الاتجاهات بمرور الزمن – مع التعلم والتعرض- تصبح جامدة يصعب تغييرها لانها تأخذ صفة الثبات، ويرى العالم النفسي ليمان بأن الاتجاهات في هذه الحالة تصبح اشبه ما تكون برواسم (كليشهات) داخل نفوسنا يصعب تعديلها، ومن هذه الاتجاهات مثلا ما توصل اليه كل من ديوي وهمبر (1966) لدى طلاب المدارس الامريكية

تجاه بعض الشعوب الاخرى عندما اختصروا معارفهم بها بالتوصيفات التالية :

- الالمان : مجتهدون / اذكياء / علميون / امناء / عدوانيون.
- الانكليز: محافظون / باردون/ دقيقون/ عمليون / اذكياء.
- الايطاليون : ثرثارون/ متدينون/ مرحون/ حادو الطبع / عاطفيون.
- الصينيون: يحبون التقاليد/ متحفظون / يقدسون الروابط العائلية / صابرون....
- اليهود : مكارون/ مجتهدون/ ماديون/ طماعون/ عمليون.
- العرب : غير عقلانيين/ غير عمليين/ شرهون للطعام/ سريعو الغضب/ محبون للعنف/ متقلبون.
- الزنوج: كسولون/ خرافيون/ يحبون الموسيقى/ شهوانيون
- الامريكيون : طموحون/ ماديون/ عمليون / احرار / تقدميون [1]

وعلى هذا نلاحظ ان الاتجاهات تأخذ احيانا طابع الحكم المسبق او الافكار المنمطة من قبل فرد تجاه جماعة او من قبل جماعة تجاه جماعات. ويلعب في صياغة هذه الاحكام عناصر عدة مثل: المصدر (اي صاحب العلاقة الذي ترك الانطباع) والمفهوم (ويقصد موضوع الحدث التي جعل الاخر يكوّن على ضوئه اتجاها عنه) التأكيد (وهو المعنى الذي يعطيه صاحب الموقف وينشره بين آخرين من جماعته عن جماعة وما لديها من صفات) لنفرض مثلا ان مصدر حكم الامريكي على العربي بأنه محب للعنف يعود مثلا الى اظهار الاخير لمسوغات القتل والانتقام التي يمارسها بحق ألآخرين من باب عادة الثأر او التشفي لجرائم الشرف، ويتعزز هذا المفهوم لديه من جراء ما سمعه من احدهم او قرأه في

رواية او شاهده في تحقيق تلفزيوني، ثم بعد ذلك يأخذ بنشر هذه المعارف على اقرنائه ليتعمم الفهم الجزئي على جماعة بأكملها من قبل شخص اشاع معلومة غير مؤكدة. فيترسخ الاتجاه من قبل جماعة ازاء جماعة اخرى بأنهم على شاكلة ما يعرفونه عنهم او يعتقدونه او يقال لهم .

يمكن فهم طبيعة الاتجاهات على انها نتيجة للتفاعل بين الفرد/الجماعة، حيث يرتبطان بالمجتمع الذين يعيشان فيه بكثير من الصلات، فالمجتمع هو الذي يمدهما بكثير من اسباب الحياة المادية والمعنوية وبالثقافة والخبرات والمهارات، ليساعدهما على التكيف للحياة الاجتماعية من جهة وعلى اشباع حاجاتهما من جهة ناحية. وهذا ما يؤشر عن دور المجتمع في تكوين الاتجاهات الذي يغدو بدوره بمثابة المرجعية الذي تمارس سلطانا كبيرا على جماعاتها وافرادها، بطبيعة الحال يزداد شدة الضغط وتأثيره كلما اقتربت الجماعة من حياة الفرد والافراد من جماعاتهم. ولكن هل هذا يعني ان الاتجاهات لا يمكن ان تتعدّل ام انها تتغير وتتحول؟ ما هي الاولويات المناسبة في هذا الاطار وكيف يمكن ان تقاس الاتجاهات كي يصار الى تغيره؟ من العوامل التي تجعل الاتجاهات صعبة التعديل :

- ✓ تكوّن الاتجاهات عند الفرد في سن مبكرة بحيث تصبح من سماته الشخصية
- ✓ الخبرات غير السارة والتي تعتبر من ابرز العوامل المساهمة في عدم التخلي عن الاتجاه ، فاذا اعتدى زنجي مثلا على فتاة بيضاء ستكره كل الزنوج..
- ✓ الجهل بالشئ، يقال ان الانسان عدو ما يجهل وطالما يجهل ولا يريد ان يعرف الامور الاكثر دقة وصوابية يبقى على تحامله ويرفض التخلي عن الاتجاه الذي لديه.

- ✓ الموقف المتخذ بناء على شعور مزعج من حادث عابر ليصبح ميل عام مرافق لكل الموقف، المرور بحادث سير قد يكوّن لدى الفرد اتجاهاً بالخوف من قيادة السيارة.

الا انه يمكن الانطلاق من هذه العوامل للعمل على تعديل الاتجاهات عينها، فأذا كانت لدى بعضهم اتجاهات مرسخة من الطفولة ازاء مسألة معينة (خوفه من ركوب المصعد مثلا) يمكن استخدام الطرق العقلية التي تعمل في مجال اللاشعور ومنها: التبرير/ الازاحة/ الاسقاط/ التقمص/ التعويض/ الامتثال والايحاء، كذلك يمكن القول عن الخبرات غير السارة بالعمل على اخرى بديلة تكون سارة، حيث تعتبر الممارسات الفعلية بشكل ايجابي واخضاعها لتجارب سعيدة للمواقف من اكثر الطرق فعالية في تغيير الاتجاهات عن الوعظ والارشاد، ولان كل عنصر من عناصر الاتجاه مرتبط ومتصل بالعناصر الاخرى ومن ثم لا يمكن تغيير هذه العناصر على حدة او تغيير عنصر جزئي واحد، فأن عملية اعادة تعليم الفرد تعد بمثابة معادلة هامة لتغيير مواقفه الشخصية وتغيير اتجاهاته نحو الحياة عامة، اي صنع انسان جديد عن الشخص القديم عبر العمل على السمات المكونة للشخصية بناءً على قاعدة تقول: to start again you'd need to be a different person with different goal)، وفق ما حدده علماء النفس بالميكانزمات المستخدمة في تعديل الاتجاهات ومنها :

I. تكنيك القدم بالباب، والفكرة الرئيسية من وراء هذا التكنيك هي ان تسأل الاخرين في ان يؤدوا لك معروفا يعتبر أمرا تافها وبسيطا، فيؤدي اداء هذا المعروف الى تحطيم دفاعيات المرء ليصبح بعد ذلك مستعدا لأداء معروفا اكبر. كأتجاهك مثلا تجاه مندوبي المبيعات بأنك ترفض رفضا قاطعا التعامل معهم او الشراء منهم فيعمد هؤلاء الى اهدائك منتوجاً على صعيد التجربة

او يتبرع بخدمة بسيطة لك لتقع بعدها في فخ استدراجه. وبمجرد أن تفكر كيف ينجح محترفو الأنصياع في جذب الناس نحو مآربهم فأعلم أن وراء الأمر سراً، وهذا السر يكمن في «الرجاء»، أذ يتولى هؤلاء القيام بأجراءات مدروسة في محاولة منهم لأيقاعنا في شرك الأنصياع ضمن ما يعرف: بـ«تكتيك ألالتزام» ويتخذ هذا الأجراء أشكالاً مختلفة، بعضها يكون مباشرا وبعضها يكون أكثر موارباً (متسترا) والمسألة تلاحظ ببساطة مع البائعين الماهرين الذين يرسلون أليك مجاناً أو يهدونك عينات صغيرة من أنتاج جديد طُرح في السوق، الهدف من هذه العملية ليس الربح بقدر ما هو نوع من الأستدراج لصفقة أكبر وطلب المزيد من المشتريات لهذا المنتوج الذي من المتوقع أن يتدفق طبيعيّا بعد الألتزام.

مثل هذا الأستدارج أسماه علماء النفسي الاجتماعي «أسلوب القدم بالباب» وهو أسلوب يبدأ برجاء صغير للتوصل الى كسب الأنصياع فيما بعد لرجاوات أكبر، ما يعني أن الرجاء المطلوب المساهمة فيه – أنسانيا أو أجتماعيا او تجاريا- قد يحدث تغير في مشاعر الشخص، فبمجرد موافقته على التورط في تنفيذ طلب صغير فأن أتجاهه النفسي قد يتغير ليصبح في نظر ذاته: الأنسان الذي يتعاون في سبيل قضايا طيبة (وهذا ما يجعلنا نوافق مثلا على رجاوات الغرباء حينما يتعلق الأمر بقضايا المشاركة البسيطة في قضايا أنسانية او وطنية لنجد أنفسنا بعدها قد أصبحنا على قائمة الأشخاص المقصودين والمشاركين للقضايا الأنسانية) وأذا كنت ممن لا يريدون ذلك عليك أذن أن تحترس من الموافقة على الرجاوات التافهة، أذ لا يقف تأثير مثل هذه الموافقة على زيادة أنصاعينا فحسب، أنما قد يتجاوز ذلك نحو رجاوات أكبر وهذا ما يخيف الناس في الغالب: عندما يتلطى الألتزام في طيّات رجاء صغير.

II. تكنيك لعب الادوار : وهو قريب من الاسلوب السابق ولكن صاحب الاتجاه هنا يؤدي دورا لا ضرر فيه وبعد ادائه الدور سيجعله ضعيفا امام قوى الاقناع التي تتعارض وأرائه ومبادئه، وقد تبين من بعض التجارب التي اجريت على من لديهم اتجاهات صارمة تجاه بعض المواقف اليومية والموضوعات الشخصية كيف انهم وبعد خضوعهم لتجربة لعب دور كيف ساهم هذا اللعب بأضعاف الانسان/ صاحب الموقف من وسائله الدفاعية ومن تمسكه بالاتجاه. ......:

III. تكنيك اثارة الخوف والشعور بالذنب، يرى بعض الدارسين ان التخويف واشعار الاخر بالذنب او الخطيئة قد يؤثر ايجابا في تغيير الاتجاه، لما للتخويف من علاقة بالاهتمام المبدئي، مثال ذلك ما يلاحظ في المجتمعات ذات الاقليات الاثنية المتنازعة دوما كيف يعمد قادة الرأي الى تخويف الافرقاء في التمادي بالتحامل واعلان الاتجاهات السلبية بين طائفة وطائفة اخرى مما يؤدي ذلك الى اثارة الاضطراب والبلبلة والفتنة والصراع الدموي في حرب اهلية لا تحمد عواقبها.. لهذا يطرح دائما عامل التخويف من الاسوأ كمحاولة لتغيير الاتجاهات السلبية نحو التعايش والتغاضي عن المسافات القائمة. وكي لا يعيشوا بعدها حالة ندم وشعور بالذنب على ما اقترفت ايديهم من اتجاهات حاقدة ازاء بعضهم البعض .

IV. اساليب الدعاية، وتعتبر من اهم الوسائل العاملة على التغيير كما هي تكون اهم عامل على تكوين الاتجاه، فالدعاية اسلوب اعلامي مثير في التغيير والتأثير من قبل رجال السياسة ازاء جماعاتهم، حيث يمكنهم ومن وسائل الدعاية والاعلام من تعديل الكثير من المواقف لما يتمتعون به من قوة ايحاء على جماهيرهم بأراء جديدة واتجاهات مغايرة. وكلما كان منفذو هذا الاسلوب ذوي سلطة ومكانة معتبرة كلما كان تأثيرهم اكثر شدة وقوة، ونشير بأن

وسائل الدعاية تستطيع ان تغير الاتجاهات السطحية لدى الناس اما الاتجاهات الاساسية والراسخة فمن الصعب تعديلها.

2) كيف يمكن قياس الاتجاهات؟ انطلاقا من اعتبار الاتجاهات قوى محركة وموجهة للسلوك ابتكرت تقنيات محددة لقياسها بهدف معرفة السلوك القائم والمتوقع ومن ثم ضبطه وتوجيهه، وفي سياق ذلك وضعت اختبارات قياس خاصة تنسب للعالم الذي وضعها، امثال ثرستون، وسماها (مقياس المسافات المتساوية) بوغاردس (مقياس المسافات الاجتماعية) وليكرت (مقياس سلم الموافقة) حيث كل منها تحاول ان تكشف بالدلالة البيانية والاحصائية مؤشرات الاتجاه ومساره ووزنه، مثال على ذلك لو اردنا ان ندرس اتجاهات الناس نحو الدين والتي يمكن ان توضح كثير من ميول الفرد للعقائد والقيم والمبادئ الدينية. لامكن قياس ذلك من خلال مقياس اختباري يشتمل على مؤشرات من قبيل:

a. ان جميع المعجزات المدونة في الكتاب المقدسة قد حصلت فعلا
(موافق،غير موافق)

b. ان الشعور الديني يجعل الناس يميلون الى السلام
(موافق، غير موافق)

c. للدين دور هام في الحفاظ على المستوى الخلقي في المجتمع
(موافق، غير موافق)

d. على وجه العموم يقود الدين الى حياة اكثر سعادة
(موافق، غير موافق)

e. السلوك الحميد في هذه الحياة ما هو الا وسيلة لدخول الجنة
(موافق، غير موافق)

f. المعتقدات الدينية تتعارض مع العقل

(موافق، غير موافق)

g. لن يكون هناك حياة بعد الموت

(موافق، غير موافق)

وعلى شاكلة هذه المقياس العددي المتدرج حول معرفة اتجاهات الناس نحو «ظاهرة الايمان واهمية الدين» في حياتهم يمكن استخدامه في قضايا يومية كمعرفة اتجاهات الرأي العام في السياسة والاقتصاد والقضايا الوطنية الهامة. لكن من اهم المقاييس المعتمدة هي:

أ) مقياس بوغاردس للمسافة الاجتماعية: يعتبر اول مقياس وضع لقياس الاتجاهات حيث حاول من خلاله بوغاردس دراسة مدى تقبل الامريكيين او نفورهم من ابناء الشعوب الاخرى، ويرى بعض الباحثين في دراسات علم النفس الاجتماعي أهمية هذه التقنية في قياس المواقف المتعّصبة والوطنية ولقياس المسافات القائمة بين الافراد او الجماعات، بحيث يُظهر الخيار المشار اليه على السلم موقف الفرد الفعلي تجاه شخص آخر يختلف عنه بالعقيدة او اللون او العرق او البلد، في هذا المقياس تطرح الاسئلة بشكل يتناسب وحياة الاشخاص المستجوبين، عندما نضعهم امام جملة خيارات وعليهم تحديد موقع يناسبهم على سلم مُعّد سابقا من سبع خيارات. وقد افترض بوجاردس في ذلك سبعة استجابات متدّرجة على مقياس من سبع أختيارات تمثل العبارة الاولى (الزواج) أقصى درجات التقارب الاجتماعي والعبارة السابعة (الاستبعاد) تمثل اقصى درجات التباعد الاجتماعي وبينها خيارات تؤشر لمواقف ممكنة مثل الصداقة/ الزمالة/ المصلحة/ المواطنة، وفق البيان التالي :

1. اقبل الزواج منه
2. اقبل صداقته
3. اقبله جاراً لي
4. اقبل ان اتشارك واياه زمالة او العمل
5. اقبل ان اتعاون واياه
6. اقبله واحداً من المواطنين في محيطي
7. اقبل استبعاده من المحيط/ الوسط الذي اعيش فيه .

ب) **مقياس ليكرت:** ويقوم هذا المقياس على اختيار عدد من العبارات تتناول موضوع الاتجاه الذي يراد قياسه من قبل افراد العينة، حيث تعرض امامهم سلما من الاجابات الممكنة بالموافقة او عدم الموافقة على النحو التالي :

I. موافق جدا
II. موافق
III. غير متأكد
IV. غير موافق
V. غير موافق اطلاقا

حيث عبر اختيار المستجوب لاحداها يعرف الباحث قيمة كل خيار ازاء الخيارات الاخرى، ويتيح بالتالي معرفة مدى قيمة الموقف او الاتجاه الذي يكنه الشخص ازاء القضية التي يستطلع الرأي حولها.

وقد ترد عبارات هذه المقياس في سياق لآئحة من اجوبة ممكنة موضوعة امام المستجوب (ومدرجة في الاستبيان) ليطلب منه ان يختار ما يتوافق ورأيه وهو ما يعرف بأسئلة المواقف كما في النماذج التالية:

* هل تعتبر نفسك :

- 1) مناصراً لعمل المرأه .....
- 2) مناصر لعمل النساء اللواتي ليس لديهن اطفال
- 3) لا مناصر ولا معارض
- 4) معارضا لعمل المرأة في بعض المهن
- 5) معارض كلي لعمل المرأة

* اين موقعك السياسي من الاحداث التي تجري : معارض/ موالي/ حيادي/ لا رأي

3) الاتجاهات التعصبية:

التعصب هو اتجاه نفسي جامد مشحون انفعاليا (اتجاه + انفعال = تعصب..) ويمكن ان يكون بمثابة عقيدة او حكم مسبق او انحياز مع جماعة/ شئ/ موضوع/ موقف او ضد جماعة او موضوع او حالة ما. وغالبا ما يكون مثل هذا الانحياز (مع) ازاء المتحامل عليه (ضد) لا يقوم على سند منطقي او معرفة كافية او حقيقة علمية وانما مجرد اهواء او افكار او احكام اتخذتها جماعة وتمثلتها حتى اصبحت على شئ من التعصب. ونجد ابرز صوره في :

- ✓ التعصب الجنوسي (نظرة الرجال الى النساء او العكس) تعد الاتجاهات التعصبية ضد المرأة أو التعصّب لجنس دون الآخر من أشكال التعّصب الظاهرى في بعض المجتمعات، وغالباً ما نلاحظ مثل هذا التمييز في المعاملات اليومية لجهة العمل والدراسة والدور الاجتماعي والشأن السياسي(*)، حيث لآزال هناك ما يشبه الاجماع على الخصال المميزة بصورة نمطية لكل من الرجل والمرأة، فالرجال متمسكون بالكفاءة والاستقلال وما يرتبط بهما من خصال نوعية في البطولة والريادة، بينما تتسم النساء بالتعاطف والتعبيرية وما يرتبط بهما من

خصائص نوعية. وقد شمل التمييز الجنوسي جوانب أجتماعية عديدة أهمها التعليم والنواحي الاكاديمية أذ لا زال يُعتبر بأن هناك تخصصات مقصورة على الرجال دون الاناث، ويكون الوضع أكثر حدّة في المجتمعات الشرقية/ العربية حيث العديد من أقطارها ينظرون الى المرأة نظرة أقل قيمة من نظرتهم للرجل، ويضعونها دائما في مكانة أو مرتبة وضيعة رغم تقلّدها المناصب المهمة (لدرجة لا زال الناس لا يتقبلون – مثلا- فكرة ان يكون قاضي المحاكم او كابتن الطيران المدني او طبيبة الجراحة....من النساء) [2]

- ✓ التعصب العنصري (اثنيات / اقليات ضد اثنيات/ اقليات) يعتقد المنتمون الى جماعة اثنية او عرقية انهم يتميزون من الوجهة الثقافية عن الجماعات الاخرى في مجتمع ما، كما ان الجماعات الاخرى ينظرون اليهم على هذا الاساس ومن ابرز سمات التمايز: اللغة/ التاريخ/ السلالة/ الدين/ وأساليب الزي وجملة من العادات والتقاليد وطرق الاحتفال بالمناسبات. وهناك مقاربتان نظريتان في علم النفس قد تساعدان على فهم التوجهات التعصبية (المتحيزة) تعتمد المقاربة الاولى على ان التحيز يدور في اساسه من خلال التفكير النمطي (النمذجة) اي أسباغ خصائص ثابتة ومتصلبة على جماعة بشرية ما، تظهر في صورة مشاعر عداء ضد جماعة معينة والقاء اللوم عليها كسبب لتصرفات غير محمودة (تصبح هنا بمثابة: كبش فداء او لوم الضحية بأعتبارها اقلية ضمن اكثرية ومستضعفة بحكم قلة نفوذها) وترى المقاربة النفسية الثانية ان هناك نوعا من الناس تتحكم فيهم اعتبارات تنشئتهم الاجتماعية المبكرة وتجعلهم ميالين اكثر من غيرهم الى التفكير الاسقاطي

الذي يمثل نزعة الفرد الى اسقاط رغباته او فورات مزاجه ولحظات غضبه على الاخرين، كما هو الحال تحامل الجنس الابيض في الولايات المتحدة ضد الزنوج والعرق الاسود حيث تتضح ملامح التعصب من خلال اغلاق ابواب مدارس وجامعات امام السود وحرمانهم من تولي الوظائف العليا والاعمال الرائدة فضلا عن حرمانهم لكثير من حقوقهم الاجتماعية وعزلهم سكنيا في احياء خاصة.

- ✓ التعصب الديني: حين تأخذ كل طائفة تتكتل على جماعتها ازاء جماعات اخرى تنتمي لدين مغاير. فتصبح المسافة الاجتماعية قائمة وشائعة بين الاجيال لاختلاف الثقافات والعادات والتقاليد. وغالبا ما يظهر هذا التعصب في درجات تصلب مختلفة اما بشكل سلبي واضح في صور: التصادم، السباب، الاحتقار، الاستهزاء، اللاعتبار(كأشد درجات التصلب) واما بشكل غير ودي من خلال: الابتعاد، التجنب، عدم التعامل (كأخف درجات التصلب) عبر ما يعرف ب «SOCIAL RIGIDITY» اي برغبة البعد والتجنب وتحاشى التواصل مع ابناء المذاهب الاخرى بان يذهب بعضهم ابعد من ذلك مثلا عندما يصف من يختلف عنه مذهبا ودينا بأنه : لئيم/ متعصب/ ارهابي، وقد يؤدي التعصب الديني الى ظهور ما يعرف ب «الجماعة الاصولية» التي هي تيارات عصبوية تميل الى القطيعة في الانتماء ورفض الاعتراف بحق الاخرين في الاختلاف والمغايرة مما يفتح السبيل امام احتمالات العنف ذلك ان «الثقافة الاصولية ترتفع الى مرتبة العقيدة التي تمثل مشروعا وجوديا وسياسيا يتم الانتقال عندها الى حالة اليقين المطلق المتسم بالحق واحتكاره في نظر من يعتنق هذه العقيدة وذلك على نقيض عقيدة الاخر التي تتسم بالبطلان والضلال وبالتالي يتعين محاربتها بلا هوادة» [3]

- ✓ الدس الاعلامي: او يعرف بالتحريض والتجييش، يعتمد هذا النوع من التعصب على تقنية الدعاية ولعبتها في التأثير، لان الدعاية غالبا تنمو في مناخ تنازعي تتعارض فيه مصالح مجموعتين: (اخصام سياسة او دين) ..ولم يكن من باب الصدفة ان يغتني مخزون الدعاية بتقنيات جديدة متطورة وان يجد تعابيره المثلى والاكثر ظهورا عند قيام الانظمة الكلية والنزاع العالمي حيث تؤدي الدعاية في هذا الاطار وظيفتين مزدوجتين: وظيفة التنظيم ووظيفة الضبط، فهي تساهم من خلال وظيفة الضبط في اثبات هوية الجماعة، فالادانات التي توجه نحو مسلك معين او موضوع ما تجعل افراد هذه الجماعة ينتظمون ضمن مجموعة واحدة ترتكز على التعارض الذي يتقاسمه كافة افراد هذه المجموعة تجاه الموضوعات الاخرى، فالمجموعة المعنية ومصالحها لا تحدد الا من خلال وجهة تعارضها ومصالح الاخرين، وهكذا يظهر الضبط عن طريق الفصل كقول فريق: نحن ندين «الاخر»، الخصم، الشرير.

ويرى رواد التحليل النفسي من ان التعصب يؤدي وظيفة نفسية خاصة تتلخص في التنفيس عما يعتلج في النفس من كراهية وعدوان وتوتر مكبوت، وذلك عن طريق عمليتي الازاحة والابدال دفاعا عن الذات وعمن تحبه، والتعصب ضد العقيدة الدينية او الالحاد قد يكون بمثابة رد فعل او تكوينا عكسيا لرغبة عنيفة عن الايمان تتوجس النفس من عواقبها شرا، والعكس قد يكون رد فعل لميول عنيفة نحو التمرد على القهر المنسوب لسلطة ايا كان نوعها. وهذا يعني ان التعصب يظهر كأحدى حيل الدفاع حيث عبر هذ الحيلة يسقط الفرد نقائصه والجماعة مشاعرها ذنبها على الاخرين الذين يصبحون بمثابة كبش فداء او ضحايا.

ويشير بعض علماء النفس في تفسيراتهم للتعصب على انه يعني حب الذات، فأتجاهات التعصب العنصري مثلا تخدم مشاعر التفوق لدى المتعصبين وخاصة اذا كانوا من اؤلئك الذين يعتقدون بتفوق عنصرهم او جماعتهم على غيرهم. وفي التعصب الديني حيث هناك دائما: أنا وآخر.. تنطلق من عنصر الاختلاف في الانتماء لتضيف اليها تصنيفاً يوقع الناس في فخ المقارنة للتفضيل بين فئة أرقى= فوق، وفئة أدنى= تحت، مشيرة الى وجود نوع بشري راق يتبع دين ومعتقدات افضل واسمى وآخرين أقل قيمة وشأناً وبناء على هذا التصنيف يتأسس التمييز وعدم المساواة في المجتمع ويأخذ الصراع المبني على الدين وجه النفور من الاخر المختلف.

1.3- الاتجاهات التعصبية ومفهوم التمييز:

على الرغم من ان مفهومي التعصب والتمييز يستخدمان غالبا للاشارة الى المعنى ذاته الا انهما في واقع الامر متمايزان فالاتجاهات التعصبية هي المفهوم الاعم الذي يستوعب مفهوم التمييز بالمعنى الذي عرضنا له، بمعنى ان التمييز (السلوك) هو المظهر الصريح لتعبير عما يوجد لدى الشخص من مشاعر وقوالب اعتقاداته النمطية عن بعض الاشخاص او الجماعات ليصبح بمثابة سلوك يعكس مدى تقبل شخص معين اورفضه شخصا آخراً. وفي هذا الاطار وضع البورت مقياسا متدرجا من الانشطة السلوكية التي يمكن ان تتولد نتيجة الخصومات بين الجماعات وذلك على النحو التالي:

- الامتناع عن التعبير اللفظي، حيث لا يوجد خلالها اذى للجماعات الخارجية بشكل صريح وانما يتم ذلك داخل الجماعة لناحية اظهار نوعا من الشعور

بالكراهية خلال الاحاديث والجلسات الخاصة

- ❖ التجنب : اي قيام الشخص المتعصب من الانسحاب بنفسه تماما من مواقف التعامل مع اعضاء هذه الجماعة.
- ❖ التمييز: يأخذ صاحب التعصب على عاتقه السعي الى منع اعضاء الجماعات الخارجية من الحصول على التسهيلات والامتيازات التي يتمتع بها الاخرون.
- ❖ الهجوم الجسماني: في ظل حالات الانفعال العميق قد تؤدي الكراهية الى سلوك عنفي يتمثل بعدوانية معينة تجاه اعضاء الجماعة الاخرى.
- ❖ الابادة، وهي المرحلة النهائية للعداوة والكراهية بين الجماعات (حالات العنف الجماعي والتطهير العرقي)

وعلى ضوء هذه المؤشرات يمكن استخلاص اربعة انماط من الجماعات وفق متغيري التعصب والتمييز وهي:

1. الجماعة غير المتعصبة/ غير المميزة: وتمثل اقلية صغيرة من الجمهور العام حيث لا تظهر اية علامات عداوة من قبلها تجاه الجماعات الاخرى
2. الجماعة غير المتعصبة- المميزة: وهذه الجماعة لا تظهر اي ميل للاتجاه التعصبي العدائي ولكنها تسلك طريقة تمييزية تجاه اعضاء جماعات عنصرية اخرى (بعض الجماعات ترفض تأجير او بيع منازلها لافراد من جماعات اخرى خوفا من غضب جيرانهم او اتجاهاتهم السلوكية الفظة وليس بسبب مشاعر عدائية مسبقة.)
3. الجماعة المتعصبة- غير المميزة: هذه الجماعة وبالرغم من عداوتها وكراهيتها لاعضاء الجماعات العنصرية الاخرى لا تترجم مشاعرها الى سلوك تمييزي .

4. الجماعة المتعصبة المميزة: وتتسم هذه الجماعة بوجود أرتباط قوي لديها بين الاتجاهات والسلوك. أي أن أفرادها يسلكون كما يشعرون ويتصرفون كما يفكرون.

وهكذا يمكن فهم سلوك التعصب على حكم مسبق لا اساس له ولا سند منطقي يدعمه، قد يكون هذا الحكم ايجابيا (بالتفضيل) او سلبيا (بعدم التفضيل) يوجه نحو جماعة معينة ككل، او نحو اشخاص معينيين لانهم اعضاء في هذه الجماعة، ينطلق هذا الحكم على اساس من المعتقدات او التصورات او القوالب النمطية او التعميمات المفرطة يستطيع صاحبه (المتعصب) التعبير عنه في صور عديدة من اشكال السلوك طبقا لشدته، وفي هذا السياق اجرت مجموعات باحثات لبنانيات[4] دراسة ميدانية مع الشباب اللبناني (شباب الجامعات نموذجا) حول الاتجاهات التعصبية والدينية القائمة بينهم وقد تخللت هذه الكثير من المعطيات الهامة التي عبر من خلالها المستجوبون عن اتجاهاتهم التعصبية، ومنها:

- في البيانات الاجتماعية سئل افراد العينة: هل لديك اصدقاء من خارج طائفتك؟ 65 % اجابوا بلا مقابل 35 % بنعم، مما يعني ان ثلثي العينة لا تتقرب من الاخر الطائفي وحتى المذهبي وحينما طلب منهم توصيف العلاقة القائمة بينهم اشار من 41 % بأنها مجرد زمالة في الدراسة، وعن سؤال مفاده: هل تتبادلون الزيارات وتتشاركون المناسبات الاجتماعية والدينية بأعتباركم زملاء او اصدقاء.. ليجيب من نسبتهم 71 % بلا مقابل 24 % قالوا نعم.
- في النظـرة الى الآخـر المختلـف: عُـرض عـلى المسـتجوبين جـدولا يتضمـن لائحـة بسـتة مذاهـب دينيـة رئيسـية المسـيحية منهـا والاسـلامية وطلـب مـن افـراد

العينة ان يحددوا اقربها اليهم، ليتبين ان النسبة الغالبة يرون التقارب الاولوي يكون مع ابناء مذهبهم بالدرجة الاولى او ضمن الطائفة الواحدة بالدرجة الثانية فالمذاهب الاخرى تاليا بنسب ضئيلة ومتفاوتة. وفي سؤال يشير: لنفرض ان مجموعة من الشباب المنتمين لمذهب آخر عمدت الى استفزاز مشاعرك الدينية ما هي ردة فعلك؟ 33 % يقومون برد فعل مباشر بالمثل، 25 % لا يبالون، 14 % يشكونهم الى السلطات المعنية، 5 % يستنكرون وقد يعمدون الى تحقير شعائر الاخر في اوقات اخرى.

- عن المستجوب نفسه كمتعصب: لمعرفة موقفه في درجات التعصب واين هو منه؟ قدم سؤال مفاده: ايٌّ من الغايات التالية تجد على الطلاب ان يولوها درجات الاهتمام اولا: ان يتمسك كل بمعتقداته (41 %) ان يثبت وجوده كملتزم مهما الامر (29 %) احترام معتقدات الاخر (16 %)، يلاحظ من هذه المعطيات ان الاتجاه نحو ان يتمسك احدهم بمعتقداته المذهبية ويحافظ عليها أحتل المرتبة الأولى. وهذا ان دل على شئ انما يدل على توجه اغلب الشباب نحو الداخل الاثني اولا، الا ان السؤال الابرز الذي وُجّه لأفراد العينة فيما اذا كان احدهم فعلا هو متعصب ليعبر من نسبتهم (54 %) صراحةً بنعم يعتبرون انفسهم متعصبون مقابل (21 %) قالوا لا، بينما امتنع (25 %) عن الاجابة.

ثانيا : سيكولوجيا الجماعات المنظمة:

يمثل السياق الاجتماعي بوصفه «الكل» (الجماعة) أهميةً كبيرة نسبيا في «الجزء» (سلوك الفرد)، وقد وصف تيرنر هذه القضية على الوجه التالي: «هل يتضمن سلوك الجماعات عمليات اجتماعية او سيكولوجية ام ان هذا السلوك

مختلف عن الخصائص الفردية التي يتميز بها الافراد؟ وهل الجماعة موجودة في خيالنا ام انها واقع حقيقي؟ وهل الجماعة حقيقة واقعية بالطريقة الحية والملموسة نفسها التي يكون فيها الافراد واقعيين وحقيقيين؟ ازاء ذلك افترض تيرنر ان ما قد يظهر ليكون سلوكا مميزا لجماعة ما هو الا استجابة فردية لمثيرات او مواقف اجتماعية مختلفة، وفي وقت متأخر عن زمن تيرنر قدّم باحثون في علم النفس الاجتماعي «مفهوم التفاعلية» ومفادها ان الخصائص السيكولوجية للافراد قد تغيرت تغييرا كيفّيا عن طريق تفاعل الفرد والمجتمع، فمن خلال التفاعل الاجتماعي لأعضاء جماعة ما تنشأ نواتج جماعية منها: المعايير والقيم والافكار المنمطة، حيث تستدمج (interalized) بطريقة ما وتنقل الى الافراد. «فسلوك الجماعة يحدث عندما يمتلك كل فرد التمثيلات التي تشتمل على سلوكيات الاخرين وعلاقاتهم وتتجمع السلوكيات ويكمل بعضها بعضا فقط عندما يمثل الموقف المشترك في كل منها، وغندما تكون التمثيلات متشابهة البناء تحدث هذه الشروط، عندئذ تكون التمثيلات والسلوكيات هي التي تخرج حقائق الجماعة الى الوجود وتحدث ظاهرة ثبات وتماسك عمليات الجماعة..»[5]

وقد شهدت فترة التسعينات من القرن العشرين انطلاقة علمية هامة في اطار علم نفس الجماعات مع تاجفيل في نظريته عن « الهوية الاجتماعية» بعدما طُبّقت في العديد من الابحاث القريبة منها مثل: المسايرة الاجتماعية، المعايير ونفوذ الجماعة.. ويشير تاجفيل في نظريته الى ان الاتجاهات بين الجماعات تتمثل في الاصل بمدى كبير من الظواهر التي تكونت عن طريق افراد كانوا اعضاء في جماعات اجتماعية، تطورت مشاركتهم الاجتماعية وتمثيلاتهم كجماعة معيارية نتجت من خلال سياق اجتماعي كبير او كوظيفة له، وفي دراساته الشهيرة:

«نماذج الجماعات التجريبية المصغرة» وجد ان التصنيف الاجتماعي للافراد في جماعات متمايزة بأمكانه وحده ان يحدث سلوكا بين الجماعات، حيث يسعى الافراد الى تفضيل اعضاء الجماعة الخارجية. ومثل هذا التفضيل هو ما يحث الافراد على عمل مقارنات اجتماعية بين الجماعة الداخلية (التي ينتمي اليها) والجماعات الخارجية من اجل تحقيق وضع اجتماعي مميز وله الافضلية للجماعة الداخلية. وهذا هو المعنى المقصود بـ"الهوية الاجتماعية للجماعة". والتي سنبينها من خلال بعض الامثلة القائمة كالاحزاب والمافيات والاخويات والكشافة:

1) الجماعة المدعوة بالمتجانسة - الاحزاب نموذجا :

يمكن ان نفهم الحزب - وحسب تعريفات الموسوعة البريطانية - على انه: مجموعة بشرية لديها توجه فكري ضمن مجموعات أخرى في النظام السياسي، تحاول إيصال مرشحيها الى المناصب العامة للسيطرة على الحكومة أو التأثير على سياساتها، ويرى موريس دوفرجيه في هذا الاطار أن الحزب "مجموعة طوائف او إجتماع مجموعات صغيرة تنتشر في البلاد، ترتبط فيما بينها بنظم تنسق عملها للوصول الى الحكم عن طريق الانتخاب"، ويتميز الحزب السياسي كجماعة منظمة عن بقية الجماعات المنظمة الأخرى، في هدفه المتمثل بالوصول الى السلطة.

كذلك تعرف الاحزاب على أنها شكل من اشكال التنظيم الاجتماعي الذي يتخذ اما منحى سياسيى او عقيدة دينية او توجها فكريا او تحركا مطلبيا ذات ايديولوجية خاصة، واعتبرت دراسات علم النفس الاجتماعي الحزب نوعاً من الهوية الاجتماعية التي تسعى جماعة معينة الى تحقيقها كنتيجة للتمييز الايجابي من بعض الافراد المنضوين تحت فكر او جماعة داخلية.

ويلعب في استراتيجية هذا التحقيق اعتقاد هؤلاء بأن حدود جماعتهم غير نافذة ويعجزون عن تحسين ذواتهم من خلال التنقل بين الجماعات فيضطرون هنا الى التجمع على اساس واقع اجتماعي. ونوضح ذلك بمثال: قد يرغب الافراد التابعون لحزب سياسي قليل النفوذ مقارنة انفسهم بحزب سياسي اقدر نفوذا منهم، (ومفهوم النفوذ هنا منطلق على اساس عدد الافراد التابعين لهذا الحزب او ذاك) وبالطريقة ذاتها يصبح اعضاء الجماعة الاعلى مستوى اكثر تمييزا وعنصرية تحت الشروط التي يرون من خلالها ان تفوقهم وريادتهم المشروعة مهددة من جانب الجماعات الاقل مستوى. (وهكذا يأتي التميز من خلال مقولات: نحن نمتلك النصيب الاكبر من تأييد الناس لنا/ نحن ننتمي لحزب سياسي ذي نفوذ كبير..) وهكذا اذا كانت رغبة الحزب في تحقيق هوية اجتماعية ايجابية ينظر اليه من جانب النظرية الاجتماعية بوصفه محركا او دافعا سيكولوجيا وراء تصرفات الافراد في سياق الجماعات الموجودة ضمن مجال معين.. تصبح المقارنة الاجتماعية عند الاحزاب على انها وسيلة او طريقة يحصل من خلالها المنتمون على تقييم للوضع الاجتماعي للجماعة، ومثل هذا المفهوم تفسره فكرتين رئيستين :

الاولى : تنطلق من خلال سعي الاعضاء الى تقييم انفسهم ومعتقداتهم وآرائهم وفق مقولة: نحن اكفاء/ نحن على حق

الثانية: تنطلق عندما لا تتوافر وسائل الذات الموضوعية فيسعى الاعضاء الى تقييم آرائهم عن طريق المقارنة مع ألاخرين. وفق التالي:

- اننا نميل الى تقييم انفسنا مع الاخرين المتشابهين لنا
- اننا ننجذب الى المواقف الاجتماعية التي يكون فيها الاخرون مماثلين لنا.

تعتبر الأحزاب إحدى الظواهر البارزة في الحياة السياسية ولاسيما في الأنظمة الديمقراطية وذلك لما تقوم به من تنافس على السلطة وتجسيداً لمبدأ المشاركة السياسية إضافة إلى التعبير عن إرادة المجتمع بكافة أطيافه ومصالحه، ويرى الباحث الاجتماعي ماكس فيبر إن: " اصطلاح الحزب يستخدم للدلالة على علاقات اجتماعية تنظيمية تقوم على أساس من الانتماء الحر والهدف هو إعطاء رؤساء الأحزاب سلطة داخل الجماعة التنظيمية من أجل تحقيق هدف معين أو الحصول على مزايا عادية للأعضاء" وهناك من يرى أن الحزب بمثابة "تنظيم سياسي له صفة العمومية والدوام وله برنامج يسعى بمقتضاه الوصول إلى السلطة ".

وبناء على جملة التعريفات حول مفهوم الحزب نستخلص بانه جماعة تطوعية واعية ومنظمه ومتميزة من حيث الوعي السياسي والسلوك الاجتماعي المنظم ومن حيث الطموحات والآمال المستقبلية ولها غايات قريبة وبعيدة تهدف إلى الاستيلاء على السلطة (إذا كانت في المعارضة تهدف إلى تغير سياسي واقتصادي واجتماعي وثقافي وحياتي يتساوى مع قناعتها واتجاهاتها).كما انه قد يمثل شريحة أو كتل اجتماعية متناغمة يدافع عن مصالحها ويجاهد من أجل انتصار أهدافها وغاياته، كل حزب من الأحزاب السياسية له مبادئ تنظيمية وفكرية واجتماعية وله قوانينه الداخلية يحتكم إليها (النظام الداخلي) وله برنامج محدد يبسط فيه هويته الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، وقد اختلفت الاحزاب بناء على هذه الهوية وتنوعت اتجاهاتها المنتشرة في دول العالم وتعددت من حيث طبيعتها وطرق عملها ونشأتها وتنظيمها واهدافها مما جعل امكانية تصنيفها وتميزها عن بعضها البعض انطلاقا من اسس ومعايير ثابتة امرا

في غاية الصعوبة، الا اننا سوف نعرض اكثر التصنيفات سهولة ووضوحا. حيث هناك احزاب عقائدية واحزاب عملية :

اولا : الاحزاب العقائدية: وهي الاحزاب التي تتبنى عقيدة او ايديولوجية معينة (الشيوعية ،التيارات الدينية) وتحاول هذه الاحزاب في ضوء عقيدتها ومبادئها اعطاء تفسيرات وحلول للمشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في الدولة، ويمتاز اعضاء الاحزاب العقائدية في أيمانهم الشديد بصحة وصلاحية مبادئهم وافكارهم والتزامهم بها .

ثانيا: الاحزاب العملية: ان الاحزاب العملية او احزاب البرامج تقوم على اساس تبني مواقف معينة وبرامج عامة تستمد شعبيتها من خلالها، دون ان يكون لها اي ارتباط بعقيدة او ايديولوجية معينة. وقد سميت هذه الاحزاب ايضا بالاحزاب الواقعية نظرا لمرونتها وتغير مواقفها وسياستها العامة من فترة الى اخرى تبعا للظروف والمعطيات المتغيرة والمستجدة، كالحزب الجمهوري والحزب الديمقراطي في الولايات المتحدة الامريكية هي من الامثلة على الاحزاب العملية

ما يميز الاحزاب في مختلف تنوعاتها جملة خصائص منها:

1. إدماج المواطن في الحزب وتعليمه الالتزام السياسي.
2. ممارسة الحزب دور الوسيط أو همزة الوصل بين الرأي العام والحكومة.
3. اختيار القادة لانتخابهم من قبل الشعب الأمر الذي يستدعي مستوى من الوعي لدى المواطنين لضمان الاختيار الصحيح

وفي النظم الديمقراطية يلعب الحزب ثلاث وظائف أساسية هي:

- مراقبة السلطة التنفيذية.
- تمثيل المصالح.

- استقطاب المرشحين والأعضاء.

اما في أما في الأنظمة الشمولية فللأحزاب وظيفتين:

- الحفاظ على صلابة وتضامن مجموعاته.

- دور الإشراف والإدارة

يمكن أن ايجاز أهم وظائف الأحزاب السياسية فيما يلي :

1- تجميع المصالح:

ويقصد بها تحويل مطالب الناس إلى بدائل لسياسة عامة موجودة حيث يصبح الامر بمثابة النشاط الذي تتوجه فيه مطالب الأفراد والجماعات لتقوية اقتراح سياسي ذي مغزى وتصبح الاقتراحات ذات مغزى حين تكتسب مساندة مراجع سياسية قوية والأحزاب مهيأة بشكل خاص لتجميع المصالح فهي تسمي مرشحين يمثلون مجموعة من السياسات ثم تحاول أن تحشد التأييد لهم، ويمارس الحزب وظيفة تجميع المصالح من خلال مؤتمراته وعندما يتلقى الشكاوى والمطالب من التجمعات النقابية والعمالية والهيئات الأخرى ليقوم بعد ذلك بالمساومة على تلك المطالب لتسويتها واقتراح سياسة معينة بديلة وفي الأنظمة غير الديموقراطية تضمر هذه الوظيفة وتتحجم كثيراً من جراء قيود وضوابط النخبة المسيطرة على نشاط الأحزاب.

2- التجنيد السياسي:

يقصد بالتجنيد عموماً عمليه اختيار أفراد لشغل أدوار من نسق اجتماعي ما ويعني التجنيد السياسي شغل المناصب الرسمية كرئيس مجلس الوزراء أو الوزير أو المحافظ أو عضو برلمان أو موظف إداري وكذلك المناصب الأقل رسمية كالنقابي أو الحزبي أو الدعائي، ويقوم الحزب بهذا الدور من خلال التعيين

أو عبر الانتخابات فالحزب الذي يصل إلى السلطة يقوم بتشكيل الحكومة وتعيين كوادره في المناصب والوظائف الإدارية.

3- التنشئة السياسية:

وتشير إلى «عملية تعلم القيم والاتجاهات السياسية والقيم والأنماط الاجتماعية ذات المغزى السياسي وهي عملية مستمرة يتعرض لها الإنسان عبر مراحل حياته المختلفة وقد تقتصرهذه العملية على مجرد نقل الثقافة السياسية من جيل إلى جيل وقد تستهدف إحداث تغيير جزئي أو شامل في عناصر ومكونات هذه الثقافة وتعتبر الأحزاب من المؤسسات الهامة التي تقوم بهذا الدور من خلال تكوين رؤية المواطن نحو المجتمع والسياسة عبر صحافتها أو ما تقوم به من نشاط تثقيفي

على ما تقدم يمكن إجمال العناصر المشتركة في التعريفات التي تعرضت لمفهوم الأحزاب السياسية بما يلي:

أ. مجموعة من الأفراد. إذ لا يمكن أن يطلق على أي تنظيم حزب ما لم يكن له أعضاء ومؤيدون وجماهير ولا يطلق على الشخص الواحد حزب مهما كانت لديه أفكار وبرامج ما لم يلتف حوله الناس والجماهير.

ب. الإطار الفكري . لا بد أن يربط مجموعة الأفراد هذه رابطة فكرية، بمعنى أنه يجب أن يجتمع هؤلاء الأفراد على بعض المبادئ والأفكار ويكون لهم برنامج واضح المعالم.

ج. الإطار التنظيمي . وهو الرابط والشكل التنظيمي الذي يجمع أعضاء الحزب ويوظف طاقاتهم ويوزع الأدوار بينهم.

د. الهدف السياسي وهو الوصول إلى السلطة، حيث يعد المعيار الوحيد للتفريق بين الحزب السياسي وغيره من التنظيمات، فهناك تنظيمات عدة تشترك مع الحزب في العناصر السابقة مثل الجمعيات الثقافية والنقابات المهنية، لكنها لا تسعى للوصول إلى السلطة، وإنما لنيل حقوق شريحة معينة، كما هو الحال في النقابات المهنية .

2) الجماعة المدعوة بالمجرمة- المافيات:

هي منظمات او جماعات ذات طابع اجرامى تتخذ من العنف والجريمه اسلحه للدفاع عن مصالح واغراض شخصيه. بدايات هذه الجماعة التسمية ولدت فى الجنوب الايطالى وعلى وجه الخصوص فى جزيره صقليه عام 1800 عندما قام جاريبالدى بتوحيد ايطاليا بعدما كانت عباره عن امارات واقطاعيات محكومه من قبل الامراء والنبلاء الى ان اتفق (ملك روما) مع بابا الفاتيكان فى العمل على توحيد ايطاليا وذلك باستخدام احد العسكريين اصحاب الخبره وتم بناء جيش كانت نواته المؤسسة هي الحرس الملكى فى ذلك الوقت. ازدادت رقعه سيطره هذه المنظمه- الحرس بعد توحيد ايطاليا وامتد نشاطها الى خارج حدود البلاد وعبرت المحيط الى الولايات المتحده الامريكيه ومن هنا توطدت العلاقه بين المافيا والسياسه وانبثقت عن المنظمه الام منظمات عديده تخصصت كل منظمه فى نوع واحد فقط من البوليسي المشروع وغير المشروع وتم التقسيم على هذا النحو:

I. cosa nostra والترجمه الحرفيه لها (اشياء خاصه بنا) وتعتبر هذه المجموعه هي الصفوه من رجال المافيا

II. camorra وتوجد هذه المجموعه فى مدينه نابولى وتمارس

نشــاطها منــذ عــام 1800 وتتخصــص هــذه العصابــه فى التهريــب بــكل اشــكاله وخاصــه الســلع الاســتراتيجيه للدولــه كالســجائر ومــا شــابه ذلــك ولا يمنــع ذلــك فى انهــا تفــرض اتــاوات عــلى اصحــاب المتاجــر والمنشــآت الصناعيــه وقــد يقــوم اعضــاء العصابــه بخطــف احــد الاشــخاص كرهينــه بغيــه طلــب مبلــغ مــالي مــن أفــراد أسرتــه والا ســيكون مصــيره القتــل امــا الاتجــار فى المخــدرات والرقيــق وتهريــب الســلاح مــن والى ايطاليــا والعلاقــه الوثيقــه بــين رجــال المافيــا ورجــال الحكومــات المتعاقبــه هــو مــا جعــل هــذه المنظمــه كالاخطبــوط وذات نفــوذ

يُرجع بعض الباحثين تاريخ كلمة المافيا إلى القرن الثالث عشر مع الغزو الفرنسي لأراضي صقلية عام 1282م ، حين تكونت في هذه الجزيرة منظمة سرية لمكافحة الغزاة الفرنسيين كان شعارها : Morte Alla Francia Italia Anelia ويعني (موت الفرنسيين هو صرخة إيطاليا) فجاءت كلمة "مافيا" مجتزأة من أول حرف من كلمات الشعار MAFIA).) وهناك وجهة نظر أخرى حيث يذكر بعض زعماء المافيا وعلى رأسهم جوبونانو (أبوعين) أن بداية المافيا كانت تتويجاً للتمرد والعصيان الذي ظهر بصقلية عقب قيام أحد الغزاة الفرنسيين بخطف فتاة في ليلة زفافها، يوم إثنين من عام 1282 م، مما أشعل نار الإنتقام في صدور الإيطاليين والتي امتدت لهيبها من مدينة إلى أخرى، فقاموا بقتل عدد كبير من الفرنسيين في ذلك الوقت إنتقاماً لشرفهم المذبوح في هذا اليوم المقدس لديهم، وكان شعارهم في ذلك الوقت هو الصرخة الهستيرية التي صارت ترددها أم الفتاة وهي تجري وتبكي في الشوارع كالمجنونة.

ومــن أشــهر فــرق المافيــا فرقــة جزيــرة صقليــة (إيطاليــا) التــي أصبحــت بحلــول

الربع الأخير من القرن التاسع عشر القوة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية المسيطرة في غربي صقلية، وكانت في بادئ الأمر تهتم بأعمال الحماية والابتزاز في منطقة بالرمو وما حولها من مزارع الليمون والبرتقال، وضمت بين طياتها بعض من أفراد الارستقراطية الحاكمة، حيث انقسم المجتمع في بداية الدولة الإيطالية الناشئة إلى الساسة وأصحاب الأراضي ودخلت المافيا بين هذين الفريقين كما كانت المحرك للعديد من أفراد الحكومة ورجال الأعمال، ويتبع أفرادها شيفرة خاصة تمنع إفادة الشرطة بالجريمة.

وبرغم كل المحاولات المبذولة للقضاء عليها في الكثير من الدول، لايزال تأثيرها القوي على الساحة السياسية والاقتصادية العالمية فاعلا بشكل يقلق الساسة والشعوب على حد سواء. واليوم تستخدم كلمة المافيا مجازاً للدلالة على أقصى درجات الإجرام تنظيماً ووحشية مثل المافيا الروسية والمافيا اليابانية (الياكوزا). وتنشط جميع المافيات في العديد من النشاطات غير القانونية مثل المقامرة والدعارة وبيع المخدرات وتبييض الاموال وتهريب الآثار ويقدر المسؤولون عن القانون أن عائدات هذه الجماعات يفوق ال 50 بليون دولار أمريكي سنويًا من النشاطات الإجرامية. سيما بعدما اخذت تتنامى في طبيعة نشاطاتها لتطال اعمال غير تقليدية مثل التجارة بالاعضاء البشرية، القرصنة البحرية والخطف والارهاب وسرقة الابداعات واللوحات النادرة وتهريب العمال والترويج لمشاريع استثمارية وهمية وفق ما يعرف بالجرائم المنظمة. حتى اصبح عالم الجريمة محوراً للعديد من الأعمال السينمائية والأدبية وحيكت حولها الكثير من الحكايات والأساطير..

والجدير ذكره في عالم المافيات هو تلازم مفاهيم الرجولة مع العنف القاتل، فبالنسبة لافراد جماعة المافيات: لأن تقتل هو المقياس لأنْ تكون رجلا وبطلا،

(to kill is a measure of their manhood) وليست كل انواع القتل لها نفس التقدير على المقياس- العرف، ذلك انه بقدر ما يكون عنفك مرعبا للغاية على الضحية بقدر ما يعني بأن لديك ميزات جيدة في القتل. لدى هذه الجماعة بعض القتل العنيف يحدث لتكريس اعراف وللحفاظ على كينونة الجماعة واستمرارها، فأذا قام احد الاعضاء مثلا بأعطاء بعض المعلومات لرجال الامن والاستخبارات، فأن حياة هذا العضو قد انتهت لانه خرق القسم السري المعمول به بينهم، وهو ما يعرف ب OMERTA' ، وأي اساءة او جرم بحق جماعة المافيا لا يتم التساهل به او مسامحة مرتكبه، لذا يعتبر التهديد والوعيد بالاعدام وسيلة خروج منها وليس شيئا آخرا.

على ضوء هذ المعطيات نفهم جماعة المافيا على انها جماعة مغلقة على اسرار واعمال غامضة كما ان افرادها لا يعرف بعضهم البعض الاخر كونها جماعة قائمة على علاقات سرية لها قواعد عمل غامضة ومهام دقيقة وخطوات محبوكة جيدا بأعتبار ان التنسيق الفعلي مطلوب واحتمالات الخلل مرفوضة لان حياة او موت الجماعة متعلق بهما، لذا يكون دائما الحذر سيد الموقف مجبرون كأفراد على التكتم في مهامتهم لدرجة قد يتم تعديل بعض الخطوات بين لحظة واخرى، او تبديل الاشخاص المكلفين، وتستدعي الحيطة ايضا في عالمهم تفرّق الافراد على جماعات اصغر مراقبون من قبل جماعة اخرى، ولا تكون العلاقة الا مع زعيم واحد وبدوره هذا الزعيم يتواصل مع زعيم اعلى منه لا يعرفه الا القليلون، حيث هو الذي يتولى اصدار الاوامر بالتنفيذ وبتحديد ساعة الصفر في العمليات. والغريب عند اداء المهمات في عالم المافيات ان الخطة - العملية تقسم الى اجزاء يخصص لكل جزء فريق او فرد. وعلى هذا المكلف ان لا يتجاوز حدود مهمته لان هناك من سيتابع عنه اكمال المهمة كي لا تفضح الاسرار او

الوجوه او تفشل المهمة من خلال مراقبة جهات امنية له، فيقفل الطريق عند هذا الجزء. في وقت يأخذ آخرون على عاتقهم اكمال المهمة بعيدا عن الشبهة. لهذا في تقليد عمل المافيات: يجب ان لا يقوم شخص واحد بكامل المهمة بكافة خطواتها تحسبا من ان يكون هناك عميلا مخترقا فلا يجب ان يعرف كل شئ.

على ذلك نخلص الى القول بأنه اذا كان القتل والعنف والجرائم هي ظواهر انحراف يتمادى بها بعض افراد المجتمع ولا بد من الحد منها ووقفها، فأنها بالنسبة لجماعة المافيات هو عمل بحد ذاته، فلا شئ لديها اسمه انحراف بل اي عمل فيه مصلحتها تتوسل اليه كافة الوسائل الممنوعة وغير القانونية كي تحصل عليه وليس بالضرورة ان يكون القتل السبيل الوحيد للجرائم بل ثمة وجوه أخرى لها: كتزوير التأشيرات وترويج بضاعة فاسدة وقرصنة حقوق ملكية وسحب ارصدة مصرفية..

3) الجماعة المدعوة بالدينية: الاخويات/ الداعيات

يمكن تصنيف الجماعات المختلفة لدى كل شعب اما كجماهير غير متجانسة (كجمهور الشارع/ الحشود الرياضية مثلا) واما كجماهير متجانسة (كالطوائف الدينية او الاقليات العرقية) ووفقا للتصنيف التالي تبرز الزمر كمثال واضح حيث يتبدى لنا الزمر العسكرية والزمر العمالية والزمرالدينية، فالزمرة تمثل اعلى درجات التنظيم التي يقدر عليها جمهور معين لتبدو عندها كجماعات قائمة بذاتها على شئ من التجانس التنظيمي والعملي وحتى الذهني، وفي حين ان الطائفة مثلا رغم انها مشكلّة من افراد ينتمون الى ثقافات ومهن واوساط متنافرة، الا انهم لا يترابطون فيما بينهم الا بواسطة اشتراكهم في العقائد، بينما لا تشمل الزمرة هنا الا افرادا من نفس المهنة وبالتالي من ذوي تربية متماثلة تقريبا وتوجه ديني

خاص كما هو الحال مع الاخويات وما يعرف بالداعيات والموجة الاصولية، فما الذي يميز هذه الجماعات من سلوك واتجاهات؟

3.أ- الاخويات: هو اسم يطلق على جماعة معينة من الناس الملتزمين تعاليم دينهم - وعلى نحو مخصوص نساء وفتيات(**)- تنادين معن لينضوين في نظام مخصص لأغراض هادفة: خيرية او مهنية او اجتماعية او دينية. وقد عرف هذا المصطلح قديما في الحضارات ما قبل المسيحية كجمعيات مؤلفة من اصحاب المصانع ومهن وبقيت مستمرة وصارت كل جمعية تجارية او مهنية مستقلة بأعضائها الى اسبغ ظهور الديانة االجديدة (المسيحية) بركة روح المحبة للاخرين وعمل الخير دون ان تكون فعليا بخدمة الكنسية ولهذا يمكن تسميتها بالاخويات اللادينية، عن تلك التي عرفت لآحقا بالاخويات الدينية وهي التنظيمات الاجتماعية التي تأسست في ظل الاديان بظروف مختلفة ويجمع اعضائها الايمان والتقوى والتكافل الاجتماعي. الا ان هذا المفهوم درج استعمالا ليشير الى مؤسسة دينية تعود ادارتها والاشراف عليها الى كنسية (محددة) وكاهنها، هدفها المبدئي ممارسة نشاطات التقوية وهي تشكل بكيانها اطارا للتدامج والتبادل الاجتماعي. ولعل الصورة التي تقدمها الاخويات (وخاصة الدينية المسيحية) عن نفسها هي: حركة حياة للذين يريدون ان يعيشوا حياة دينية / مسيحية حقيقية عبر التعمق بتعاليم الديانة المسيحية والسعي لتحقيق العدالة الاجتماعية [6] الا ان الاخوية وكصورة عما هو كائن ليست حركة ذات نشاط ديني مخصوص بل اتسعت في نشاطاتها لتمارس امور طقسية ورعوية واجتماعية تؤمن الترابط والتواصل لاعضائها من خلال اللقاءات والاجتماعات الدورية، وتقسم الاخويات المسيحية الى قسمين:

I. الاخويات الدينية التي تتخذ احد القديسين شفيعا لها ، تقوم بأعمال تقوية

من الصلاة والتضرع الى الله وقديسها من اجل السلام ورفع الاخطار كما انها تتولى اعمال خيرية من مساعدة مرضى ومد العون للفقراء والعاطلين عن العمل

II. الاخويات المريمية وهي جماعة اتحدت لتمجد السيدة مريم العذراء ، نشأت بداية كحركة دينية ثم ثبتها البابوات بعدما تتخذ اسما محددا لها من القاب السيدة العذراء : الام الحزينة/ سيدة الانتقال/ سيدة الوردية / سيدة البشارة ..ولتعمل وفق دستورا رسوليا اصدره البابا بيوس في 27 ايلول 1948 يعلن فيه ان على الاخويات القيام بكل الاعمال الرسولية ولدى كافة فئات المجتمع وخاصة الشباب بتشجيعهم على اعتناق حياة مسيحية اعمق ولدى الفقراء بمساعدتهم ماديا وروحيا.

وفي دراسة متخصصة لواقع الاخويات بينت دراسة سوسيولوجية ميدانية (7) ان لدى الاخويات كيان اداري تراتبي منظم، فالنقاط القانونية للاخويات تتوزع بين:

أ) ادارة (من رئيس ونائب رئيس ونائبه وامين سر وامين مالي ووكيل للثقافة الدينية ووكيل رسالة)

ب) اعضاء (حيث يشترط في العضوية التزام بعد مرور المنتسب في رتبة الطالبين ورتبة التكريس)

ج) ونظام داخلي يسيّر طرق عملها من اجتماعات اسبوعية يصلون الفرض معا، ومرة في الشهر ليحتفلون بقداس مشترك، ومرة في السنة ليحييون رياضة روحية مقفلة خاصة بهم وحدهم ،

د) الارشاد حيث مرجع الاخوية في كل ابرشية مطرانها وفي كل رعية

خوريهـا بصفتـه مرشـدا لهـا، يحـضر اجتماعاتهـا ويـشرف عـلى اعمالهـا وتأخـذ الاخويـة برأيـه في شـتى نشـاطاتها

هـ) الرمز اذ تعتمد كل اخوية رمزا خاصا بها وهو عبارة عن ايقونة لشفيعها تعلق بدبوس على الصدر بالاضافة الى بيرق من القماش يستعمل في الاحتفالات الدينية والمآتم

و) فرض الاخوية: وهو صلاة خاصة تحوي ترانيم وتراتيل وطلبات من القديس - الشفيع يتلى كل اسبوع اثناء القداس الذي يقيمه المرشد للاعضاء.

كما تبين طغيان العنصر النسائي بشكل واضح على عمل الاخويات وخاصة اللواتي لا يعملن او ممن تقدمن بالعمر حيث يرغبن المشاركة بنشاط اجتماعي او ديني ولا شئ يشغلنه فتتولين اعمال كنسية واجتماعية واحسانية واحتفالات مخصوصة بمناسبات دينية، ذلك لان المرأة وحسبما اشارت اكثر من دراسة تطلب دائما متنفسا خارج المنزل بصحبة الاخرين مخافة الوقوع في الوحدة والفراغ والتعطل. اما عن الاخويات الفتوية فهي اشبه بالحركة الكشفية الخاصة وانما لها طابع ديني - اجتماعي مسيحي (منها : فرسان العذراء والطلائع المريمية) تهتم بالاطفال وتربيهم تربية دينية ترتكز على تعاليم الانجيل ومبادئ الكنيسة وهي تشكل بكيانها أطارا للتدامج والتبادل الاجتماعي من خلال النشاطات الاجتماعية والترفيهية والرياضية التي تقوم بها. وبعكس الاخويات الخاصة بالكبار يُلاحظ للباحث طغيان العنصر الذكوري في الاخويات الفتية وانعدام وجود الاناث وانخفاض نسبة الطلاب الثانويين والجامعيين والمهنيين وارتفاع مع المراحل التعليمية الاولى .[8]

3.ب) الدعاة/ الداعيات: وهم جماعة ذات توجه ديني محض سواء كانوا ذكورا او اناثا نذروا انفسهم كأفراد او كمجموعات لنشر التعاليم الدينية الخاصة (وهنا نعني الاسلام تحديدا)، من الناحية الانثربولوجية يبرز هؤلاء كأطار فكري جامع يقوم على توحيد الافق الذهني للمنضوين تحت لوائه او الداعين له في انتماء و كيان واحد وهو ما يتم عادة من خلال نظام متكامل من الشعائر والمعتقدات الموجهة للسلوك والمواقف وتفاعلات قائمة بين اعضاء الجماعة في لغة ورموز وشعارات وطقوس ممارسة خاصة في المناسبات واللقاءات الدورية. يظهر الدعاة في المجتمع الاسلامي كحركة تصحيح (صحوة) او جماعة وعظ وارشاد بما هي فرض اخلاقي واجتماعي بأعتبار ان جوهر الاسلام هو الثورة على الواقع الاجتماعي المهترئ من الضعف السياسي والانحطاط الاخلاقي فينصب جل اهتمامهم في الدعوة على العودة الى اصول الدين وسنن الانبياء والخضوع للارادة الالهية ونشدان مثال اعلى ماورائي ذات مرجعية الهية وليس انسانية والتمسك بالمرجعية النقية التي كانت سائدة ايام نبيهم (محمد)، فالامة بنظرهم تتعرض لغزوات تغير من عقيدة ابنائها ورؤيتهم للدين والحياة وللخلق والخالق وللدنيا وللاخرة ولا بد ازاء هذا التخلي والتقصير في الالتزام سوى الدعوة الى معاني الحق في العقائد والصواب في الاراء والخير في الافعال عملا بقول نبيهم: «لا يصلح آخر هذه الامة الا بما صلح به اولها» (وما صلح اولها الا بكتاب الله وسنّة رسوله محمد (ص))

يُولد في بعض الجماعات الدعوية نوعا من العصبية حيث مشاعر الولاء والانتماء والانفة والكرامة بين اعضائها او تجاه قائدها، مما يعطيهم ذلك الاحساس بالقوة التي تتسامى على الانا الفردية حتى يصبح الكل وعلى مستوى النحن في حالة «مثلنة» للجماعة ترفعها الى مرتبة النقاء والتنزه عن الشوائب وحالة الامل

المرتجى تحقيقه من الصحوة في نشر الهداية بعد فوضى الضلال، وتتجلى حالة المثلنة هذه على مستويين :

I. اما على مستوى القيادة حيث يُرفع القائد - الموجه (المرشد) للجماعة الى مرتبة المثل الاعلى الخالص الايجابية والمنقى من الشوائب ليصبح - بما هو ممثل للعقيدة ومجسدا لها من ناحية نقائها- نموذجا يحتذى ويرغب الوصول اليه. انه بمعنى آخر الحلم المعبر عن تطلع الجماعة، و صاحب السلطة الذي يفرض غلبته المعنوية على كل الاعضاء ويدخلهم في طاعته وهكذا « فالقائد ليس شخص فوضت اليه الجماعة امر قيادتها بل هو الشخص الذي اسقطت الجماعة عليه اسطورتها واحلامها ومن رفعه الى مرتبة المثل الاعلى وفي مقابل التماهي تتعزز علاقة التبعية والانقياد شبه المطلق لسلطته» [9]

II. اما على مستوى الاعضاء فتقوم بينهم حالة من التماهي المتبادل حيث يصبح كل منهم مرآة الاخر من هنا تتعزز ذاتية العضو بمقدار تدعيم هذا التماهي المتبادل فيما بينهم من جهة وبينهم وبين القائد من جهة اخرى حتى يتولد عن ذلك حالة من ذوبان الذاتية في النحن المثالية، ويصبحوا جمعيا أخوة في الله (لهذا يكثر بينهم تعبير الاخ بالنسبة للشاب والاخت بالنسبة للفتيات عملا بقول الاية الكريمة: "انما المؤمنون اخوة"..) وعلى ذلك لا تكون الاخوة فقط في الدم او النسب انما يمكن ان تتعداها الى العقيدة كشكل من اشكال العصبة في صورة التآزر والتساند والتعاون.

تنشط الجماعة الدينية سواء كانت أخوية او كدعوية كرد فعل على تشاؤم مصيري منتشر بين ابناء الرعية او الاخوة، فتخرج الى العلن عبر حركة عملها

كعلاج شافي لحالة الاحساس بالقهر والغبن او فقدان السيطرة على المصير، فتطل كطريق خلاص في حالة وجودها ككينونة (للاعضاء فيما بينهم) وفي حالة عملها (بالسعي نحو الاخر المقلق من فقدان المعنى) عبر استعادة ايمانية باليقينيات التي انهارت وبالعودة الى صحيح الدين وصولا الى حالة نقاء الهوية. لان الدين برأي هؤلاء هو السبيل الذي يؤدي الى حالة من سلام النفس والتخفيف من التوتر، انه « الحصن الحصين» او الملاذ الذي يحول دون التدهور القيمي والاجتماعي وحتى الجسدي، بل هو الدعم الاجتماعي الذي توفره اماكن العبادة وحلقات الوعظ والعمل الخيري، اذ «تبين ان المترددين على مراكز العبادة بأنتظام، والمنضمين الى عمل خيري/ ديني والمتابعين حضور المناسبات الدينية غالبا هم اناس اقل عصابية وذوو نفسية ايجابية لما يتمتعون به من شعور بالرضا عن الذات بفعل الايمان» [10]

الجماعة المدعوة شبابية: الكشافة

إن حديثنا عن الكشافة كجماعة ينطلق من اعتبار التفاعلات التي تتسم بها حيث تنطبق عليها عدة مفاهيم للجماعة تصاغ على صورة الأسئلة التالية :

- في ضوء المدركات هل المنتسبون للكشافة لديهم إدراك جماعي بوحدتهم وقدرتهم على العمل معًا؟
- في ضوء الدافعية: هل تحقق هذه الجماعة- الكشفية إشباعا لحاجات المنضووين اليها ؟
- في ضوء الأهداف: هل يحقق بدورها أهدافا مشتركة؟
- في ضوء التنظيم: هل تشكل الكشافة نسقًا يجمع وينظم ؟
- في ضوء الاعتماد المتبادل: هل يشعر الكشفيون بأنهم يواجهون مصيراً

مشتركًا، وأنهم في حاجة إلى بعضهم البعض؟

- في ضوء التفاعل: هل يتفاعلون بعضهم مع بعض؟ بمعنى إذا ما أثرت حادثة على واحد من الأعضاء هل يقوى احتمال تأثيرها على الكل؟

إن الإجابة عن كل التساؤلات السابقة، تجعلنا نتناول الحركة الكشفية كجماعة ذات دينامية، لأن كثيراً من الدراسات أثبتت أن في مرحلتي الطفولة والمراهقة هناك حاجة أو رغبة من الأولاد في الانضمام إلى جماعة بل أن كثيراً من الأهل والمربين يشجعون الأولاد على الانخراط في عمل تعاوني لما يقدم ذلك من فائدة على صعيد: تنمية حس المسؤولية لديهم، تشجيع على مبدأ الاستقلالية وتنمية الفردية بعيداً عن الاتكالية، تعزيز الميل نحو القيادة وطرق التقدير والاعتراف الاجتماعي، أي أن القيمون على تنشئة الاولاد يدركون المعنى الدينامي الهام من الانتماء إلى أي جماعة والغاية النفسية والبذنية المهمة لابنائهما، كمحاولة حث ودفع على إشباع حاجاتهم وتحقيق أهدافهم، من هنا تعتبر الكشّافة اهم حركة طوعية غير سياسية مفتوحة للفتيات والفتيان معًا تهدف إلى مساعدتهم على النمو بدنيًا وعقليًا واجتماعيًا ودينيًا، فمن الخصائص التي تقدمها الكشفية:

✓ على الجانب الجسمي

- تطوير تدريجي للأداء الهادف بمختلف الجوانب الحركية
- تحسين معالم السلوك الحركي

✓ على الجانب الادراكي

- تنمية سبل الإدراك حيث يستطيع إدراك الأشياء حسيا، و عقليا وتكوين العلاقات القائمة بين الأشياء .
- تنمية الانتباه: يستطيع أن يركز انتباهه حول عدد من الموضوعات البسيطة السهلة.

- تنمية التذكر : تنمى لديه ذاكرة قوية فيسهل عليه استرجاع وتذكر الأشياء ويميل لحفظ الشياء.
- تنمية التفكير: بشكل واقعي بعيداً عن الخيال .

✓ الجانب الانفعالي

- يميل إلى حب الانتماء لجماعة ويكون الولاء لجماعة الأصدقاء أكثر من الولاء للكبار.
- يميل إلى أن يكون قائدا في الجماعة التي ينتمي إليها وأن يكون محبوبا بينهم ومسيطرا عليه
- يميل إلى معرفة الصواب والخطأ ونيل رضا الآخرين
- يميل إلى حب المغامرة والنشاط الاجتماعي وفهم الفروق الفردية بين أقرانه
- يميل إلى اللعب في جماعات كبيرة خارج المنزل عبر تنمية روح التنافس والتعاون

✓ الجانب الاجتماعي

- يهتم بالتعرف على القيم والمعتقدات الدينية التي تجعله مقبولا اجتماعيا
- يهتم بالوطن ويعتز به.
- الميل إلى التحرر من المنزل والانتماء إلى المجموعة ومسايرتها
- التحول عن الوالدين وسلطتها، ومقاومة أي سلطة / الأسرة ، المدرسة/ نحو تأكيد الذات
- الشعور بالمسؤولية لمساعدة الآخرين ومحاولة الحصول على مكانه في الجماعة ورضاها عنه.
- النقد والرغبة في الإصلاح

- حب الزعامة
- معرفة الفروق الفردية في فترة النضج (اختلاف الاهتمامات بين البنين والبنات.)
- الاهتمام بالحيوانات الأليفة

لهذا تعتبر الحركة الكشفية اطارا جماعيا مكمّلا للمدرسة والأسرة لما يلتزم فيه الكشاف شخصيًا بمبادئ تربوية في الحياة، كواجبه نحو الله ثم الوطن وواجبه نحو الآخرين وواجبه نحو نفسه. كما انه يتعلم عن طريق العمل في برامج التثقيف الذاتي تنمية نزعة القيادة والمهارات الجماعية والمسؤولية الفردية. وكثير من هذه الأنشطة تجعلهم على اتصال بالحياة. فيتعلمون كيف تجتمع البساطة مع الإبداع وحب الاكتشاف ورفع روح المغامرة والتحدي. فضلا عن قضايا مهمة يتولاها الكشافة خلال نشاطاتهم وانخراطهم في العمل الكشفي من المشاركة في برامج الصحة والتحصين وزراعة الأشجار وإنتاج الغذاء ومساعدة المسنين والمعاقين ومحاربة تعاطي المخدرات. ويشترك الكشافة في برامج حماية البيئة ومحو الأمية وتدريس المهارات الوظيفية ومساعدة الأطفال. كما يساعد الكشافة في أعمال الإغاثة لضحايا الفيضانات والجفاف والزلازل والكوارث الطبيعية الأخرى. انطلاقا من المبادئ التي وضعها مؤسسها الاول روبرت بادن باول، وتعرف بالتعهد والقانون الأصلي للكشاف وفحواه:

أتعهد أن أفعل ما بوسعي لكي:

أؤدي واجبي نحو الله ثم الوطن و أساعد الآخرين في كل الأوقات و أطيع قانون الكشافة.

والقانون الأصلي يشمل:

1 ـ يجب احترام شرف الكشاف

2 ـ الكشاف مخلص

3 ـ على الكشاف أن يكون مفيدًا وأن يساعد الآخرين

4 ـ الكشاف صديق الجميع وأخ لكل كشاف آخر

5 ـ الكشاف كيِّس

6 ـ الكشاف محب للحيوانات رؤوف بها

7 ـ يطيع الكشاف الأوامر الصادرة من والديه أو من قائد الكشافة أو من رئيس الكشافة دون جدال

8 ـ يقابل الصعوبات بوجه باش

9 ـ الكشاف مقتصد

10 ـ الكشاف سامٍ في تفكيره وقوله وعمله.

يبدأ نشاط الحركة الكشفية بصفة عامة فيما بين سن الخامسة والسابعة تقريباً ببرامج أشبال الكشافة ويستمر الأعضاء في التدرج عبر مجموعات مختلفة التسمية من الكشافة والمغامرين والمتجولين إلى سن 25 عامًا أو أكثر. ولكل بلد برامج مختلفة من الأنشطة والمؤهلات. يختار الكشافة أنشطة معينة من البرنامج

ويتدربون وفقًا لسرعتهم الخاصة، ويتميزون بشارات على جدارتهم في المهام والمهارات التي يتولونها،

الا ان الغاية الاهم من تمأسسها هو علاقتها وارتباطها بالبرنامج التربوي لكي تعد النشء وتهيّئه بوسائل جذابة ليكون مواطناً مستنيراً قادراً الاعتماد على نفسه ويكون اكثر نفعاً لغيره ومتأهباً لوطنه " أن جدَ الجْد" ولقد كانت هذه الحركة ولاتزال في مضمونها التربوي ولاجتماعي تمثل طريقة نافعة تعتمد على مجموعة من الناس اختاروا لانفسهم أن يقوموا بدور معين في الحياة إلا وهو الخدمة العامة في مختلف مجالاتها وصورها بدءً بخدمة المواطنين والعناية بالنفس وانتهاء بالرقي الحضاري الخاص بالبيئة والمجتمع على المستوى القومي والإنساني كما أنها حركة تربوية تعد النشء لحياة افضل مستمداً ذلك من الوعد والقانون وتهدف إلى المساعدة على نموه الطبيعي وتمكنه من خدمة وطنه ومجتمعه خدمه مبنية على التجربة والمعرفة والإيمان وتدعيم خلقه وشخصيته وقدرته على التحمل وزيادة الثقة في قدراته والاعتماد على النفس وتنمية الرغبة والاستعداد لخدمة الغير.

إن ما جاءت به هذه الحركة منذ مبادئ مستلهمة من العادات والتقاليد ومن تعاليم الأديان السماوية ومبدأ التضامن الاجتماعي والعمل ومساعدة الغير إنما هو لتعزيز وتكوين الشخصية الاجتماعية المتفهمة لمسؤولياتها الإنسانية والوطنية بصفتها طريقة للحياة المنظمة والفاعلة التي تدعم القيم والنظام وروح العمل في حياة النشء الجديد وجعله اكثر حيوية والتزاماً في تأدية الواجبات المطلوبة بما يجعلهم اكثر مسؤولية واعمق شعوراً بحب العمل والطبيعة. ويتولى المعنيون بالنشاط الكشفي الالمام فعليا بالغاية الهامة التي تقدمها الكشفية حيث مفهومها قد تغير من كونها حركة لملئ أوقات الفراغ إلى أداة أصبح استخدامها واجباً

لاكتشاف المواهب والقدرات ثم صقل هذه المواهب وتلك القدرات لتنمية شخصية الفرد ليسهم في بناء المجتمع. ويمكن إسهام الحركة الكشفية في حملات العمل الشعبي لتنظيف الأحياء أو الإسهام في بناء المدارس أو في حملات التشجير أو في حملات التوعية المروية، وأيضا بالإمكان إشراك الكشافين في استقبال الضيوف الرسميين وعلى مستوى الدول لما لهذه الحركة من أهمية وكوسيلة فعالة في إيجاد قنوات اتصال بين الجمعيات والمؤسسات والهيئات والجمهور.

***في الاستنتاج:**

وهكذا يمكن فهم أيّة جماعة – سواء كانت منظمة او غير منظمة- على انها بمثابة تركيب اجتماعي، فالبناء الاجتماعي هو الآلية التي يبنى عليها مجموعة من الافراد علاقاتهم التواصلية المتوقعة، قد لا تتخذ هذه العلاقات صفة الاندماج الفعلي بالضرورة ولا التشارك اليومي وانما قد تكون على نحو متصور ايضا كما بحثها رواد علم النفس والاجتماع الذين قاموا بتجارب حقلية لدرس آلية التفاعل ومدى تأثير الانفراد على القيم الجماعية التي كان يعيشونها وفجأة أصبحوا خارجها، وهذا حال أية جماعة تنشأ فأن افرادها يحاولون اعادة بناء الواقع ليجسدونه وفق تصوراتهم الجديدة او فهمهم للتجارب التي سيمرون بها. ا وفق ما سنبيه بمثال وتجربة :

المثال: زمرة out law bikers راكبو الدراجات النارية، الذين يعيشون حياة قوامها البساطة والمرح والاثارة وقد يصل بهم الامر الى حد اعتماد أساليب عنف ضد من يناؤنهم او ينافسهم من جماعات اخرى في المجتمع. كيف تتركب هذه الزمرة؟ هذا ما حاول السوسيولوجي الامريكي mark Watson (1988) ان يدرسه من خلال ظاهرة البيكرز كباحث ملاحظ مشارك على الطبيعة، فأنضم

الى نادي **HARLYES**، حتى تسنى له مرافقتهم الى الاماكن والحانات التي يترددون اليها، ذهب وأياهم في جولات سفر طويلة. فوجد بأن هؤلاء ينظرون الى المجتمع والعالم من حولهم نظرة استعدائية: فهم يعتبرون الاخرين شريرين وضعفاء ومخثنون.. وبأنهم غير مرغوب فيهم من قبل الجماعات الاخرى، لهذا يتخذون العبثية اسلوب حياة كأن يعيشوا من اجل المرح والاستمتاع ويتصرفون بفوضوية ويتوسلون النساء لخدمات جنسية فقط لا غير. كذلك يعتبرون انفسهم "خاسرون" بل لا شئ لديهم كي يخسروه وهذا ما يهيأ لديهم لان يكون زمرة منحرفة.

وقد تتخذ الحركة الاجتماعية في الاجتماع والتنظيم صورة " الجماعة داخل جماعة" وقد يكون مظهر هذه الجماعة على شئ من الاجلال والتقدير بنظر الجماعة - المجتمع الذي تنضوي في كنفه وقد ينظر الى بعضها بشئ من الاستغراب والاستنكار نظرا لما تقوم به من اعمال غير مرغوبة. مما يعني ذلك وجود زمر ذات سمعة طيبة وزمر نقيض ذلك. كحال الزمر التي تنشأ في اوساط الطلبة وتلامذة الثانويات حيث توقف باحثون في السوسيولوجيا لدراسة اثر الزمرة وطبيعة توجهاتها، فوجدوا تكوّن العديد منها تبعا لاختلاف الاهتمامات والاهواء الا انه يمكن تنميط هذه الزمر في فئتي: جماعة الاعمال الممجوجة (roughtnecks) وجماعة الاعمال الطيبة (saints) ولوحظ ان من سمات الفئة الاولى: المشاغبة والاستهتار والتخريب وافرادها رواد الاضطرابات التي تحدث في الكلية، فيما سمات الفئة الثانية: الجدية، النشاط الاجتماعي البناء والتصرفات الهادئة والمتزنة. وقد رغب بعض الباحثون في علم الاجتماع متابعة افراد كلا الفئتين في الحياة اليومية وبعد التخرج من الجامعة فوجدوا ان واحدا على الاقل من زمرة الشغب تحول الى عصابات سلب ونهب واعتقل للتحقيق مع الشرطة

في قضايا جنح او جناية. بينما لم يحدث مثل هذه الامر مع افراد الزمرة الثانية، فإلم يعود السبب في الاختلاف بين كلا الزمرتين؟ بالدراسة والبحث تبين ان ذلك يعود الى البيئة الاجتماعية التي منها الطلاب اصلا، والمستوى الاجتماعي الذي يعيشونه في اسرهم والذي غالبا ما يترك اثره على تصرفات الاولاد وتوقعاتهم وردود افعالهم ازاء تصرفات الآخرين.. فالطلاب الذين يتصرفون بكل احترام واتزان قادمون من طبقات اجتماعية وسطى وهم ابناء عائلات مستقرة، بينما الطلاب الاخرون الذين يظهر عليهم العدوانية فهم ابناء عائلات مفككة تشهد اضطرابا اسريا على الدوام وغالبا ما تكون هي الطبقات الاجتماعية الدنيا او غير العاملة. مثل هذه المعطيات تؤشر الى اهمية الحلقة الاسرية واهميتها في التنشئة ودورها في التوقعات المستقبلية للابناء لجهة بروز الانحرافات او عدمها. الا ان الشئ الاهم الذي يمكن استنتاجه من تكوّن هذه الزمر وتوّجهها العملي سواء في الجامعة او خارجها هو "طبيعة هذه الزمرة وهويتها" فالانضمام الى احداها قد يكون وراء فرص الحياة المستحقة أو الضائعة وكأنها تخوّل من ينضم اليها "تأشيرة مرور" الى العالم الخارجي عبر سمات خاصة يحملها من هذه الزمرة أو تلك وعليه يبنى نجاح الافراد في المجتمع أو فشلهم.

على ذلك تتعدد اشكال الحركات الاجتماعية وانواعها واحجامها ومجالات انتشارها وفيما تستطيع بعض هذه الجماعات ان تزاول نشاطها في ظل القوانين السائدة في دولة واكثر فأن بعضها يضطر للعمل بصورة سرية ومن الخصائص التي تميز اغلب الجماعات المنظمة قدرتها على النشاط في الهامش الذي تسمع به "الحكومة كسلطة" من الوجهة القانونية بالنشاط فيه في اماكن واوقات معينة داخل البلاد.. وكثيرا ما تنشأ الجماعات كحركة اجتماعية بغرض تحقيق التغير

حول قضية عامة مثال التوسع في الحقوق المدنية لاحدى شرائح السكان، لفت الانظار الى الاخطار البيئية وغيرها من الانشطة التي من شأن اثارتها تغيير الساسيات وبالمقابل هناك منها ما يقوم بحركات مضادة في عدة مجالات اما لمصالح آنية واما استنكاراً لتشريعات قد تقر كحركة الجماعات الدينية ضد اباحة الاجهاض والموت الرحيم وزواج المثليين.

ثالثاً: الاتجاهات النفسية والاجتماعية عند الجماعات غير المنظمة

يعتقد كثيرون ان عالمنا الاجتماعي مجال يسهل فيه تحقيق حلم الفرص الضائعة، الا انهم لا يدركون بأن الامر لا يخلو من متاعب ومشقات في اثبات الوجود والذات، فالبشر - وخاصة في حاضرة المدن- خليط معقد من الاهواء، انهم بمثابة كائنات غير محدودة التحرك ومعروفة الانتماء، وفي خضم هذا العالم نحن بحاجة الى تأمين الغذاء والامان والصحة والعمل ولكن الأهم من ذلك هو: من نحن؟ ينتابنا احيانا نزوع نحو من نريد ان نكونه في وجودنا الاجتماعي المتحرك، وهذا النزوع يلازمه أولا بدٌّ من عمليات تكيف مع الواقع الجديد اي الشعور بالانتماء (we-belong)، وهو الاحساس نفسه الذي يعني اهتمام الاخرين لما يحدث لنا وبالتالي اهتمامنا لما يحدث من حولنا، بعض القادمين الى المدينة من مجتمعات اولية بسيطة يجدون مثل هذا الشعور ممكنا ولا بد منه للاستمرار بالحياة الجماعية ولكنهم يصطدمون بواقع اجتماعي مغاير لما ألفوه مع وجود أناس لا يرغبون المخالطة والمشاركة وانما يفضلون العزلة وعدم الانتماء.

ان العالم الاجتماعي بحد ذاته ليس مجرد موزاييك من الناس المختلفين أو الغرباء عن بعضهم البعض حيث لا تواصل فيما بينهم الا نادرا او لما فيه مصلحة أحدهم لغاية عمل او سكن او دراسة، وانما هو ايضا عبارة عن «عوالم صغيرة»

حيث يجد بعضهم مناخه الاجتماعي الملائم والمريح له، فيتلاقون وينشّدون اليه ليصبح مع الوقت «مجتمعهم المصغر» الذي يشعرهم بالآمان والمشاركة والتواصل، هذه المجتمعات المصغرة قد تتواجد في احياء معينة من اجل دراسة (ظاهرة طلاب الريف) او لأجل العمل (العمال الوافدون) او لغايات اخرى تترامى في عالم المدينة كجماعات موجودة فعلا ولكنها غير منظمة على نحو ما سنعرف ببعضها:

1) اتجاهات طلاب الريف في المدينة: تناذر العادات والسلوك

يختلف سلوك الفرد بإختلاف المكان المحيط به، فالفرد في المدينة تختلف إستجاباته عما لو كان في قرية أو منطقة جبلية، وسيختلف في سماته لو كان يعيش في مكان معزول أو منزل خاص عما لو كان يعيش في عمارة آهلة بالسكان أو في منطقة مزدحمة. فالضغط الديموغرافي وخاصة في المناطق الشعبية يؤدي إلى تدهور السلوك الإنساني السوي وإنهيار النظام الإجتماعي ويساعد على إنتشار الجريمة والأمراض الجسمية والإضطرابات السلوكية والنفسية. وتختلف إستجابات الأفراد لظاهرة الإزدحام أشكالاً متعددة منها: التوتر الفيزيولوجي (إرتفاع ضغط الدم وزيادة ضربات القلب وسرعتها وانهيار الأعصاب وإضطراب السلوك)، الهروب من المكان وتركه إذا كان بمقدور أحدهم أو التكيف مع الموقف ومحاولة مواجهة الإحباط الذي يثيره الإزدحام. وهناك ثلاثة عوامل توضح مدى إستجابة الفرد لظاهرة الحياة المدينية الصاخبة والتكيف معها:

1) نوع الأشخاص الذي يتعامل واياهم في المجتمع المديني: فالناس يتقبلون

التعامـل فيـما بينهـم إذا كانـوا مـن الأصدقـاء في حفـل مـا أو مـكان عـام، ولكـن الصـورة تختلـف حينـما لا يعـرف احدهـم الاخـر

2) طبيعة النشاط او الموقف السائد: فنحن نشعر بالضيق إذا كان الزحام يؤثر في راحتنا الشخصية، كالزحام أمام شباك قطع التذاكر أو الوقوف في صف انتظار، ولكننا نقبل الزحام إذا كان لايؤثر في راحتنا كمشاهدة فيلم سينمائي في صالة محتشدة بالجمهور أو عند حضور إحدى الحفلات الشعبية أو مشاهدة مباراة كرة قدم في ملعب رياضي.

3) مدى التقبل النفسي والتكيف الاجتماعي : فعلى الرغم من أننا لا نستمتع بركوب قطار أو أتوبيس مزدحم بالركاب، فإننا ندرّب أنفسنا على تجاهل الضيق وتحمل الموقف، تخيل أنك في مدينة ضخمة وتقف على محطة المترو منتظرا قدوم الحافلة لتنقلك إلى مكان ما وفجأة وعلى مقربة منك يسقط على الأرض رجل غير معروف لك فهل تهرع لمساعدته؟ للإجابة على هذا السؤال قام باحثان نفسيان بتنفيذ تجربة واقعية كان الهدف منها هو التحقق من كيفية استجابة الناس في المدن للغرباء في مواقف الشدة، ولكي يتحققا من ذلك فعلاً قاما بتدريب شخص تحيط برجليه ضمادة من الجبس على عكازين وطلبا منه أن يقع على الأرض لستين مرة في أماكن متفرقة بإحدى محطات المترو في مدينة نيويورك وقد كانت النتيجة ايجابية اذ هرع الناس لنجدة هذا الشخص حوالي خمسين مرة من المرات التي سقط فيها الشخص على الأرض أي أن الشدة تقابل بالنجدة بنسبة (83 %) في مثل هذه المواقف. لكن التجربة لم تنته عند هذا الحد حيث أراد الباحثان أن يعرفا ما إذا كان الميل للنجدة أو الإغاثة أمراً تحكمه ظروف المكان المحيط. ولهذا تكررت التجربة في مطار جوي بإحدى غرف الإنتظار فانخفضت نسبة الإغاثة إذ لم يتقدم الناس لمساعدة

الرجل الساقط إلا 25 مرة ، أي أن نسبة الإغاثة والمساعدة في المطار بلغت (41 %) فقط . فما هي الأسباب التي تفسر لنا هذا الاختلاف في إنقاذ الملهوف من موقف إلى آخر، أيكون الفرق في نوع الناس في المطارات أو محطة الأتوبيسات؟

تشير التحليلات أن الناس الذين يركبون الأتوبيسات هم إجمالاً من بيئات فقيرة وربما تكون قادمة من اوساط ريفية لا زالت تقيم للمروءة وزناً، ولهذا فهم يعرفون معنى الألم والمعاناة وبالتالي يقدرون معنى المساعدة والإغاثة حتى ولو تجاه انسان غريب؟ هذا ما اعتقده الباحثان في البداية لهذا قاما بأستجواب الأشخاص الذين هرعوا لإغاثة العاجز لكي يتحققا من الأسباب التي دفعتهم لذلك، فتبين أن الفروق ترجع إلى الألفة بالمكان، الناس الذين يأخذون المترو يأخذونه باستمرار ويشعرون بالاطمئنان في الموقف حتى ولو كان المكان مزدحماً وقذراً وصاخباً، بينما في المطارات تكون الناس في موقف جديد غير مألوف، مشغولون أساساً بالبحث عن سلامتهم وجداول الوصول والرحيل وتسليم أشياء وتسلم أشياء أخرى وهذا حال شارع المدينة.

وهكذا نستنتج ان الآثار السلوكية والإضطرابات النفسية للحياة في المدينة محكومة بسياق نفس- اجتماعي حيث يدفعنا اضطرارنا للتعامل مع كثير من الأنماط البشرية التي لا تربطنا بها صلات مودة بل إحساس بالاغتراب وعدم الاكتراث، فالتوتر الناتج عن الاضطرار للتعامل مع كثير من الناس والدخول معهم في علاقات غير ضرورية وغير مستحبة تدفع الشخص إلى أن يقيم مسافات نفسية بينه وبين الآخرين وهذا هو الاغتراب. ولهذا يشعر الإنسان في السياق الاغترابي بأنه مجهول، وعليه يمكن تفسير ما كان يستحيل على المرء فعله في

الأوساط التي يعرفه فيها الآخرين ويفعله دون تردد في أوساط لا يعرفه فيها احد. (فالشاب القاطن مثلا في قريته قد لا يقوم بأعمال منافية للاخلاق بأعتبار ان الجميع يعرفه ويعيبه اذا افتضح امره، ولكن عندما ينتقل الى المدينة أو الى عالم الاغتراب، تختلف القيم عليه ويتحسس أهمية الحاجة الى المال نظرا لأمكانيات الانفاق المفروضة عليه، وعندما لا يستطيع تأمينها أما أن تتحول أفكاره الى الرثاء على ذاته أو الى الحقد والغيرة فيتوّلد في نفسه الغبن والقهر وقد يقوده ذلك الى الانحراف كأن يسرق أو يسطو على مخزن، وفي حال توفر لديه المال فأنه سيغامر بفرص امتاع ولهو لم تكن ليقوم في قريته..)

ولكن هل من الصعب تكوين الأصدقاء في المدن المزدحمة عنه في المناطق الريفية غير المأهولة خاصة لشخص ينتقل من بيئة ريفية إلى مدينة كبيرة؟ أحد علماء علم النفس البيئي أراد التحقق من ذلك تجريبياً فقام بتوجيه أسئلة لمجموعتين من الطلاب إحداهما في جامعة خاصة بمدينة كبرى والمجموعة الأخرى في جامعة تقع في منطقة ريفية لا يزيد سكانها عن 000، 31 نسمة، وقد تساوت المجموعتان في عدد من الخصائص مثل الجنس والعمر وخبرات التعرض للحياة في المدينة أو الريف من قبل فضلاً عن ميدان الدراسة وتم لقاء المجموعتين في البداية كل فرد على حده خلال الشهرين الأوليين من الالتحاق بالجامعة. وقد وجهت مجموعة من الأسئلة لكل واحد منهم على انفراد لمعرفة عدد الأصدقاء لكل فرد، فتبين أن لدى الطلاب القادمين من المناطق الريفية عدداً أكبر من الأصدقاء يزيد مقدار الضعف بالمقارنة مع طلاب المدينة، ومن حيث الفروق الأخرى تبين أن طلاب المدينة يتوقعون صعوبات أكبر مما يتوقع الطلاب في الأرياف في تكوين الأصدقاء بسرعة وذلك لأسباب منها: الخوف من الغرباء والشك وعدم الثقة عند لقاء أشخاص غرباء في مدينة كبيرة، ومما

يؤكد ذلك أن الباحث سأل مجموعتي المدينة والريف عن أهم مشكلات الحياة في البيئة الاجتماعية الجامعية الجديدة فوجد أن الطلاب في الجامعة المدينية قد عبروا عن مشكلات تتعلق بالأمن، أما الطلاب في الجامعة الريفية فقد عبروا عن مشكلات تتعلق بالعجز عن تنظيم جدول للمذاكرة بسبب الزيارات والاحتكاكات غير المتوقعة .ومن الجوانب الإيجابية للحياة في المدينة كما كشفت عنها إجابات طلاب الجامعة هي اكتسابهم خبرات أوسع نتيجة لتعرضهم واحتكاكهم بأنماط بشرية متنوعة ومختلفة،

يبدو ان آثار الحياة في المدينة تتعدى ظاهرة الازدحام والتكدس والاعمال المغرية التي غالبا ما تجذب الناس إليها بسبب ما تتيح لهم ظروف حياتها من تطور ثقافي واقتصادي وعلمي الى ما عداه من مآثر، اخصها تلك المتعلقة بعلاقات الصحبة والالتزامات الاجتماعية وغيرها من المسائل القيمية التي يواجهها القادم الى العالم المديني من اختلاف او اختزال للعلاقات الاجتماعية التي تبدو غير ودودة وسريعة الوتيرة كطبيعة الحياة الصاخبة. ولأستبيان ظاهرة الشباب الريفي في جامعات المدينة قدم الباحث الاجتماعي غسان خالد (الجامعة اللبنانية/ 2011) دراسته عن: «شباب الريف الجامعي» التي اضاء فيها على شريحة واسعة من شباب لبنان الشمالي الذين يفدون المدن وأخصّها مدينة طرابلس اللبنانية للتعلم في صروحها الاكاديمية المتعددة، مستطلعا سبل اندراج هذا الطالب الريفي وتفاعله في ألوان الحياة والنشاطات التي تستجدّ عليه وهو يغذّ السير قدماً في طلب العلم من القرية إلى المدينة ومن المدرسة إلى الجامعة، وما يعلق بهذه المسيرة الشبابية من تدرج في تكوين المفاهيم وبناء الثقافات وإقامة العلاقات وتطوير بنى الذات. وقد عني الباحث بكيفية إقامة الشباب الجامعي في المدينة وعن سبل تواصلهم مع البيئة الثقافية والمدينية الجديدة، متوقفاً عند عينّة من هؤلاء الشباب الجامعيين

ذوي الأصول الريفية، متسائلا عن آلية الحياة التي يعيشون والتغيرات التي ترافق مواقفهم كجماعة ريفية في وسط جامعي ـ مديني، ثم ينتقل الى الاستفسار عن واقع الممارسة الدينية من جهة ووسائل التثقيف الديني من جهة أخرى. أضافة إلى ذلك تناول اوضاع مكان الاقامة، طرق التواصل مع الأهل، مسألة اختيار الرفاق من أين: من قريته او من أبناء المدينة، كيفية تمضية أوقات الفراغ وطبيعة الأحاديث ومحورها، علاقته بالأقرباء في المدينة، مدى التفرغ للدراسة ونوعية النشاطات الاجتماعية والترفيهية التي يمارسها واين هو من الضوابط الاجتماعية؟ فتبين من المعطيات:

- ان الدين بالنسبة لهم كان بمثابة ضابط اجتماعي يلتزمه شباب الريف الجامعي، فيعصمهم عن الانحرافات وحبائلها العديدة في الأوساط المدينية، لأن هؤلاء الشباب لا يتخلون عن التمسك بأخلاق القرية ولو في المدينة. وقد تجلى ذلك في شيوع الالتزام الديني. وأن معظم الطلاب يقومون بتأدية الصلوات في أوقاتها تقريباً. وأن الشباب هم أكثر التزاماً بالمثابرة على الصلاة من الإناث، كذلك تبيّن:
- أن الطلاب الذكور كانوا أكثر انغلاقاً في حين تبين ان الإناث أكثر انطلاقاً.
- هناك تقلص لمعالم السلطة الأبوية عند الذكور، بينما تظل الإناث معرضات لسلطة الأهل ولو بعيدا عنهم
- أن استخدام الانترنت يزيد من العزلة الاجتماعية ولو أنها بدت مفتوحة على البعيدين.
- أن الاندماج والاغتراب عرضة للتغييرات التي أحدثتها وسائل الاتصال وخصوصاً الانترنت، وأن المجتمع بعامة وشباب الريف الجامعي بخاصة إنما يعيشان مرحلة انتقالية [11]

إن هناك علاقة بين التعليم والحراك الإجتماعي، فالحراك الإجتماعي قد يكون رأسيا بمعنى الإنتقال من مستوى اجتماعي الى مستوى مختلف سواء الى أعلى أو الى أسفل، وقد يكون أفقيا بمعنى الإنتقال جغرافيا وفي هذه الحالة كان من الريف الى المدينة، ويظهر واضحا من فرضية: أن من يحصل على بعض التعليم ترتفع درجة احتمال تغييره لموقع عمله ولمكان اقامته ومع هذا التغيير يحدث:

1. تغير في بعض القيم، فالقيم والمعايير ركن أساسي من أركان النسق الثقافي، ولكل ثقافة قيمها ومعاييرها. ومع أن بعض القيم يشترك فيها الناس على اختلاف أماكن تواجدهم، إلا أن ثمة قيما أخرى تخص كل جماعة بشرية وتتميز بها عن غيرها من الجماعات. ولأن الثقافات تؤثر وتتأثر بغيرها فان القيم والمعايير كأحدى أركان الثقافة تتأثر بهذه الحركة فتتغير.

2. تداخل قيم الحداثة مع التقليدية، ويبدو في التغيير التقني الذي يحدث في الوسط الاجتماعي ونمط معيشة الأفراد. حيث يطال هذا التغير النسق الثقافي، حين يُقبل بعض أعضاء نفس المجتمع على القيم الجديدة المتعلقة بتطورات العصر من مصالح واعمال وما يرافق ذلك من قيم الاحتيال والانتهازية والمصلحة ومنطق السوق، يحرص آخرون على التمسك بالقيم القديمة القائم على مفاهيم الامانة والوفاء والالتزام ، بينما يميل البعض الآخر إلى الخلط بين الجديد والقديم. حتى تنعكس هذه الاختلافات بدورها على أنماط السلوك

3. اختيار طرق غير معيارية للوصول إلى الأهداف الثقافية، مع ارتفاع مستوى

الطموحـات والرغبـة الشـديدة لتحقيـق النجـاح المـادي . بالطبـع أدى هـذا إلى تحويـر قيـم قديمـة للتعامـل مـع أنمـاط سـلوكية جديـدة. ويتوقـع ـ كـما حـدث في مجتمعـات أخـرى ـ أن تكـون سرعـة التغير في مجـال القيـم أكـبر مـن مقـدرة بعـض أعضـاء المجتمـع عـلى التكيـف مـع مـا قـد يشـار إليـه بنظـام حيـاة جديـدة. (كقـول البعـض بـأن الغايـة تـبرر الوسـيلة فيعمـل أحدهـم وفـق منطـق الاسـتغلالية للوصـول الى مآربـه). وقـد يقـود كل هـذا إلى أن يفشـل البعـض في التعـرف عـلى القيـم المناسـبة وهنـا تضطـرب الأمـور وتظهـر عـلى السـطح أشـكال كثـيرة مـن أنمـاط السـلوك، صـادرة عـن حالـة مـن حـالات الارتبـاك والاضطـراب في التمييـز بـين المـشروع والممنـوع . وقـد يلجـأ البعـض إلى ممارسـة كل مـا يرونـه كفيـلا بتحقيـق طموحاتهـم وأهدافهـم، دون التفكـير كثـيرا فيـما إذا كان هـذا يتعـارض والقيـم التـي كانـت سـائدة وتلـك التـي تحـض عـلى حسـن الخلـق .

وهكذا اذا كانت ظاهرة التمدّن اوالنزوح هما مظهر حركة الوافدون من قراهم وارياقهم الى المدن واماكن الصناعة والتعليم حيث شظف العيش والرغبة في الارتقاء هو السبب الاكبر في ارتحالهم، الا ان الذي يعنينا هو تجمع الوافدون في اماكن معينة بهم ليشكلوا مع مرور الوقت جماعة معروفة وانما غير منتظمة، حيث يظهر مع هذه الجماعات حراك ثقافي (تقليدي/ حديث) وجغرافي (ريفي/ مديني) مما يعني ان لهذه الجماعات المنتقلة دينامية تكوين خاصة بها نتيجة تعرضها لمدخلات ثقافية جديدة ازاء ما هي عليه من سمات تقليدية مما يجعلها في صراع قيمي ومثل هذا الصراع هو نتيجة طبيعية لتصادم وتضارب ثقافتين او جماعتين او اتجاهين. الا أن الصراع الذي يتسبب نتيجة النزوح هو صراع مؤقت وعابر ينشأ نتيجة تعارض دافعين لا يمكن في وقت واحد ارضائهما

لتساويهما في القوة، ويمكن اعتباره (الصراع) ايضا بمثابة الحالة النفسية المؤلمة التي تنشأ عن التعارض بين رغباتنا في ارضاء دوافعنا – مثلا- وخوفنا من وسائل ردع سلطة قد تواجهنا، مما يترك بدور ه ابعادا نفسية واجتماعية واخلاقية عند هذه الجماعات. تضطر عندها: أما الى الانكفاء في صورة طبقات مسحوقة منتشرة في ضواحي واحياء يعيشون حالة عيش مشابهة.(سمات خاصة بأوضاع العمالة)، واما الانطلاق نحو اعادة تكوين جماعات مصغرة تمارس انشطة رياضية او دينية او ما شابه لتعبئة وقت الفراغ.

2) جماعة العاملون في المطاعم وخدمات التوصيل: هامش الصداقة المؤقتة

يصطلح على تسميتهم بdelivery boys الذين يشكلون معا جماعة "تحت الطلب" تنتظر خارج مطاعم الوجبات السريعة بأنتظار مهمة، مفهوم هذه الجماعة وطبيعة المهمة وما يترتب عليها من متاعب كانت محور دراسة ميدانية قام بها سوسيولوجيان أمريكيان هما باتريك كنكايدي وميشال كاتوتش، لحوالي 18 شهرا في أحدى المقاطعات الامريكية، ليجدا أن هؤلاء العاملين أصبحوا مع الوقت بمثابة "جماعة صحبة" لا يتلاقون في نفس العمل وحسب وأنما في المقاهي والحانات خارج أوقات العمل، ومن خلال المتابعات الميدانية وجد هذاين الباحثين أن ثمة هموماً مشتركة يتحادث بها هؤلاء عند ألتقائهم، أو يروون الطرائف التي تحدث معهم أثناء مهمات التوصيل والتي يشوبها كثير من الاخطار التي ترافق مهماتهم من: سرقة، أعتداء، رفض الطلبية، مهاجمة الكلاب لهم وغيرها من حوادث الاصطدام. مقابل الريع الزهيد الذي يتلقونه، وبناء على دراستهما صنف الباحثين عاملو التوصيل بخمس فئات:

1. الظرفاء (the comedian) هؤلاء يستخدمون حسهم الظريف ليقللوا من

صعوبات المهمات التي يقومون بها .

2. المغامرون (the adventure) وهؤلاء يستمتعون بحب المغامرة خلال مهاتهم عبر مواجهة المواقف الخطرة ولا يسألون عن المشاكل التي تتنظرهم .

3. الناكرون (the denier) وهم أؤلئك الذين يحاولون أن ينفوا عن المهنة مخاطرها، فهي بالنسبة لهم أشبه بأي مهنة أخرى لها ما لها وعليها ما عليها من تبعات صعبة او سهلة.

4. المشؤومون (the fatalist) وهؤلاء الذين يروا في هذه المهنة مخاطر جمة وغير مرتقبة ولكنهم تكيّفوا معها دون أن يبذلوا أي جهد ليخففوا من حدة تلك المخاطر

5. المحترفون (the professional) وهم الذين لديهم خبرة وتاريخ في مجال التوصيل حتى اصبحوا روادا في مجالهم وذي حرفة في عملهم والعارفين بأسرار المهنة لهذا يرتقوا الى رتبة مشرف على التوزيع أو مساعد مدير .

وفي هذا السياق رصدت طالبة سيوسولوجية لبنانية (12) اوضاع العاملين في مطاعم KFC للوجبات السريعة، (صيدا- لبنان/ 2011) حيث حرصت على معرفة مدى مساهمة هذه المطاعم في التنمية الاقتصادية والبشرية، الا انها توقفت في سياق بحثها عند العلاقات القائمة بين الادارة والعاملين وبين العاملين فيما بينهم ودرجة الرضا عن العمل، فأظهرت النتائج أن العلاقة بين المدراء والعاملون تفاوتت بين جيدة وعادية وسيئة، الا انها في الاغلب جيدة (30%) ويعود ذلك الى نظام العمل البيروقراطي حيث يتطلب من العامل الادنى احترام مرجعه الاعلى ضمانا لأستمراره بالعمل كمصدر لرزقه وحرصا على "تحسين صورته بالمهمات" كي ينال نوعا من التقدير، مما يشير ذلك ان بعض العمال يحصلون على تقدير او توبيخ

بناء على نوعية علاقاتهم بالمدراء سلبا كانت او ايجابا وهذا ما يؤثر بدوره كثيرا على العامل فيمقت مديره ويتأثر سير العمل ومستوى الانتاجية،

اما عن علاقة الزملاء كجماعة اجتماعية غير منظمة فتبين المعطيات ان (60%) العمال يقيمون علاقة صحبة فردية مباشرة فيما بينهم، وان نسبة (32%) منهم تتطور علاقتهم خارج العمل، فهم ليسوا زملاء فقط وانما يغدون مع الوقت اصدقاء يتبادلون اللقاءات والمناسبات. في حين اشار من نسبتهم (3%) ان علاقاتهم المهنية اثمرت علاقات صحبة قوية حتى اصبحت "عائلية" مما يعني ان زمالة العمل تطورت لتصبح علاقة ودية من خلال الاهتمام المتواصل والسؤال عن العائلة والمشاركة بمختلف اوجه النشاطات الخاصة على اعتبار انهم من الاصدقاء المقربون. بل انه – وكما تشير الدراسة- يتوسع نشاط هؤلاء الاصحاب ليطال التخطيط والقيام بنشاطات ترفيهية معا، ويمكن النظر الى هذه الجماعة من خلال مفهوم التركيب الاجتماعي حيث انه متناثر وغير دقيق لماهيته وصيرورته، فهناك من ينظر إليه على انه يعبر عن التشكيلات الطبقية بالمفهوم الحضري لهذه التشكيلات، وهناك من يرى بأنه يعني الظروف الاجتماعية السائدة لأبناء بيئة اجتماعية في وسط اجتماعي جديد، قوامه «روابط اجتماعية مستجدة تقع بين جماعات وافدة» كشبكة من العلاقات التي تربط الأفراد خلال فترة زمنية محددة بناءً على تواجدهم في مكان واحد.

3) جماعة التواصل الالكتروني والشبكة الاجتماعية: لقاء الافتراض والواقع

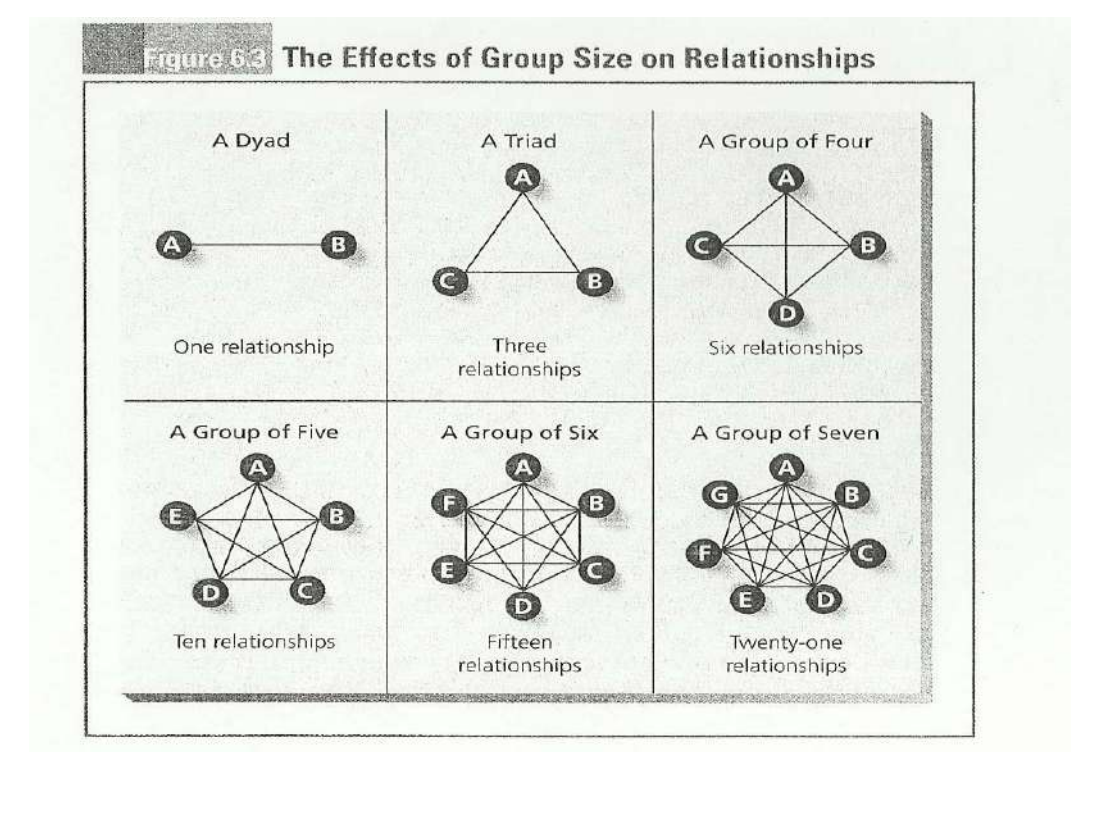
منذ بداية العام 1990 مع ثورة تكنولوجيا الاتصال برز مجتمع تواصلي جديد بين المئات بل الملايين من المستخدمين حتى اصبح هناك ما يعرف ب «الجماعة الالكترونية» التي تتواصل يوميا «**on-line**" في لقاءات محادثة خاصة ومواقع محددة (مدونات) التي هي بمثابة اندية افتراضية يميّز روادها اهتمامات مشتركة

في شتى المواضيع بدءً من المعنيين بسباقات الحمير وصراع الديكة الى اكثرها جدية في علوم الفيزياء والاجتماع والطب. ولكن يبقى السؤال الاهم الى اي مدى يمكن اعتبار هؤلاء المستخدمين والمتحادثين بمثابة "جماعة" وفي أي نوع من الانواع تدرج؟ هل يمكن تعريفهم فعليا على أنهم "جماعة" رغم تشتتهم في فضاء كوني متنامي الابعاد؟ جوابا على ذلك اعتبر بعض الباحثون في سيوسيولوجيا الاتصال جماعة التواصل الالكتروني على انها نموذجا آخرا من الجماعات البشرية الجديدة الذي لا يمكن تجاهلها نظرا لوجودها، ولتوافر مجالات التواصل ولأن في بعضها شروط عضوية (in- group) وبأن لها موقع واسم وكلمة سر للدخول وكأن هناك هوية مشتركة تجمع افراد هذا الموقع عن غيره لدرجة تغدو المواقع كأنها مرجعية جديدة (reference group) يستشير روادها بعضهم البعض في شأن مسائل تخص أحدهم ويركنون الى بعض المواقف الصادرة بعدما يأخذ كلٌّ على حدة بطرح اهتماماته/ اسئلته/ افكاره/ آرائه حول قضية من القضايا المطروحة ويتداولها جميع الاعضاء بالمناقشة.

هذا يعني ان هناك جماعة وُجْدت على هامش المجتمع العالمي ليست كالجماعة الاولية في المجتمعات المحلية – التقليدية (الاسر/ القرابة/ الاندية..) ولا شبيه الجماعات الثانوية (الجمعيات والاحزاب والمؤسسات الدينية) وانما جماعة ذات وجود – وان كان افتراضيا- حيث هناك اصدقاء / زوار/ مهتمون / هواة من كافة الاعمار والاجناس والاعراق والدول يتواصلون بشكل ودي كشبكة اجتماعية (social network) وميزة هذه الجماعة هو في أن المنتمي اليها يشعر بأن الاخر يماثله في الافكار والاراء والاتجاهات (اتجاه عقائدي/ ديني/ حزبي/ فني..) خاصة اذا كانت لهواية معينة كجماعة متسلقي الجبال او رياضة سباق السيارات او جماعة اكتشاف المغاور. فتجانس الاهتمامات هو ما يعتبر بحد ذاته المحور الاساس الذي يجمع اعضاء هذه الجماعة او غيرها..

والقول بأن مرتادي مواقع وشبكات التواصل الاجتماعي على أنهم افراد شتى يؤسسون جماعات قائمة وينصهرون في بوتقة "اهتمام" واحدة لا يعني بالضرورة ان الجميع قادم من خلفيات ثقافية واحدة، بل من سمات جماعة التواصل هذه انها لا تقف عند حدود الزمان او الجغرافيا او الدين او الجنس بأعتبار ان التوجه نحو "التلاقي" انما يكون لغايات علمية او انسانية او اجتماعية او سياسية او دينية تهّم من يرتادها. ومن ميزة التواصل والتلاقي بين افراد هذه الجماعة انها تهيأ لبعض اعضائها فرص حياة خاصة (وظيفة/ زواج/ سفر/ متابعة حالة مرض عضال.) وقد يصل الامر ببعضهم مع تماثل مؤهلاتهم العلمية والمهنية لأن يؤسسوا معا لمشاريع عمل عبر الحدود كأن يكون احدهم مستشارا قانونيا او خبيرا اجتماعيا او محاسبا ماليا او مراسلا اعلاميا.. او كأن تكون احداهن خبيرة في مجالات بيع العقارات او الازياء اوالتصميم الداخلي او الترجمة فتقوم بخدماتها عبر شبكة الاصحاب والمواقع الخاصة .

ولعل اهم ما احدثته شبكات التواصل الاجتماعي ما يعرف بظاهرة الفايس بوك (facebook) الذي يعتبر ظاهرة اتصال اجتماعية لناحية ما تيسره من فرص تواصل سريعة وسهلة بين الاصدقاء وافراد العائلة وزملاء الجامعة او العمل مهما بعدت المسافات بينهم وذلك بشكل فوري وآني بالصوت والصورة والكلمة والرسالة. عدا عن ذلك تعتبر هذه التقنية الوسيلة الانجع بين الناس لدعم قضية انسانية او وطنية او بيئية وذلك بمجرد ان يقوم احدهم بالاشارة على صفحته ليشاهده اصحابه ثم يحدث ان يرسل احدهم وعبر تقتية الربط (link) ما هو مدون ويرسله بدروه لأصحابه آخرين مدرجين على قائمة معارفه وهكذا دواليك حتى تتسع دائرة التعريف من شخص لآخر بشكل مطرد وبدينامية جماعية وفق البيان التالي:



هذا النمط الجديد من التواصل لم يحدث نقلة نوعية في مستوى التواصل التقني السريع وانما اوجد ايضا حالة شعورية جديدة عند مستخدميه حيث توصلت دراسة أجرتها جامعة تكساس الأميركية إلى أن الناس يقبلون على استخدام مواقع التواصل الاجتماعي وعلى رأسها موقع "فيس بوك" بهدف التعبير عن حقيقة شخصياتهم بدلاً من رسم صور مثالية عنها، حيث تشبع لدى معظم المستخدمين حاجتهم الأساسية لتعريف الأخرين بأنفسهم. ونقلت صحيفة "ديلي ميل" عن سام غولسينج أستاذ علم النفس بالجامعة والمشرف على الدراسة، قوله إنه يعتقد أن إمكانية التعبير عن النفس تعبيراً صحيحاً عبر ملفات المستخدمين الشخصية تساهم في شعبية المواقع الاجتماعية من خلال طريقتين، الأولى أنها توفر لمستخدميها إمكانية السماح للأخرين بالتعرف عليهم عن قرب وبذلك يشبعون حاجتهم الأساسية لذلك، أما الطريقة الثانية فهي أن المطلعين على تلك الملفات

يشعرون أن بإمكانهم الوثوق في المعلومات التي يجمعونها، ومن ثمّ يبنون ثقتهم في النظام بأكمله، مضيفاً أن نتائج الدراسة أذهلته، حيث الاعتقاد الشائع بأن الناس يستخدمون صفحاتهم الشخصية على تلك المواقع لإظهار انطباعات محسنة عن شخصياتهم. وتابع غولسينج قائلاً "إن النتائج ترجح أن ملفات المستخدمين الشخصية تنقل صوراً صحيحة بدرجة ما عن أصحابها، ربما لأن المستخدمين لا يحاولون أن يظهروا رائعين أو بسبب أنهم يحاولوا ويفشلوا في النجاح في إظهار أنفسهم كذلك".

وخلال الاعوام القليلة الماضية تحول موقع "فيس بوك" إلى ظاهرة إلكترونية تستحق الدراسة والبحث، خاصةً أنه لم يعد مجرد موقع للتعارف بل اقتحم مناحي عديدة لعل أبرزها مجال التجسس والاستخبارات وتحريك الجماهير نحو ضرورة التغيير والخروج عن الصمت والنزول الى الشارع والقيام بحراك شعبي لتحقيق امور مطلبية تتعلق بالحرية او العدالة او المساواة (كما حدث مع الثورات العربية خلال العام 2011)، بل وصل الامر بهذا الموقع الى ان يكون بمثابة « الخطّابة matchmaker" في بعض الأحيان، اذ تحت عنوان: "بسبب ظاهرة العنوسة منظمات المجتمع المدني تلجأ الى استخدام الفايس بوك" كتبت صحيفة عراقية التقرير التالي[13]

أطلقت عدد من منظمات المجتمع المدني العراقي حملة شعبية تهدف إلى القضاء على ظاهرة «العنوسة» أو الحد من ارتفاعها في بلاد الرافدين، بعد صدور تقارير تتحدث عن ارتفاع معدلاتها إلى نحو 44 بالمئة خلال السنوات الماضية. أخذ موقع عوانس على الـ «فيس بوك» في مدينة الديوانية العراقية يستأثر باهتمام نساء المدينة. والمدن الأخرى، بعد إنشائه في الآونة الأخيرة، حيث يلعب دوراً مهماً وفاعلاً. وقالت إيلاف عبد رضا مسؤولة الموقع: «إن الاهتمام ينصب على النساء العوانس في العراق بصورة عامة والديوانية بصورة خاصة، كون الإحصائيات الأخيرة تشير إلى ارتفاع كبير وملحوظ في أعدادهن». وأوضحت أن «فكرة إنشاء الموقع الإلكتروني، جاءت خلال الورشة التدريبية التي أقامها برنامج دعم الإعلام الوطني المستقل، التي أقيمت مؤخراً».

على الصعيد ذاته، رحبت العديد من النسوة اللواتي تجاوزن الثالثة والثلاثين عاما بالموقع، داعيات الحكومة المحلية بصورة خاصة إلى إيجاد حلول ناجعة للعنوسة. وتعديل بعض القرارات التي تساعد المرأة للخروج من نفق هذه الظاهرة التي يقف عندها المجتمع بصورة سلبية. حيث اشارت احداهن (44 عاماً)، إلى إنها «أصبحت عانسا بسبب بعض العادات الاجتماعية الخاطئة التي تحدد الزواج من الأقرباء وأصبحنا نبحث الآن في الفيس بوك»عمن ينقذنا من هذا البؤس.

وحسب القائمين على الحملة التي انطلقت في بغداد وعدد من المحافظات الجنوبية والوسطى في البلاد ويشارك بها أكثر من 200 فتاة وشاب يمثلون جامعات ومعاهد وناشطين في منظمات المجتمع المدني العراقي الـ«NGO» فإن الحملة تهدف إلى نشر وعي اجتماعي وثقافي،.خاصة تجاه الوالدين اللذين في العادة يكونان أحد عوائق زواج الفتاة وقالت إيمان علي رئيسة منظمة «قوارير» لحقوق النساء:«نقدر نسبة الشابات والشباب البالغين سن الزواج ويرغبون بالزواج أو الاقتران بشريك الحياة بأكثر من 44 بالمئة، وذلك بسبب عدة عوامل منها اقتصادية وأمنية واجتماعية»، لذا شاركنا في حملة «لم يفت القطار بعد»، للمساعدة في التقليل من المشكلة. ولو إلكترونياً.

وفي هذا السياق أفادت المعالجة النفسية للزواج والعائلة بولا بايل في ولاية نورث كارولينا الامريكية، الى أن استعمال الموقع بات وكأنه فعل قهري، بحيث يتيح لمستخدميه المجال للهرب من عالمهم إلى عالم اجتماعي يفتقده في محيطه، وبدوره يجيب السوسيولوجي الامريكي james henslin (2005) عن كيف يصبح الاصدقاء الافتراضيون من اعضاء جماعة التواصل الالكتروني بمثابة

العائلة الحقيقية لأحدهم؟ إنطلاقاً من تطور المتواصلين في علاقات حميمة (صحبة/ حب/ زواج/ مواعدة/ مؤانسة) فضلا عن مشاركتهم في شؤون وشجون الحياة اليومية بل قد يتأثر بعضهم بآراء جماعته الالكترونية الى حد بعيد. الا ان التأثير الاهم الذي تولته "جماعة التواصل" هو كسر طوق العزلة الذي يعيشها احدنا فسواء كنت تقيم بمنزل ريفي في قرية نائية او في احدث الشقق بضواحي مدينة نيويورك او تمضي اجازتك في احدى ارياف جبال القارة الاوروبية فأنك تجد نفسك بسهولة تتحدث/ تتسامر / تخابر دونما ان تشعر بأنك وحيدا على الاطلاق وهذا ما يجعلنا نشير بأن التواصل الالكتروني لم يؤثر فقط في نمط تواصلنا اليومي وانما ايضا على شخصيتنا وعلاقاتنا بذاتنا: من نحن وكيف ينبغي أن نكون؟

4- جماعة اطفال الشوارع : نمطية الاستجداء وسبل الانحراف .

تعتبر ظاهرة انتشار اطفال الشوارع وصولا الى عمليات التسول والنشل للمارة من الظواهر الاجتماعية المنتشرة في كثير من دول العالم النامي وتحاول حكومات هذه الدول التصدي لهذه الظاهرة بإصدار القوانين والأحكام التي تمنع التسول وتحذر منه وتعاقب من يرتكب ما يمت اليها من افعال تتعلق بالنشل او غيره، خاصة بعدما اتخذت هذه الظاهرة شكلا حادا مهددا للمجتمع فأمتد إلى الشوارع واماكن العبادة والمصارف والمراكز التجارية والحدائق والمنتزهات والمطاعم وأصبح من المألوف أن تجد في كل مكان من يمد يده للناس معترضا طريقهم طالبا المساعدة. فما السر في انتشار هذه الظاهرة؟ وهل هناك فعلا جماعات تمتهن هذه العادة؟ وهي على شئ من التنظيم ام انها تمارس الفعل بشكل اعتيادي واصبح الجميع بمثابة افراد وجماعات تتصرف وفق نمط استجدائي

واحد مع اختلاف في اساليب تلبية حاجتها بالقوة تارة (عبراالنشل والخطف والفرض) وبالتوسل والرجاء تارة اخرى؟

*في التعريف: تشير منظمة الامم المتحدة بأن «اطفال الشوارع» مقصودٌ به أيّ صبي او فتاة اتخذ من الشارع بالمعنى الواسع للكلمة مسكنه الاعتيادي او مصدرا لقوته من دون حماية او رعاية واشراف من جانب شخص مسؤول. وعلى ذلك يمكن اعتبارهم أولاداً يمتازون بعلاقات ضعيفة او مقطوعة مع ذويهم حيث تركوا (او استغنوا عنهم) ذويهم واتخذوا الاماكن المهجورة ليلا للمبيت والشارع والارصفة مرتعا لهم في النهار. وبذلك هم معرضون للخطر والانحراف والتكسب بوسائل غير مشروعة لسد رمق جوعهم وصولا الى التفنن في طلب الكسب قد يصل ببعضهم الى الاستجداء والتسول او النشل فالسطو.

وبالبحث عن الاسباب التي تؤدي الى هؤلاء ليكونوا كشكل جماعة منتشرة محليا وعالميا يُرجع المعنيون بدراسة هذه الظاهرة الاجتماعية الى مسائل تتعلق ب: تدني الوضع الميعيشي الى مستوى الفقر المدقع، وضع اسري مفكك ومضطرب، تسرب مدرسي نتيجة انعدام ملاءمة المناهج مع الحاجاتـ، انتشار ظاهرة البطالة بشكل واسع بين ارباب الاسرة، نمو التجمعات العشوائية في ضواحي المدن من جماعات وافدة. ولكن سؤالنا الاهم هنا ما الذي يميز ابناء هذه الجماعة من الناحية النفسية والاجتماعية؟ في دراسة بالعينة على مجموعة من اطفال الشوارع تحت عنوان: واقع اطفال الشوارع في منطقة البقاع (لبنان/ 2011) رصدت فيها الباحثات (14) سمات شخصية تتعلق بأفراد هذه الجماعات وهي:

1. الشـغب والميـل الى العدوانيـة: وذلـك نتيجـة الاحبـاط الـذي يعيشـه الطفـل مـن جـراء فقدانـه الحـب داخـل اسرتـه ويـزداد الميـل الى العدوانيـة مـع ازديـاد المـدة

التـي يقضيهـا الطفـل في الشـارع حيـث يتعلـم ان العنـف هـو لغـة الشـارع، ذلـك انـه حـين سُـئل افـراد العينـة المسـتجوبة مـن الاطفـال مـاذا يفعلـون فيـما لـو اعتـدى احدهـم بالـضرب عليهـم ؟ فأشـار مـن نسـبتهم (59.5%) الى انهـم يـردون الضربـة فـورا، و (28.5%) يدبـرون لهـم مكيـدة اذا كانـوا لا يسـتطيعون مواجهتهـم، وفي رأي مـن نسـبتهم (12%) الى انهـم يسـامحون!

2. التبدل الانفعالي: ويتمثل لديهم من خلال كثرة البكاء ثم الانفعال الشديد ثم السباب المتواصل

3. التحايل والتمثيل: عبر ادعاء الطيبة، التطلّب غير المحدد، عدم الكف عن الطلب ولو اقنعتهم مرات بأستحالة تلبية طلبهم، اعتماد التنكر والتهرب كأحدى الوسائل الدفاعية ضد اي مواجهة او خطر حين يقبض عليهم

4. انعدام مبدأ الصواب والخطأ: بأبتعاد طفل الشارع عن رقيب عائلي ومرب له، يتحطم لديه نسبيا الضابط الاجتماعي ومع تحطمه يعتقد كل ممنوع ممكن فعله..

5. حب الاستئثار والجشع: نتيجة ضعف الشعور بالولاء والانتماء يتولد عند طفل الشارع شعور التملك والاحساس بعدم الرغبة في التعاون مع زملائه..

6. الهامشية والدونية: نتيجة انحدار الطفل الى عالم الشارع يصبح في نظر العابرين على انه «ولد هامشي» صاحب عادات سيئة، فينفر منه الجميع نظرا لهيئته او تصرفاته، فتتسع الهوة بينه وبين الجماعات الاخرى (الشرطة/ الجمعية الاجتماعية/ اصحاب المحال..) التي ينظر إليها باعتبارها تتفوق عليه بالقدرة والنفوذ والمال. فيتولد لديه شعور الحقد والانتقام

ولـدى اسـتجواب الباحثـات افـراد العينـة حـول الاسـباب التـي دفعـت بهـؤلاء الى

تواجدهم في الشارع، اشار من نسبتهم (46 %) إلى الاوضاع الميعيشية التي يمرون بها، و(36 %) اشاروا لأعالة اسرهم عبر التسول او العمل بمهن بسيطة (مسح نوافذ السيارات/ بيع الحلوى/ مسح الاحذية..) و(14 %) هربا من وضع اسري متأزم يعيشونه.. ويؤكد هذه النسب سؤال الباحثات الاطفال:ولكن لماذا الشارع كمكان وليس امكنة اخرى (ماذا يعني لك الشارع؟) ليشير (30 %) الى انه مكان عمل و(28 %) اشاروا على انه مكان مؤقت لينتقلوا بعد ان تتحسن ظروفهم الى اماكن أكثر أمانا و (21 %) مكانا للمخاطر والانحرافات ورأي (4 %) على أنه مكانا للهرب من عنف الاب في حين ذكر من نسبتهم (8 %) من انه لا يعني لهم شيئا أنه، مجرد مكان يأتون اليه. ولدى سؤالهم عن رأيهم بالاطفال الذي في مثل عمرهم ولكنهم ليسوا بالشارع ليجيبوا بالتالي: نتمنى ان نصبح مثلهم (54 %) نكره ان نصبح مثلهم (13 %) لا ابالي لهم / لا يعنينا الامر (31 %) ..وهكذا يلاحظ على ما تبين بأن ظاهرة اطفال الشوارع تعود الى فرضية وجود وضع اجتماعي متأزم داخل المنزل : طلاق/ هجر/ موت احدى الوالدين/ زواج ثاني/ عنف وتسلط من الاب / غياب الرقيب (سواء الام او الاب ..)، مثل هذه الاسباب وغيرها دفعت بالاولاد النزول الى الشارع هربا من واقع أسري متآزم وبحثا عن امان او عمل او لأجل اعالة اخوته من خلال طرق استجداء بالمهن الوضيعة تارة وبالتسول تارة اخرى حيث مع الوقت يصبح طفل الشارع متسولا محترفا، فماذا يعني المتسول بحد ذاته وما هي سماته؟

بالعودة الى التعريفات المتداولة حول من هو المتسول فأن المعاجم عرفته على انه: الشخص الذي يحصل على المال بغير عمل يستحقه، وهو في ذاته أشبه بالطفيلي الذي يقتات من غذاء الغير دونما محاولة منه للحصول على غذائه بنفسه

وبذلك يصبح قوة معطلة لأنه غير منتج بل أنه قد يصل في بعض الأحيان إلى درجة تعطيل غيره عن الإنتاج، وقد يتم ذلك في اشكال ابرزها:

1. تسول ظاهر: وهو التسول الواضح الصريح المعلن وفيه يمد المتسول يده مستجديا الناس
2. تسول غير ظاهر (مقنع) وهو التسول المستتر وراء عرض أشياء أو خدمات رمزية مثل مسح زجاج السيارات وغيرها
3. تسول موسمي : وهو يمارس فقط في المواسم والمناسبات الدينية والأعياد والمهرجانات والاحتفالات العامة.
4. تسول عارض وهو عابر ووقتي لعوز طارئ كما في حالات الطرد من الأسرة أو ضلال الطريق أو فقدان النقود في السفر
5. تسول إجباري : وهو اضطراري كما في حالات إجبار الأطفال على التسول
6. تسول اختياري : حيث الانحراف والجري وراء الكسب
7. تسول المستطيع : وهو تسول القادر الذي يستطيع التكسب عن طريق العمل ولكنه يفضل التسول وعند القبض عليه يحاكم
8. تسول غير القادر : وهو تسول العاجز أو المريض أو ذوي العاهة وعندما يقبض عليه يودع في الدار الاجتماعية المناسبة
9. تسول الجانح : حين يكون التسول مصاحبا بالجنوح والإجرام حيث لا باس إلى جانب التسول من سرقة أو نشل، اي بستار التسول تسهل مهمة النشل والسرقة

الا أن نمط التسول الأكثر شيوعا عند المتسولين بصفة عامة هو التسول الجماعي مع جميع أفراد الأسرة، حيث يقوم ولي الأمر بتوزيع أفراد الأسرة على عدة آماكن لممارسة التسول بها بعد ما يقوم الأب أو الأم بتوزيع أفراد

أسرته على بعض المواقع التي يراها مناسبة لجمع المال، والإشراف المباشر عليهم أثناء تأديتهم مهام عملهم ومراقبتهم عن كثب والتدخل السريع في حالة حدوث القبض عليهم وإشعارهم بوصول فرق مكافحة التسول خاصة الأطفال عند إشارات المرور، ثم هناك التسول الفردي الذي لا ينتمي إلى تنظيم جماعي حيث كشفت دراسة متخصصة أن التسول الفردي ينتشر في حالات نادرة من قبل شباب او شيوخ ويلاحظ لدى الذكور أما التسول الجماعي فغالبا ما يكون من جماعات انثوية متفرقة في اماكن مع ابنائهن او اصحابهن، وهذا يؤكد على وجود تسول أسري ذا تنظيم داخلي لم يصل إلى مرحلة التنظيم الرسمي الذي يحدد الأدوار والمسؤوليات. ومن الأماكن المفضلة لدى غالبية المتسولين بصفة عامة عند إشارات المرور ثم التسول في الأسواق وإن الأماكن المفضلة لدى الإناث في الأسواق والمطاعم واماكن العبادة أما الذكور فإن أماكن تسولهم المفضلة بجوار المعاهد والجامعات ثم إشارة المرور، وفيما يتعلق بالوقت المناسب للغالبية العظمى من المتسولين هي في المساء ثم في الظهيرة أما الأرامل فيكثر تسولهم في فترة الليل ويلعب في دوافع التسول واسبابه عوامل منها :

- ✓ عدم وجود العمل حيث يعتبر من أهم الأسباب والدوافع للقيام بالتسول علما أن الغالبية العظمى من المتسولين أميين حيث تقل فرصتهم للحصول على عمل مناسب
- ✓ إجبار ولي الأمر للقيام بالتسول حيث كشفت الدراسة تزايد أعداد المتسولين وخاصة الأطفال عند إشارات المرور بإيعاز من ولي الأمر لممارسة التسول
- ✓ زيادة العائد من التسول هو السبب للقيام بالتسول، حيث اوصحت احدى الدراسات التي اجريت في بلد عربي عن ظاهرة التسول من أن 18.75 % من أفراد العينة يقرون بأن زيادة العائد من التسول هو السبب لقيامهم به بالتسول .

✓ اتخاذ التسول حِرفة حيث تبين بالملاحظة والمتابعة أن هناك فئات تحترف التسول لأن أفرادها لا يجيدون مهنة غيره

ومن الوسائل والأساليب المستخدمة في التسول

تختلف الوسائل والأساليب التي تستخدم في التسول وتتغير الا إن أكثر الوسائل شيوعا هو الدعاء للمتصدقين، ثم راوية قصة ثم حمل صكوك إعسار او فقر حال بهدف أستدرار عطف المتصدقين عبر: حمل طفل رضيع، ثم البكاء أمام المتصدقين ثم ارتداء ملابس ممزقة كذلك إجبار أولياء الأمور أطفالهم بالمشي حفاة القدمين عند إشارات المرور خاصة وقت الظهيرة باعتبارها الوسيلة الأكثر شيوعا لاستدرار عطف المحسنين

اما عن اهم خصائص المتسولين والتمييز فيما بينهم :

يمتلك المتسول المتحايل عادة مهارة في اختيار المواقع الإستراتيجية الجيدة التي يحقق من خلالها عائدا جيدا في حين أن المتسول المحتاج لا يراعي اختيار المواقع المناسبة من منطلقات عديدة من أهمها رغبته بالتخفي والتواجد في أماكن بعيدة عن الأنظار لأنه لا يحب أن يعرف الناس شخصيته من منطلقات أخلاقية بسبب أعراف وتقاليد وإنما يسعى دوما لأن يكون متخفيا بعيدا عن الاحتكاك بصورة مباشرة حتى يتلافى التعرف عليه وغالبا ما يكون قنوعا ويكتفي بالقليل لسد رمقه وحاجته وحاجة من يتكفل بهم. ومن الخصائص المعروفة لدى جماعة التسول:

1. المحتال المحترف يستخدم العبارات والكلمات الجميلة المؤثرة في حين أن المتسول المحتاج لا يحسن غالبا استخدام مثل هذه العبارات لكونه قلقا

أو خجولا ومترددا

2. يتصف المتسول المحتال بأنه لحوح وجرئ ومبالغ في تقمصه للدور والادعاء والمحتاج على العكس من ذلك يظهر غالبا للناس بسليقته وطبيعته ويبدو عليه عدم القدرة في ترجمة حاجته بوضوح

3. المتسول المحتال يحسن المشاغبة والخصام مع رجال الشرطة ويجيد الاختفاء والتنكر في حين أن المتسول المحتاج لا يستطيع المواجهة ولا يميز بين الأماكن الآمنة والمستهدفة ولا السبل المنجية عند وجود ملاحقة من قبل المكافحة

4. المتسول المحتال لا يهتم للنظرات المريبة تجاه توسلاته ولا الأحكام القاسية بسبب لياقته واحترافه وإدراكه بأنه يستحقها، في حين أن المتسول الصادق تعصره ألما وتحرجه لكونه يحس بأنه محتاج وفوق ذلك مظلوم ومجنى عليه لوضعه في منزلة المتسول المحتال

*خلاصة فصلية عن الجماعات غير المنظمة

بما ان المجتمع هو الإطار العام الذي يحدد العلاقات التي تنشأ بين الأفراد الذين يعيشون داخل نطاقه في هيئة وحدات أو جماعات، فأنه بالتالي إطاراً لعملية مستمرة من التعاطي الحياتي بين أفراده، وعلى هذا الأساس فلا بد أن تتولد فيه ملامح متقاربة من العقائد والأفكار وجملة محددات السلوك كنتيجة لهذا التعاطي والاحتكاك، وتصبح بالتالي هذه المشتركات هي الصيغة العامة للمجتمع التي يعمل على نقلها لأفراده. وفي صيرورة المجتمع لا بد من وجود الإدراك أو الشعور المتبادل حيث أن مجرد وجود علاقة منظمة ومنسقة تعتبر غير كافية لأن تُكوّن المجتمع، بل يجب أن يكون هناك إدراك أو شعور نفسي متبادل بين أطراف

العلاقة تجاه الأهداف العامة للمجتمع خاصة إذا أخذنا بالاعتبار أن الجماعات هي الرافد الأساسي للمجتمع، ومن البديهي أن أفراد أيّة جماعة يشتركون بالكثير من القواسم المشتركة، التي تأتي بسبب تأثير التربية وحلقات التنشئة المتواترة، فمن خلال هذه الحلقات تجري عملية نقل العادات والتقاليد مثلما تجري عملية نقل الخبرات الحياتية والقيم الروحية والقواعد الأخلاقية والتصورات الحقوقية عبر تنشئة الافراد وإعدادهم بالشكل الذي يجعلهم قادرين على التعامل مع من حولهم.

من هنا نستطيع القول: أن التنظيم الاجتماعي يترّسخ في (لآشعور) أفراده، من خلال التربية أومن خلال عملية التعاطي بين أفراده ومؤسساته بصورة عامة عبر جملة من القيم والعادات وغيرها، وعليه ستكون هناك بنية معرفية واحدة تتكرر في غالبية أفراد هذه الجماعة او تلك، عند هذا التكتل او ذاك الحشد، مع هذه الجماعة المنظمة او مع تلك غير المنظمة، وهذا هو اللاشعور الجمعي وهذه هي الكيفية التي يتكون من خلالها الاطر الاجتماعية. ولكن كيف يعمل المجتمع على نقل محتويات لا شعوره إلى باقي أفراده؟ إن الإجابة على هذا السؤال تعيدنا حتماً إلى بداية نمو الفرد، إلى اللحظات الأولى التي تتشكل فيها بنيته الإدراكية من عائلته ومع أقرانه في حيه وبعد ذلك وسط حلقات تنشئته التالية: من مدرسة وجامعة الى حزب وكشافة وهيئات مجتمع مدني، الى معابد واندية وفرق وتجمعات تغدو بالنسبة له بوتقة اجتماعية – سياسية – فكرية ينصهر فيها وفق آواليات متعددة .

*هوامش الفصل الثالث:

1) **Dewey&humber: an introduction to social psychology, .macmillian co. new york , 1966**

*) بمناسبة اليوم العالمي للمرأة (8/ مارس 2011) رصدت مجلة "بيلد" الالمانية ما يقارب ال 100صفة تتميز فيها المرأة عن الرجل ، وبعض هذه الصفات له سند علمي والبعض الاخر من متابعات الحياة اليومية ، ومن بين الامور التي تتميز بها المرأة انها تستطيع الحفاظ على ثقتها ولا تبدو مرتكبة عندما تكون في موقف تفتقر فيه للمعلومات، كذلك ثبت ان النساء – وبناء على دراسة قامت بها جامعة ساوث كاليفورنيا – افضل من الرجال في المضاربة بالبورصة كما انهن يتميزن بالقدرة على ادارة الموظفين لجمعهن بين القوة والسلوك اللطيف..ومن بين ال100 صفة التي اشارت اليها الصحيفة ان النساء هن الافضل في صناعة السيارات ، ذلك ان شركة بورش الشهيرة تشير الى ان عدد النساء والفتيات الخبيرات بالهندسة الميكانيكية والإلكترونية اكبر من الرجال في مصانعها.(عن جريدة صدى البلد اللبنانية:9/3/2011)

2) د.مامون طربيه ، علم الاجتماع في الحياة اليومية، دار المعرفة، 2011

3) د.مصطفى حجازي : حصار الثقافة بين القنوات الفضائية والدعوة الاصولية ، المركز الثقافي العربي، بيروت 1998

4) رجوى فيتروني، دعاء عضن ، عايدة نصرالله " الاتجاهات التعصبية والدينية عند الشباب اللبناني، اطروحة، اعدت لنيل شهادة التخرج في الاشراف الصحي – الاجتماعي، الجامعة اللبنانية، 2010 غير منشورة.

5) د.احمد زايد، سيكولوجيا العلاقات بين الجماعات ، مجلة عالم المعرفة، العدد 326، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2006

(**) في احـدى الدراسـات المتخصصـة ظهـر ان 48% مـن الامهـات العامـلات يعملـن مـن اجـل تقديـم خدمـة للمجتمـع ويرضـين حاجاتهـن للبقـاء في صحبـة الآخريـن وذلـك لتحقيـق ذواتهـن، وان المـرأة تخـرج للعمـل تحـت الحـاح الضغـط الانفعـالي لشـعورها بالوحـدة اكـثر مـن خروجهـا تحـت

ضغط الحاجة الاقتصادية.

6) قانون الاخويات، بطريركية انطاكية وسائر المشرق المارونية ، طبعة عام 1980

7) جان جورج كفوري، الاخويات والجمعيات في منطقة المعلقة – زحلة، مذكرة بحث اعدت لنيل شهادة الجدارة في علم الاجتماع، معهد العلوم الاجتماعية / الجامعة اللبنانية ، زحلة ، 1988، غير منشورة.

8) جان كفوري ، المرجع نفسه

9) د.مصطفى حجازي، المرجع نفسه.

10) مايكل ارجايل، سيكولوجية السعادة، ترجمة فيصل عبد القادر يونس، من سلسلة عالم المعرفة الكويتية، العدد 175، تموز 1993

11) جريدة المستقبل - الاحد 24 نيسان 2011 - العدد 3979 - نوافذ - صفحة 14

12) ديانا رحال، الاوضاع العملية للعاملين في الشركة اللبنانية للمشروعات السياحية،KFC (نموذجا) ، الجامعة اللبنانية، معهد العلوم الاجتماعية ، صيدا / لبنان / 2011

13) حملة على «فيس بوك» لمنظمات المجتمع المدني لمكافحة ظاهرة العنوسة/ com.karemlash4u.www

14) «واقع اطفال الشوارع في البقاع» رسالة بحث اعدتها الطالبة : عبير حمصي ورنا غرلي، لنيل شهادة الاجازة في الاشراف الصحي – الاجتماعي، كلية الصحة العامة، الجامعة اللبنانية ، زحلة 2011 (غير منشورة)

الفصل الرابع

السلوك الجماعي والحراك الاجتماعي:

يُنظر الى السلوك الجماعي انطلاقاً من الصورة التي يتخذها هذا السلوك او يتمثل بها، فدارسوه يعتبرونه بمثابة تصرف جماعي قام به أناس عاديون أستجابة (أو كرد فعل) على أحداث مؤثرة او مواقف غير عادية طالت مسار حياتهم وعليه نتساءل:

- ✓ كيف يتأثر الناس ويؤثر أحدهم بالآخر ؟
- ✓ ما هي متطلبات درجة المشاركة بالحدث الجماعي ؟
- ✓ أيّة مواقف تلك التي سبقت فعل السلوك المثير الاستجابة ؟
- ✓ كيف تتلّقف الجماعة صور المواقف الساخطة وكيف تحضر للرد والتعبير عن السخط؟

مجمل هذه الاسئلة نجد جوابا عليها من خلال ظاهرات جماعية مثل الاشاعة، الهلع، الهستيريا، الاحتجاجات وسائر مظاهر الحراك الشعبي الا ان ابرزها تُرّا: الشغب، التظاهر والثورات، وقبل ان نأخذ في عرض هذه المظاهر. نبدأ بتعريف الحراك الاجتماعي كمفهوم واستراتاجية.

1- مفاهيم في الحراك الاجتماعي:

ليس هناك تعريفا ثابتا لكلمة «الحراك» بل باتت تستخدم في الدراسات النفسية والاعلامية للاشارة الى مجموعة كبيرة من الناس قرروا تنظيم جهودهم من أجل هدف ما وغالبا ما يكون لتغيير وضع قائم، يحمل اعضاء الحراك الجماعي افكارا قوية حول الخطأ السائد في عالمهم والذي من المفترض ان يتم تصحيحه كله او بعضا منه عبر تحرك جماهيري لقضايا تتعلق مثلا: بحقوق العمال، مكافحة الاستعباد، تكريس حقوق انسانية مثل الحرية والعدالة، أو يكون من قبل هيئات نسائية للمطالبة امتيازات خاصة بهن، أو للرفق بالحيوان او الحفاظ على البئية. وينطلق الحراك أساسا من ذلك الشعور باللامساواة او اللاعدالة بحيث تجد فئات كبيرة من الناس ان الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية السائدة لا تطاق ومن الضروري أحداث تغيير او القيام بتحرك بشأنها وهذا ما يعرف (proactive movement) او- وفي حالات اخرى- قد يتأذى البعض من ظروف التغيير الطارئ ولم يستطيعوا التكيف معه فيعملون على مقاومة او معارضة هذا التغيير وانعكاساته السلبية (كما هو الحال في حملات مناهضة العولمة) وفي كلا الحالين يحرص القيمون على الحراك الجماعي تجنيد الاتباع وتجييشهم ازاء النظلّم الحاصل، كما انهم يولون اهتماما جيدا لأجراءات تحركهم فيتخذون وسائل تعبئة واستنكارعبر: مسيرات شعبية، مظاهر احتجاج وحملات مقاطعة..

يصف بعض علماء الاجتماع الحراك الجماهيري بموج البحر المتراوح على مد وجزر ثائر، حيث يمكن لحركة مد عنيفة ان تحدث تغييراً مباشرا أذا ما تواترت وفق ارتدادات متتابعة، وفي هذه الحالة- اي مع الحراك الهائج رويدا رويدا بشكل متقطع ومتتابع- يدرك المعنيون اهمية ما يقومون به فتتوسع دائرة

تأثيرهم حتى تطال غيرهم وهذا ما يعرف بأنتشار النار في الهشيم.

1.1- انواع الحراك الاجتماعي :

يمكن تصنيف الحراك بناء على الاهداف التي يصبو اليها وعلى حجم التغيير الذي يتطلع اليه، ففي اطار الاهداف هناك : الفردي والمجتمعي والعالمي. اما في اطار الحجم فهناك الجزئي والكلي.

- ✓ على صعيد الفرد: هو صورة التغيير الذي يتطلع فيه بعضهم الى تعديل تصرفات محددة (كما هو الحال في الحملات التي يتطوع بها هيئات للحد من الادمان على الكحول عند افراد معينين مثلا) واما ثانيا عبر ما يسمى بالحراك - التخليصي وهدفه تخليص فئات معينة من مظاهر ترتد عليها سلبا (كحال الشباب الذين يلتزم تعاليم دينه كيف يغير من كامل حياته فيتخلّص من حياة اللهو والسهر ليصبح كأنه مخلوق آخر لما احدثه من حركة في عالمه الخاص تبدت في صورة التغيير بين ما قبل وما بعد)

- ✓ على صعيد المجتمع: هناك ايضا مظهرين للحراك: فهو اما ان يكون اصلاحي (reformative) يتطلع نحو تحسين واصلاح بعض الظواهر الاجتماعية الغريبة، وهذا ما تتولاه جمعيات المجتمع المدني والاهلي والتيارات الحزبية عبر تقديم العون والمساعدة للحد من مظاهر الفساد والانحراف وتعزيز الرخاء الاجتماعي، واما ان يكون تحوّلي (transformation) بمعنى ان يتحول المجتمع من حال الى حال نتيجة تغييرات سياسية او تحولات اقتصادية طارئة او ثورات صناعية مرتقبة فتقلب كيان المجتمع رأسا على عقب حتى تأخذ مؤسساته نمط آخرا من الاداء والفعالية.
- ✓ على الصعيد العالمي: وهو بدوره يتجلى في صورتين: اما في صورة المد

العالمي المسيطر (وهذا ما يعرف بالثورات الاجتماعية الجديدة) الذي يحمل معه بذور تغيير تطال ليس فقط مجتمعا بعينه وانما العالم كله، فالحركات النسائية ضد مسائل الاضطهاد وحقوق العمال والحفاظ على البيئة ومحاربة الجرائم الانسانية لم تعد هي مخصوصة بمجتمع دون غيره بل همّها يؤرق المجتمع الدولي واصبحت بمثابة ظاهرة عالمية يعنى الجميع بها سواءً كانت دولا اوشعوبا اوجمعيات محلية وعالمية. مما يعني ان هذا الحراك يركز على ظواهر ذات تأثير عالمي مشترك. واما في صورة التطور التلقائي (metaformative) ومفاده ان اي مجتمع انساني لم يعد بالامكان ان ينأى بنفسه عن سيرورة الحياة ويقف حيث هو، بل لا بد ان يطور ذاته بأستحداث تغييرات تتلائم مع حركة التطور العالمي، كي يكون واياه في حالة انسجام مما يتطلب عندها اعادة نظر في واقع المجتمع ومكوناته ونظمه اذا ما رغب في حالة تموضع جديدة على خارطة الحراك العالمي، وهذا ما يتجلى في عقد اتفاقيات اقتصادية ومعاهدات امنية وقيام اتحادات على مستوى دولي. وينبغي على الدول تعديل بنيتها الاقتصادية والسياسية مثلا لتتؤام مع المسار العالمي والا بقيت خارج السرب.

2.1- مظاهر الحراك الاجتماعي :

1) الشغب:

ظهر هذا المفهوم لأول مرة كسلوك جماعي مع صحافي بريطاني يدعى (Charlesmackay1814-1889) عندما أخذ يلاحظ مجموعات من الشباب تثور بأهتياج لتُحدث شغبا وعنفا ومعه تعمّ الفوضى، والتعبير الاكثر دلالة لهذه الظاهرة -برأي هذا الصحافي- هو تسمية الثائرون بقطيع بقر يفر مذعورا

(studdenly stampede)، مقولات هذا الاعلامي دفعت العديد من الباحثين لتسليط الضوء على ظاهرة الجماهير المحتشدة بالتساؤل عن دوافعها، طرق تكوينها، ظروف نشأتها ومسار تحركاتها.. وأخصهم:

- الباحث الفرنسي غوستاف لوبون الذي توصل الى فرضية وجود ما يسمى بالعقل الجماعي (collective mind) الذي هو ما يوجه او يوجد الجماهير المحتشدة. حتى يكونون جميعا ما يفترضه ب " الجمهور النفسي"
- السوسيولوجي الامريكي روبرت بارك الذي قدم في هذا السياق اطروحة اكاديمية عن ظاهرة «الشغب» فأضاف على ما توصل اليه لوبون في ان ما يحرك الناس نحو الاحتشاد بشكل جماعي ثوري او عنفي هو وجود: القلق الاجتماعي (social unrest) الذي ينتشر بشكل تلقائي في ظل حالات تأزم اجتماعي، حيث يرى هذا الباحث بأن القلق الاجتماعي ينتقل من شخص الى آخر كتعبير عن سخط ودليل تذمر عام، اذ عندما يتقابل (أ) وهو متذمر مع (ب) فأن هذا الأخير سوف يتأثر من تذمر (أ) وبالتالي عندما يتواصل (ب) مع (ج) فأنه بدروه هذا الثالث سوف يتأثر بما يعانيه الاخرون. وهكذا حتى تتسع دائرة التذمر، ويشدد بارك على " دائرية الردود" التي تهيأ بدروها ما يعرف بالنبض الجماعي (collective unpluse) الذي يسري بينهم حتى يدفعهم للتحرك بشكل فوضوي.
- الباحث في علم النفس الاجتماعي هربرت بلومر (1989-1900) الذي اولى عنايته بدراسة مركزة على هذه الحالة، فرأى ان الشغب ما كان ليحدث الا بعد مروره في مراحل خمس، ذلك انه لكي نصل الى مرحلة الفوضى الحاصلة (acting crowd) فأنه يسبقها محطات وفق البيان التالي

القلق الاجتماعي أولاً + الحدث المثير ثانياً + ظهور الاستياء ثالثاً +

الهدف المشترك رابعاً + النبض المشترك خامساً = حالة الشغب

فالقلق الاجتماعي (social unrest) يحدث بطبيعة الحال عندما يشعر الناس بعدم الارتياح من وضع قائم وقد يعود ذلك الى ظروف قاسية تحدث في محيطهم الاجتماعي غير متوافقة لمسار حياتهم على الاطلاق بل باتت تحدد امنهم او مستقبل وجودهم. مما يدفع بالبعض الى اطلاق الشائعات من مساوئ ما حدث وما يمكن ان ينتج عنه ويتهيأون للتجمع والتحرك لوضع حد لذلك (مثال: في ظل تفشي البطالة يتحرك المتعطلون عن العمل للبدء بتجمعات بعدما بات القلق يهدد لقمة عيشهم..)

اما الحدث المثير فهو غالبا ما يكون ساعة الصفر للانطلاق، حيث التهييج اخذ يفعل فعله والتجمعات الجماهيرية تبدأ رويدا رويدا بالغليان الى ان يأتي حدث ما يكون بمثابة شرارة الانطلاق (مقتل احد اعضاء التجمع/ اعتقال الشرطة لكوادر التحرك/ اهانة رمز شعبي/ تضييق ومنع وقمع لحرية التعبير)

بعدها يأتي ما يعرف ب (milling) النشر حيث مع انتشار اخبار التحرك والاحداث يبدأ الناس بتداول ما جرى على شئ من المأسوية، ومع توسع الاخبار والتي غالبا ما تأخذ صورة الاثارة تتحرك المشاعر فيصبح الجميع مشحونون انفعاليا .

بعد عملية الشحن الانفعالي يأتي الهدف حيث يصبح الجميع على أهبة الاستعداد، وازاء متابعتهم للاخبار المتواترة يدخل الجميع في حالة غليان شعبي.هذا الغليان بحد ذاته هو النبض الجماعي الذي انتشر بينهم كالعدوى فخلع الجميع ستار الخوف وهاجوا في سورة غضب او ثورة او تمرد او فورة عنف .

يشير بعض السوسيولوجيين في هذا السياق الى ان حالة العنف الشوارعي او الشغب المثار في مصانع وجامعات وسجون وتجمعات حكومية اخرى، يسبقه ويواكبه خطوات تشاور من القائمين به لكي يضمنوا الوصول الى اهدافه تحركهم بدقة. كما اشار الى ذلك الباحث الامريكي كلارك ماكفين (1991) الذي رأى بأن الجماهير المنفعلة وعلى رغم تسميتها بالطائشة او الغوغائية فأنها بواقع تصرفاتها وتحركاتها يتعاون افرادها فيما بينهم على مهمات الحدث – التحرك (كما في عملية الثأر والانتقام : احدهم يأتي بالحبل/ التالي يقتل/ الثالث يحضر صندوقا/ الرابع يصب الزيت والخامس يحرق..) [1]

أزاء اي تحرك جماعي غالبا ما تحاول الجماهير ان تقلل من الثمن وتعول على الفوائد المرتدة من امكانية تحركها، هناك دائما رغبة بأن ما نطمح اليه اغلى واسمى مما لدينا ويسيرالجميع وفق معادلة تخفيض الاكلاف (minimize our cost) مقابل تثمين المردود (miximize our rewards) وهو ما يعرف بأستراتيجية القليل كثير (minimax stratege) انها اشبه بعملية استثمار: ادفع قليلا تربح كثيرا وبالمثل ينبطق الامر على واقع الحراك الشعبي: كي ينجح مشروع الاكثرية يجب ان يساهم الجميع ولو بشئ قليل ومجموع هذا القليل من شأنه ان يصبح ذو اثر فاعل وناجح. على قاعدة :

there is little difference in people, but little difference makes a big difference. the little is attitude & the big is whether it is positive or negative

*كيف تظهر صورة التحرك الشاغب؟

عندما تسمع بأن آخرين سيقومون بتحرك ما تقوى لدينا الرغبة بأن نشارك او

نفعل مثلهم، ولعل الدافع الى مثل هذا الشعور هو تصور ما قد يحدث لنا بعدما حدث للاخر، فالمسألة أشبه بموقف احدنا عندما تصله اخبار سيئة عبر الهاتف كيف ينفعل بعصبية غير معهودة تجعله ينتفض ويتحرك نحو فعل ما وهكذا الحال في صورة "الشارع" حيث يصبح مسرح الانفعال الزائد الذي نعبر عنه بعد تلقينا خبرا مأسويا تلاقى الجميع عنده في عمق مشاعرهم. وبالطبع لا يعني ان وحدة الشعور كلّية مئة بالمئة بل صورة الجماهير الشاغبة التي تحركت على الارض تتفاوت في حدة مشاعرها من جهة، وعامل المشاركة من جهة أخرى على النحو الذي وصفه السوسيولوجيان لويس رالف وكيلن تيرنر(1987) بقولهما ان جماعات الشغب تضم على الاقل خمسة انواع حيث هناك :

1. الحماسي: الذي يثور فعليا لمجرد اي حدث غير عادي يمس كرامة وطنه او اية قضية تتعلق بالقيم
2. المهتم: الذي يعنى بالحدث ولكن ليس الى درجة الحماس الزائد
3. القلق: قد لا يعنيه الحدث بكل حذافيره ولكنه يشارك او ينضم الى الجماعات الثائرة لانها تمده بالقوة تجاه ذاته وكي يشعر بالانتماء
4. المتفرج الفضولي: قد يكون له اهتمام بما يجري ولكنه اهتمام ضئيل ويزداد فضوله مع تبدل مجريات الاحداث كي يعرف ما يمكن ان يحدث.
5. المستغل: لا يعنيه الحدث ولا يهتم لحالة الاحتجاج، ولكن قد يستخدم التحرك لمصلحة ولاهداف خاصة به. (سياسيو المعارضة يتستغلون شغب العمال ليسجلوا نقاطا على سياسات الحكومة القائمة..)

وكي يأخذ التحرك الشعبي مساره الشاجب ويتحول الى ثورة او الى حالة شغب يبدأ اولا من أؤلئك المعنيين به مباشرة، حيث يعمد بعضهم الى لعب دور

ناشط من اجله وهم الحماسيون، الذين يقترحون جملة اجراءات للنظر فيما يمكن عمله ازاء تطور الاحداث، فريق منهم يباشر التحرك على الارض في الاتصال بجماعات وفئات شعبية وهيئات مجتمع مدني، فريق يتحرك اعلاميا ويتواصل مع مهتمين بهذا التحرك – القضية لأستقطاب أعداد مؤيدة، ثم تتوسع دائرة المنضمين لجماعة التحرك فنجد جماعات فضولية ترغب بأن تعرف ما يحدث وتسمى بـ«الواقفون على السور»، الى جانب هؤلاء تبرز جماعة قلقة تستمر على تواصل واطلاع مع جماعة التحرك لتعرف كيف ينبغي لها ان تتصرف.(ويمكن في اية لحظة ان تنضم كجماعة داعمة بطريقة او بأخرى وهذا حال المستغلين الذين يقفون جانبا ليروا كيف تتجه امور الحراك فاذا كانت بأتجاه مصالحهم يتحركون بالدعم السري او استغلال الاحداث التي ولدت حالات الشغب للنيل من الخصوم، أنهم - وبأيجاز- اؤلئك الذين يتدفأون على حمى نار غيرهم.

ان حالة الشغب الحاصلة هنا وهناك يمكن اختصارها من خلال فرضية مفادها:

الاحداث التي تطرأ لا تقع لأن الامور ليست على ما يرام

بل لان بعضهم يريدوها ان تكون على افضل ما يرام

2) التظاهر:

بماذا يمكن وصف السلوك الجماعي المحتشد في التظاهر؟ ما هي الاسباب الموجبة لكل تحرك ؟ اين يندفع المتظاهرون واين يخفتون؟ هل الاحتجاجات الشعبية هي فعلا وسيلة تغيير ام مجرد تحرك للتأييد؟ وهل كل تحرك متظاهر يوصل الى نتيجة؟ كيف يمكن وصف « ظاهرة التعبير الشارعي» هل هي فعلا مظهر ديموقراي، كما يقال، ام انها فوضى يثيرها الرافضون؟ هل يمكن اعتبار التظاهرة وسيلة تعبير مرتجلة لايصال رسالة ما؟ ان كان ذاك، كيف؟

بتعبير ادق، ما هي دلالات سلوك التظاهر؟ كيف يمكن رصد ابعادها النفسية والاجتماعية والفكرية؟

على الرغم من زخم التظاهر الظاهر في مختلف الدول، تبقى هذه الظاهرة في مدلولاتها الشائعة من اكثر الظاهرات غموضا، ذلك لان طبيعة السلوك الجموعي، يمكن فهمه من خلال درس تجمعات متنوعة مثل الحركات الاجتماعية، الثورات الاصلاحية، التحرك النقابي، وغيرها مما يصعب معه فهم طبيعة هذه الجمهرة كونها تنطلق من «تلاوين» متعددة لها اسبابها ونتائجها الشتى. لكن القاسم المشترك بين كل هذه المدلولات يرتكزعلى القول بخاصية العدد الكبير الذي يتميز به «حشد التظاهر» فمثل هذه الاعتبار يلعب دورا تاسيسيا في تحديد معالمه، لهذا نجد كيف ان منظميه يحرصون دائما على توسيع الدعوة اليه، والحث على المشاركة، لما يوحيه «العدد» من فعل تأييد لما يطرح. لكن هذا الاعتبار غير كاف للتفسير اساسا وجوهرا لمعنى التظاهر واهميته. إذا اردنا التوصل الى وصف حقيقي للكتلة الجماعية باعتبارها فريقا - اي جزءا مساهما وفعالا في عمليات التعبير – وجب علينا ان ننظر اليها كجمهور او كتلة تتألف من اناس يشترك افرادها في ظهور/ لقاء/ او نقاش عفوي حول احدى القضايا العامة - يندفعون غالبا- من شعور مشترك، لينتهوا الى قرارات جماعية واراء مشتركة. لهذا فان الفا او مائة الف يتواجدون بالصدفة في ساحة او محطة قطار او ينتظرون الدخول الى سنتر تجاري بهدف الاستفادة من اسعاره المخفضة لا معنى لتجمعهم او عددهم ان لم يكن لديهم توجها واضحا، في حين ان بضعة مئات – على سبيل المقارنة- من عناصر متحركة لها هدف وتنطلق وفق خطة مطلبية يمكن اعتبار تحركها ذات جدوى. باعتبار ان خاصية العدد لا يفرضه سلوك التجمع بقدر ما يفرضه فعل الايمان بجدوى الاحتشاد/ التظاهر. وهنا

يصبح هذا التكتل البشري " الهادف" ممتلكا- خصائص جديدة مختلفة جدا عن خصائص كل فرد يشكله اذ تنظمس الشخصية الواعية للفرد وتصبح عواطف وافكار الوحدات المصغرة المشكلة للجمهور موجهة في نفس الاتجاه، فتتشكل روح جماعية عابرة ومؤقتة لكنها تتمتع بخصائص محددة، لتصبح والحالة هذه جمهوراً له كينونته ووحدته العقلية المشتركة.

وبناء على ذلك ايا تكن نوعية الافراد الذي يشكلونه، ايا يكن نمط حياتهم متشابها او مختلفا وكذلك اهتماماتهم ومزاجهم او ذكائهم، فان مجرد تحولهم الى جمهور/ حشد تظاهري يزودهم ذلك بنوع من الروح الجماعية، وهذه الروح تجعلهم يحسون ويفكرون ويتحركون بطريقة مختلفة تماما عن الطريقة التي كان سيحس بها ويفكر ويتحرك كل فرد منهم لو كان معزولا وهذا ما اشار اليه ايضا الباحث السيكولوجي CATTELL في تحليله لديناميات التركيب، عندما رأى ان كل فرد يرتبط بالجماعة بهدف ارضاء بعض جاحاته النفسية، يجلب معه للجماعة درجة من الطاقة، ومجموع الطاقات المتاحة يفعّل النشاط كي تحصل الجماعة على ما تبغيه.

ويتحدث "لوبون" عن الطابع اللاعقلاني لردود فعل الجماهير. حيث هي تجمع ضخم من الأفراد توحدّه في فترة معينة حدّية انطباعات وتأثيرات مشتركة ومتزامنة. واثناء هذه اللحظات فإن المستوى الثقافي والعلمي والعقلي للأفراد المكوِّنين لجمهور ما يختفي أو يذوب تحت فعل الانطباعات الموحِّدة. فرد فعل الفرد معزولا عن الجمهور بهذا المفهوم يظل دوما أكثر رزانة وعقلانية بينما مع الجماهير يصبح نزقا. ويتحدث "لوبون" عن أن "كل ما يهز مخيال الجماهير هو ما يظهر بشكل صورة لافتة وجلية، لا تشوبها توضيحات إضافية أو لا تصاحبها إلا أشياء عجائبية: انتصار كبير، معجزة كبيرة، جريمة كبيرة، أمل

كبير. فالفاعلية الدعائية والإعلامية بمقتضى نظرية لوبون مشروطة بالتبسيط والاختزال والتكرار. وقوة الانطباع مرهونة بإخفاء أو إلغاء الخلفيات والأسباب، كما هي مرهونة لا بحقيقتها ولكن بشدة وقعها، بمعنى يفترض أن تُقدّم الأشياء دفعة من دون التنبيه الى منبعها، مائة جريمة صغيرة أو مائة حادث لا تهز مخيلة الجماهير بينما جريمة ضخمة او كارثة واحدة تهز الجماهير في العمق حتى لو كان قتلاها أقل بكثير من مجموع المائة حادث.

بهذا السياق يمكن النظر الى جمهور التظاهر فأيا كانت هويتهم او مهنتهم او جنسهم وايا كانت المصادفة التي جمعتهم، فانهم في ينصهرون في بوتقة "التركيب" او بصورة ادق في الفاعلية التي تحرك الجماعة ككل مما يجعلها وحدة خاصة بها. تنشئ من يمثلها ومن يفسر اتجاهاتها ومن ينطق باسمها، وعندما يتمكن هؤلاء من مس واثارة عواطف افراد الجماعة بشكل عميق في التأثير الدعائي، لا يغدو المضمون المستوعب مادة للتفكير وحسب، وانما مصدرا للهيجان والاضطراب وقوة دافعة نحو رغبات وطموحات جديدة . ومثل هذه الاثارة الانفعالية جماهيريا غالبا ما تشق الطريق نحو واقع الجماعة المرتقب.

ان السلوك الشمولي – كما يسميه هربرت بلومر- ينشأ عندما تلتقي خطوط العمل الفردي استجابة لنزعات واهتمامات عدد كبير من الافراد المفصولين، المجهولين، المنعزلين، حول نقطة معينة تبدو جديرة بالاهتمام ولا تقع ضمن دائرة اختياراتهم الشخصية. والتقاء اختيارات الناس هو ما يجعل من "ظاهرة التظاهر" قوة ذات تأثير، خاصة في الظروف المثيرة التي ترتفع فيها قابلية التأثر بالنداءات الحماسية، ليصبح لدى جمهور التظاهر خصائص مثل: سرعة الانفعال، النزق، انعدام الرأي الشخصي، ظهور الروح النقدية، المبالغة في العواطف والمشاعر، اذ من شأن مثل هذه العوامل ان تعمل على تهييج جماهير

متنوعة ومتعددة وتحركها الى ابعد حد لقول غوستاف لوبون: "لا شئ متعمد او مدروس لدى الجماهير، فهي تستطيع ان تعيش كل انواع العواطف وتنتقل من النقيض الى النقيض بسرعة البرق وذلك تحت تاثير المحرض السائد في اللحظة التي تعيشها.."[2] وغالبا ما يلعب الوسيط الاعلامي في ذلك دوراً مهماً فيما لو اخذنا مثلا ظاهرة الاحتشاد الجماهيري في التظاهرات او الاحتجاجات الشعبية فانه وبالنظرالى التظاهر على انه حشد بشري يتلاقى ويتكثف، الا ان ما يتمم هذه الحشد ويختصر توجهاته في آن هو وجود الشعارات التي ترفع سواء كانت مكتوبة او منطوقة او مرمزة، كثيرة هي التعابير التي يستخدمها المتظاهرون في تحركهم، لان التظاهر وفي احد وجوهه هو "تجسد الذات الجماعية المقهورة" وانعتاقها نحو منافذ تنفيس، ليتوج هذا التنفيس بوسائل متنوعة ابرزها الشعارات الظاهرة في "اليافطات" التي ترفع، والصرخات التي تطلق وهنا ثمة دلالة وتنوع في طبيعة ما يرفع . نذكر ابرزها :

الشعار المخطوط: اي ما يعرف باليافطة القماشية او قصاصات الكرتون التي تتضمن كتابات واضحة، بليغة من حيث استخدام العبارات المناسبة ومختصرة بكلماتها كي يسهل على المراقب قراءاتها في لحظات قصيرة. يذكر في اليافطة من حيث المضمون: شعار التحرك، المطالب التي يهدف اليها المتظاهرون، او كلمات تنم عن حالة القهر والغبن الذي يشعر به بعض المتظاهرين ازاء حالة اللامبالاة و التعنت الذي يُمارس ضدهم، اما من حيث الاسلوب فان صورة التحرك من خلال كلمات اليافطات هو بمثابة اعلان عن حالة التعبير المكنونة مع او ضد مواقف يتظاهر الحشد من اجلها، فمن جهة نجد توافق على سياسة ما فترفع كتابات التأييد التي غالبا ما يؤشر اليها بنعم كبيرة، ومن جهة اخرى نجد تعارض مع قرارات سياسية تعتبرها شريحة من الناس مجحفة في حقوقها

ووجودها وتتخذ صفة الخطاب المكتوب هنا بكلمة لا الناهية والرافضة، وفي احيان نادرة يُلاحظ في الاوساط المتعددة الاهواء تجاذب بين ال: نعم واللا في فريقين متظاهرين، ليحدث ما يسمى بالتظاهر والتظاهر المضاد، (عملا بمبدأ الدمقرطة)، لا ينسجم كل الافرقاء على غاية «النعم» بل هناك اخر برد فعل تظاهري معاكس تجاه نعمه بلا. وتصبح الشعارات المرفوعة تلاوين خطية تعكس في مضمونها وايحاءاتها وجهات نظر متنوعة الاطياف تعبر عن نسيج اجتماعي تعددي.

الشعار المنطوق: ويقصد به ما يردده المتظاهرون خلال مسيرتهم أوتجمعهم، فهم لا يقفون او يسيرون بصمت وكأنهم في جنازة، بل على النقيض من ذلك كثيرا ما تتفتق عبقرية بعض المشاركين بأنتاج «صرخات» صادحة من وحي المناسبة، وغالبا ما يأتي اطلاق هذه الصرخات هوبرة متسلسلة بأيقاعات مسجعة كي يسهل حفظها وترديدها من الاخرين، ولغاية ذلك يعمد بعضهم الى تحريف اغنيات متداولة من الوسط الشعبي

الشعار المرموز: وكثيرا ما تكون التظاهرة مسرحا لمواهب الابداع ليس فقط في الصرخات الحماسية، وانما ايضا مع الرسوم والصور ووسائل تعبير بسيطة اخرى مرمزة تلميحا او تصريحا وفيما يلي بعض الامثلة :

- يرفع احدهم مثلا رغيف خبز: وهذا بدوره دلالة على سياسة التقشف التي تعتمدها الحكومات او عند الرفض لضريبة ما، او عند رفع الاسعار لانها في النهاية سوف تؤدي الى الفقر وتمس لقمة عيش المواطن .
- او يرفع احدهم الحذاء: وخاصة العسكري، وذلك رفضا لمبدأ

العسـكرة، او العنـف او الحـرب مـن قبـل جهـات امنيـة تهـدد امـن النـاس في حياتهـم اليوميـة .

- او يرفع احدهم الجنزير الحديدي: وكأن بذلك اشارة الى السجن او الاسر او سياسة القمع والجور الذي تعتمد من سلطات تجاه الناس العُزّل .
- الحبل المعقود وفيه اشارة الى المشنقة وتباعا "الاعدام" يرفعه بعضهم استنكار لقانون اعدام صدر بحق احدهم، مما يجعل مناهضي العنف وجمعيات رافضي الاعدام التحرك ميدانيا بشعارات رمزية.
- الدمى والرسم الكاريكاتوري: وفيها دلالات على السخرية والكره والاستهزاء تجاه مسؤول ما، عندما يجسده فئة متظاهرة على هيئة دمية او رسم كاريكاتوري استخفافا به وبمواقفه او تصريحاته.

في مختلف اشكال الشعار المرمز ثمة معان ودلالات، فاذا كانت الصورة تختصر الف كلمة كما يقال، فأن الرمز الظاهر في الحشود الشعبية وعلى اختلاف اشكاله يختصر المواقف كلها، لأنه واجهة لغوية اضافية قد تغنى عن معان كثيرة لا يمكن للكلمات وحدها ان تنقلها، الرمز - في مدلوله- بديل لشئ نستجيب له بطريقة غير مباشرة وهذه الاستجابة عملية يتخللها التفكير والتـأمل والتذكر، لتصبح سلوكا معرفيا يستعمل من جانب الانسان لينبه به نفسه تجاه عالمه الخاص او محيطه العام . بواسطة الرموز يستطيع الانسان - من وجهة نظر علم النفس الاجتماعي- استثارة وتنبيه الاخرين بأعتبارها عملية اجتماعية يشترك فيها صاحب الرمز والمرموز اليه، ويظهر ذلك فيما نلاحظه عند الانسان من ميل نحو الانفعال او الغضب معبرا عن ذلك في شكل اصوات او رسوم او تصرفات

او ايحاءات تبدو للاخرين بمثابة رسالة.

الى جانب الشعارات المذكورة ترفع ايضا الصور، التي تُبرز خطابتها دلالات عدة هناك [3] :

- التبين الدلالي اللغوي: حيث تتلازم الصورة مع حاشية شرح ثابت كوظيفة ارساء ونقل للمعنى (ويظهر هذا جليا مع صور زعماء الاغتيال السياسي والتنويهات المرافقة: القائد الرمز/ الحلم/ على عهدك مستمرون/ باق في قلوبنا..الخ
- العامل الايقوني المباشر: عندما تبرز دلالة الصورة من خلال ردها الى عناصرها الموضوعية الخالصة بحذف المعاني المتراكمة (صورة الزعيم دون اية كتابة ..)
- العامل الايقوني المركب: الذي يظهر عندما يكون للصورة دلالاتها الثقافية والمجتمعية، لا يتبينها المرء على وجه جلي كونها تتضمن مزيدا من الايحاءات (الصور المركبة بطريقة اعلانية وتعليقات ساخرة عليها ..)

من هنا يعتبر بعض علماء الاجتماع المعنيين بدراسة تأثير الاعلام بأنه كلما كانت المسائل المعروضة في الاعلام المباشر اكثر اهمية وقيمة (وفي سياق تحليلنا هنا نعني الشعار) كلما كان نطاق تفسيراتها المحتملة اوسع واعرض. والاعلام عبر اليافطات والشعارات يبرره منظرو الدعاية بعوامل نفسية واجتماعية عند حديثهم عن الخلفية النفسية الكامنة في وعي الجماهير، ثمة حالات شعبية يسيطر عليها شعور عام من الفرح او الحزن، فتأتي الشعارات عندئذ لتعبر عن هذا

المزاج النفسي، وكما اشرنا انفا عن الحشود الشعبية المتظاهرة كيف تخضع لقانون الوحدة العقلية حتى تصبح جمهورا نفسيا منظما كذلك تأتي الشعارات خلال التظاهر كبث اعلامي مباشر بين المشارك / المتظاهر والاخرين يعمل على تصريف الانفعالات المكبوتة اعلاميا ونفسيا وفكريا، ويعزز لدى صاحبه ليس فقط المشاركة الجسدية وانما الحسية والذهنية .

وهذا ما يؤكده سوسيولوجيو الاتصال بأن هناك خط اتصال بين الحالة الاتصالية والموقف النفسي للناس والشراكة بأهمية الحدث الاعلامي ومدى ما يتركه ذلك من انطباع واهتمام، انها معادلة متعددة الاطراف ذلك ان مضمون شعار ما مثلا يضعنا دائما امام تحليلات تفصيلية لذلك الشعار، فأذا كان الشعار مطابقا لاستعدادتنا يكون تأثيره اكبر، كذلك اذا كان متناسبا مع الوقائع الموجودة يكون التأتير واضحا ايضا، بينما في حالات اخرى قد يتكرر الخبر خمس مرات بشكل متوسط، وتتلى الشعارات مرارا دون ان يثير ذلك رد فعل جماهيري، لماذا ؟ لانه لا يتلاءم واهتمامات الناس ولا يتناسب والوقائع الطارئة من هنا يحرص قادة الرأي الداعين الى التظاهرات على توضيح الغاية منها اوتحديد عناوينها المطروحة (شعار التظاهر) لان الناس لم تعد تنخرط في التظاهرات بآلية القطيع بقدر ما اخذت تعي الجدوى من هذه التحرك الشارعي، وهذا يعني ان رغبة الناس في التظاهر بات يحددها- اولا- مدى اهتمامها واقتناعها بالشعارات المرفوعة، وتلبية لرغبة الداعين اليها ثانيا، ذلك ان حشد التظاهر يحدث في احيان كثيرة بفعل بعض المحرضات المثارة من الاخرين او نتيجة للعبة وسائل الاعلام الذكية في تضخيم الامر . ويمكن ارجاع هذا السلوك الجماعي في التظاهر الى اكثر من عامل :

ـ هناك العامل الاجتماعي المتمثل في "اطار المرجع" الذي يترعرع فيه الشاب ومدى تقبله واستعداده للقيم التي يقدمها اسياد ذلك الوسط، حيث من شان هذ الاستعداد ان يربي وينمي فيه قيم : التعبيه أو الثورية، التقبل للاخر او رفضه .

ـ وهناك العامل السياسي/ الحزبي او" التعبئة الايديولوجية" حيث يتم هنا وعلى حد تعبيرالسوسيولوجي فردريك معتوق "فتل الذاكرة الشعبية" وتقنية الفتل هذه يلجأ اليها عادة طرف من الاطراف عندما يختار صورة تاريخ ما (حادث عبر/ ماسأة زمن مضى/...) كي يستثير من خلاله مشاعر اخر، ليقوم الاخر بدوره بأستحضار صورة اخرى بالمقابل وتبدأ الصراعات بين الذاكرات الشعبية، ومثل هذه الاستثارة المتبادلة بين الاطراف من شأنها ان تعزز وتدخل اي حوار في دائرة التخاصم التخاطبي [4] ومع الفتل تنمو الايديولوجيا كذهنية خاصة جدا، تتسم باطلاقية غير محدودة للعصبية والقبلية ، حتى تجعل حامل الايديولوجيا وكأنه مصاب بحمى زائدة ، لايستطيع ان ينظر الى العالم الاخر سوى نظرة مخطئة وبانه وانصاره هم على « صح» .

ـ وهناك العامل النفسي الذي تحركه مثيرات ومحرضات اعلامية او خطابية مما يجعل هذا الفرد – الذي لم يكن اصلا يهتم- يتجه الى تأييد او رفض ما تتناوله وسيلة ذلك المحرض. ولكم دخل الاعلام ووسائله – في اكثر من مكان متوتر – لعبة التنازع والادلجة حتى عمق الشرخ النفسي بين الناس، لما لا؟ اوليس هو «بوق» الافرقاء.

3) الثورات:

أثبتت الدراسات العلمية أن الأفراد العاديين يتصرفون عادة بطريقة لا تعبر عن حقيقتهم، كأن يصبحون عدوانيين ويلجأون للعنف غير المبرر نتيجة اكتسابهم شعورا بالقوة الإضافية وهم ضمن الحشد الثائر. كما أن الشعور بالذنب ومحاسبة الذات تتضاءل إلى درجة الصفر أثناء قيام الأفراد بالتخريب أو القتل خلال مشاركاتهم في الثورات، ومرد ذلك الى حالة الفوضى التي تصاحب الاحتجاجات او الثورات الشعبية يصبح فيها من الصعب إن لم يكن من المستحيل تحديد المسؤولية الجنائية عن حوادث القتل والتخريب، وقد قام سكنر وميللر وتارد وغيرهم من علماء الاجتماع بدراسة ظاهرة «الحشود الثائرة» في محاولة لفهم آليات عملها وطرق هيمنتها على سلوك الأفراد.

ولعل أهم ما توصل إليه هؤلاء العلماء وغيرهم من نتائج هو أن الفرد عندما يدخل ضمن الحشد فإنه يفقد القدرة على السيطرة والتحكم في أفعاله بصورة كبيرة، فيجد نفسه مضطرا للتصرف كما يتصرف الآخرون دون وعي بأبعاد ونتائج أفعاله، ففي الثورة تتحرك الجموع وكأنها كتلة بشرية ضخمة، تتسارع فيها الأحداث بشكل غير مدروس أو غير مخطط له مسبقا، ولردود الأفعال هنا دور كبير في تشكيل السلوك الجمعي وتحريك الجماهير باتجاهات عشوائية، حتى يسيطر على الثوار استعداد خاص لفعل أي شيء، وهذا ما يفسر عشوائية السلوك العدواني الذي ينتشر أثناء المظاهرات أو الثورات، إذ يجد الأفراد أنفسهم بحاجة إلى فعل أي شيء ليشعروا بأنهم منسجمون مع ما يحدث، وليتخلصوا من عقدة الشعور «بالنبذ والإقصاء» التي تطاردهم. في الحشد الثوري يتصرف الناس بمنطق الغليان والسلوك الهائج بما يختلف عن منطق الأفراد العاديين، أي بمنطق الجماعة الثائرة التي تصبو نحو التغيير، وهنا يكمن سر قوة الثورات

وخطورتها في انها تهدف نحو التغيير ولو اقتضى موت العشرات من المؤيدين، فكما البراكين تحرق الحجارة كذلك الثورات تحرق الرجال.

وغالبا ما يكون الجوع وتمادي القمع هو الذي يحرك الثورات عملا بمقولة "الجوع أبو الصراع الطبقي" فهو دافع غريزي يترتب عليه سلوك الحصول على الطعام وهو على المستوى الفردي يرتبط بسعي الإنسان والذي يفترض أن يكون نزيها في الكدح والعمل من اجل تأمين لقمة العيش ولإشباع دافع الجوع، أما الجوع الجماعي المرتبط بالقمع وبالفساد والاستغلال وسوء توزيع الثروات فيكون وثيق الصلة بالتخطيط للفعل الثوري لأنه وثيق الصلة بالكرامة الإنسانية أو كما يقول المثل الايطالي" الجوع ألد أعداء الكرامة» وأن الهدف من مجمل الأفعال الثورية الناتجة عن هذا النمط من الفقر هو إعادة توزيع الثروات بشكل عادل من خلال إعادة صياغة علاقات الإنتاج بين أطرافها الأساسية بشكل ايجابي أن الجماهير حين تعاني من الفقر طويلا وتستشعر الظلم أو الطغيان أو إهدار الكرامة قد تسكت لبعض الوقت ولكنها عند نقطة وجع صارخ تنفجر انفجارا مدويا (قد يبدو للوهلة مفاجئا ولكنه ليست كذلك بأعتباره تراكم زمني لقهر مكبوت) فتتحول إلى قوة مدمرة للنظام السياسي القائم وقد يمتد أثره إلى ابعد من السلطة، فالغضب الجماهيري يكون مثل الطوفان لا يعرف احد أين سيتوقف ومتى؟ ويزداد حدة أكثر عندما تنعدم القيادة الميدانية للأحداث أي أن الانفجار يحدث في بدايته كبراكين غضب دون ترتيب سابق ودون هدف محدد عبر الانتقام ممن قهرها وأذلها وجوّعها وخدعها (جسد هذا النموذج من الانفعالات بشكل صارخ الحالة العراقية بعد سقوط النظام السابق ثم وبشكل اخف وطأة وأقل تأثيرا من الناحية السلبية في الحالتين التونسية والمصرية (2011).

ويمكن فهم السياقات السيكولوجية التي يختمر فيها التغير الثوري عبر مراحل

يشير اليها الباحث السيكولوجي مصطفى حجازي في مؤلفه "التخلف الاجتماعي: مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور» [5] **وهي**

I. هناك اولا مرحلة الرضوخ والقهر حيث هذه المرحلة تشكل زمن الاستكانة أو الفترة المظلمة من تاريخ المجتمع وتكون قوى التسلط في أوج سطوتها وحالة الرضوخ في أشد درجاتها. وأبرز ملامح هذه المرحلة هو اجتياف (أستدخال) عملية التبخيس التي غرسها الحاكم المتسلط في نفسية الجماهير فيكره الإنسان نفسه ويوجه عدوانيته تجاه نفسه وتجاه أمثاله ومن ثم يقوم بإزاحة هذه العدوانية ليمارسها تجاه من هو اضعف منه.وتنشأ في هذه المرحلة مجموعة من العقد التي تميز حياة الإنسان المقهور أو المضطهد أهمها: عقدة النقص وفقدان الثقة بنفسه وبأمثاله والتي تجعله يحجم عن كل جديد ويتجنب كل تجربة قد تساهم في تغير وضعه لذلك فهو لا يحرك ساكنا وإنما ينتظر ذلك البطل المخلص الذي سينتشله مما هو فيه وهذا ما يمهد الطريق للتعلق بالزعيم الفرد تعلقا يغري بالتسلط والدكتاتورية.

II. في المرحلة الثانية يبدأ الإنسان بتحويل حالة الغليان العدوانية التي كانت موجهة ضد نفسه إلى الآخرين بعد تمكنه من كبتها بالآليات التي استخدمها في المرحلة الأولى. انه يحول عدوانيته إلى الذين يشبهونه ويكون جوهر هذه العملية هو التفتيش عن مخطئ يحمل وزر العدوانية المتراكمة داخليا وبذلك يتخلص من شعوره بالذنب ومن عاره وعقد نقصه ويصبها على الآخر متهما إياه " بشكل توهمي" وهكذا يصبح العدوان عليه مبررا فهو دفاع عن النفس ليس إلا. إن هذا التفريغ والتحويل للمشاعر السيئة الداخلية تجاه الآخر المقهور مثله ينفع مؤقتا في تخفيف التوتر الداخلي للإنسان المقهور لكن ذلك يفشل في تخليصه وإراحته على المدى البعيد مما يجعله ينتقل إلى المرحلة الثالثة .

III. عبر المرحلة الثالثة يظهر التمرد والمجابهة ويصبح العنف المسلح وغير المسلح هو السبيل ليتخلص الشعب من عقدة النقص والجبن والخوف التي غرسها الحاكم المستبد في شعبه وقد يكون العنف والغضب في البداية معيقا لإمكانية التفكير والتنظيم ولكنه يفتح المجال لكل الاحتمالات فأما إعادة دورة العنف وأما الانطلاق إلى رحاب التغير السلمي الهادئ والتأسيس لمرحلة قادمة ذات صبغة تقدمية الا ان هذه الاحتمالات وثيقة الصلة بمن يقود عملية التغير.

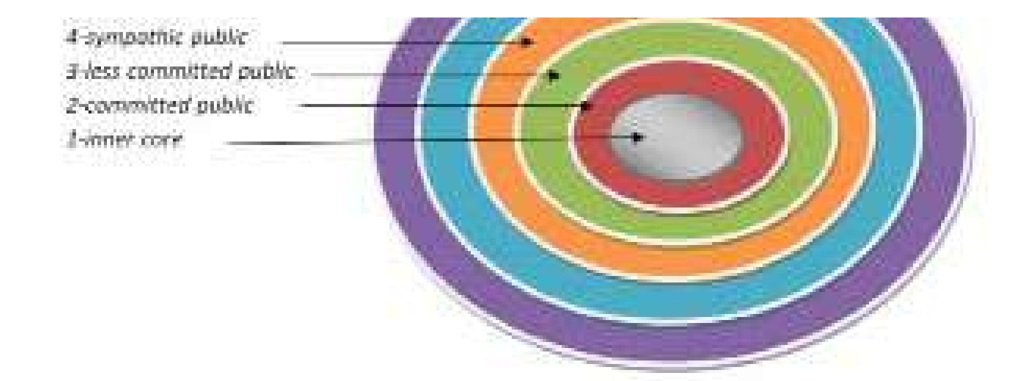
2- استراتيجية الحراك الشعبي:

في ظاهرات الحراك الشعبي يعتمد القيمون عليها انواعا متعددة من التحرك يكون لهم بمثابة التكتيك الميداني (TACTICS of social movement)، ولندرك ما الذي يدفع بهؤلاء الى اعتماد خطة عمل ممنهجة لتحركاتهم يرجعنا ذلك الى تحديد :

1. نمط الجماعات المشاركة (نوعية الاشخاص الذين ينتظمون)، اولاً
2. مستوى العلاقة بين المتحركون والسلطة او القوى النافذة... ثانياً
3. اساليب البروباغندا المستخدمة، ثالثاً

اولاً: نمط الجماعات المشاركة

يصور السوسيولوجي جايمس هانسلن تركيبة جماعات الحراك الشعبي على اختلاف تنوعه البشري والتنظيمي بالشكل البياني التالي :



بناء على هذا الشكل البياني يمكن تصنيف جماعة اي تحرك ب: فئة المهتمين وفئة غير المعنيين وفي كل فئة هناك مستويات من درجة الاهتمام وعدمه : في الفئة الاولى هناك 3 جماعات:

1-جماعة المستوى الاول اي الاساسيون: فهم بمثابة نواة التحرك حيث يبدأ الحراك الاجتماعي منهم ومعهم، لما يظهر عليهم من الاهتمام الشديد مما يجري وبما يجب ان يحدث، مهمة هذه الجماعة ان تضع الاهداف، الخطط وجدول التحرك.

1- جماعة المستوى الثاني اي الملتزمون: وهم المعنيون بالتحرك ولكن بدرجة اقل اهتماما من جماعة النواة، الا ان دورهم فاعلا لجهة قيامهم بمهام تحضيرية هامة مثل: اجراء مكالمات هاتفية مع مناصرين، ارسال رسائل بريدية لمن يهمهم الامر، توزيع مناشير، تعليقاً ملصقات ويافطات، تعبئة الرأي العام عبر منابر اعلامية ..الخ

2- جماعة المستوى الثالث اي المهتمون: وهي الفئة التي تُظهر نوعا من الاهتمام للتحرك وانما ليست بشكل حماسي، فأفرادها يعتبرون انفسهم معنيون ولكن ليس لدرجة الالتزام الفعلي، بل يقفون موقف «المعني بالوقائع" الى ان تتغير

أتجاهاتهـم امـا الى الملتزمـين او الى فئـة اخـرى غـير معنيـة وذلـك بنـاء عـلى مقتضيـات التحـرك ومصالحهـم فيـه.

عبر هذه الحلقات الثلاث ينجح التكتيك او يفشل، لان أي تحرك يعتمد في انطلاقته ومساره على توقعات وخلفية جماعة النواة، فأن لم ينصهروا في بوتقة واحدة متآلفة تظهر تناقضاتهم الى العلن نتيجة لتنوع خلفية المؤسسون وقد تنعكس على طبيعة الحراك بحد ذاته فقد يرغب بعضهم مثلا بأستخدام الحراك السلمي (الهادئ) وبعضهم يرى الاكتفاء بأثارة القضية اعلاميا عبر شراء مساحات اعلانية في الصحف وابراز الحدث بصورة مؤثرة، ومنهم من يفضل تهييج الرأي العام واثارة النقمة على جهة سياسية والذهاب نحو المواجهة المباشرة بينما البعض الاخر قد يفضل العنف واثارة الشغب وزرع الفوضى والاضطراب. مع جماعة النواة يظهر الملتزمون كجماعة لها دورها الفاعل في مساندة توجهات الحراك ويلعب هنا عامل «العدد» مؤشرا هاما في فعالية التحرك او ضعفه، اذ كلما كان عدد الملتزمين كبيرا كلما كان ذلك ضمانا لسير التحرك بفعالية ناشطة، الى جانب الملتزمون يظهر افراد وجماعات اقل التزاما قد تناصر وتتعاطف مع الحراك لكنها لا تعلن ذلك خوفا من أن يؤدي «تأديبها» الى تبعات تؤثر على مواقفها او مصالحها فيما بعد.

اما في الفئة الثانية فهناك ايضا مستويات ويمكن اعتبارهم بمثابة الجماهير المصطفة حول جماعات التحرك ومنهم :

3- الجماعـة المتعاطفـة للتحـرك (جماعـة المسـتوى الرابـع)، تظهـر عـلى هامـش التحـركات الشـعبية جماعـات صغـيرة هنـا وهنـاك، تبـدي اعجابـا بمـا يقـوم بـه المعنيـون والملتزمـون، قـد لا يكـون بمقـدور هـؤلاء ان يكونـوا في صلـب

التحـــرك او لا يرغبـــون في ان يظهـــروا في واجهـــة المنظمـــين لأســـباب خاصـــة تتعلـــق بدورهـــم وشـــؤون حياتهـــم وربمـــا حفاظـــا عـــلى امنهـــم الشـــخصي، فيعلنـــون نوعـــا مـــن التعاطـــف والتشـــجيع للمتحركـــين (مشـــاركة مـــن وراء الســـتار).

4- الجماعة المناوئة للتحرك (جماعة المستوى الخامس): وهي التي ترى ان الحراك يذهب بعكس ما تتمناه وترغب بأيقاف هذا الحراك قبل ان يرتد سلبا ليس على اصحابه فقط وانما على المجتمع بأسره لذا يتحفظون، يظهرون نوعا من التخوف، ويكونون غالبا حذرون بل رافضون.

5- الجماعة غير المبالية بالحراك (جماعة المستوى السادس)، هي الجماعة التي لا يعنيها شئ من هذا القبيل وربما لا تعرف بأنه هناك حراك اجتماعي او سياسي قائم نظرا لعدم اهتمامها ولآمبالاتها تجاه القضايا الهامة او لعدم وجود وعي سياسي كاف يحثها على المتابعة بالمشاركة بل يمكن وصفهم ب "جماعة آخر من يعلم"

على هذه المستويات الثلاث ينصب جهد القادة بأيلائها الاهتمام لمعرفة كيفية استقطابها واجتذابها الى الحراك الحاصل او المتوقع، ويحاولون بدورهم تجنب اي خطأ او تصرف قد يؤثر سلبا على علاقتهم بهم حتى لا يُحدث ذلك سوءاً في العلاقة ويفسد عملية الاستقطاب. بل يسعون الى استمالتهم وفق طرق ارضاء عدة لينتقلون الى دائرة المعنيين والملتزمين، كذلك يولي القادة مزيدا من الوقت في العمل على الجماعات المناوئة واللامبالية من خلال جعل القضية التي يتحركون من اجلها قضية مقدسة تهم الجميع بما فيها "هم" ويأخذون في اللعب على الاحاسيس الانسانية او الوطنية او المصلحة العامة لجعلهم اكثر وعيا لأزمات تدور حولهم وعليهم المشاركة وابداء الرغبة بالتغيير بدلا من ان يكون بلا انتماء او بلا مسؤولية.

ثانيا: مستوى العلاقة مع السلطة:

يتحكم مسار اي تحرك اجتماعي بمدى علاقته بقوى نافذة على الارض ومنها السلطة الرسمية القائمة، وبناء على هذه العلاقة يمكن تصور طبيعة التحرك :

- ✓ فأذا كانت جائرة او قائمة او رافضة لأي حراك شعبي فأن من شأن ذلك ان يؤجج لصراع محتمل في اي لحظة وعندها يكون الحراك الجماهيري نشطا ضد رموز السلطة،
- ✓ اما اذا كان هناك نوعا من التناغم بين جماعة التحرك واقطاب السلطة جاء الحراك باهتا واحتجاجيا اكثر منه تغييريا - جذريا
- ✓ اما اذا كان مقبولا في بعض توجهاته مقبولا من السلطة بل ومؤيدا من بعض اقطابها فأنه يعتبر حراكا نخبويا
- ✓ وفي حال كان الحراك مناؤنا لجماعة السلطة ولسياستها، متحركا ضد قوى امر واقع او قوى نافذة في الحركة الاقتصادية فأنه يصبح عندها الحراك اكثر استنكارا وربما اكثر عنفا اذا ما جوبه بالقمع.

ولعل تحرك العمال ضد السياسات الحكومية مثال على ذلك حيث يلاحظ كيف انها تتنوع ما بين اعتصام (تعبير رفض سلمي) او أضرابات (تحرك شعبي مستنكر) او عصيان وتظاهرات حاشدة وصولا نحو الغوغائية والشغب. وذلك بناء على القرارات التي تتخذها الحكومة في سياستها الاقتصادية تجاه الطبقة العاملة .

ثالثا: دور البروباغندا في الحراك الشعبي:

اشرنا بأن قادة الحراك الشعبي يعمدون الى استخدام اساليب استمالة خاصة

تجاه الجماعات غير المعنية بالحراك ولعلها هي نفسها اساليب الدعاية (propaganda) المطلوبة والمفترضة عند كل تحرك. اذ لا يمكن تصور نجاح تحرك شعبي ان لم يرافقه اعلام مواكب. وهذا يعني ضرورة اللعب على الحس الشعبي اعلاميا من خلال وسائل تأثير مناسبة، لهذا تكون وسائل الاعلام بكافة انواعها الاداة المثلى بيد قادة الحراك الشعبي للتأثير والتجييش والتأييد (وتعتبر الصور الدموية والطفولة المضطهدة واغتصاب النساء من اكثر الرسائل الاعلامية ايلاما وتأثيرا على اللامبالين ليصحبوا – ومع تكرار مفاعيل الرسالة- في دائرة المعنيين)

ورغم ان هذه الكلمة (الدعاية) توحي بمعان سلبية وتكرس واقعا غير مستساغا من قبل مطلقيها في اذهان الجماهيرالا انها تبقى المفتاح الرئيسي لتحريك الجماهير ولا بد منها كسلاح مؤثر لما تقوم به من عرض لوقائع او معلومات او مواقف تهدف الى التأثير على متلقيها رغم عدم صوابية ما تعلنه. يتمثّل هدف الدعاية الرئيسي في تكوين رأي عام مؤيد او معارض تجاه قضية مصيرية تهم مطلقيها، ولا يتورع هؤلاء عن استخدام وسائل متعددة ومتنوعة بهدف تغيير واقع ما. وقد ذكر السوسيولوجيان (1993) ALFRED & ELIZABETH LEE أسُساً لعمل البروباغندا، معتبرين أنه: «لكي تكون مؤثرا في دعايتك يجب ان تكون وسائلك بسيطة وشعبية وقريبة من الناس ومحبكة بشكل جيد». لان ثمة فرضية تقول: «كلما كانت الدعاية جيدة الحبك.. كلما كان ذلك حافزا ناجحا لان يتحرك الناس دون ان يدركوا لماذا هم يدعمون او يناصرون..»، ولعل سر نجاح بعض القادة في شهرتهم وتعزيز مكانتهم وحصولهم على التأييد الشعبي يعود بدوره الى استخدامهم طرق استمالة واساليب دعائية منها :

1. NAME CALLING هـــذه الطريقـــة تهـــدف الى اظهـــار مســـاوئ السياســـة

المتخـذة مـن قبـل جهـة معينـة وربطهـا بصـورة سـلبية بمـا يمكـن ان يحـدث فيـما لـو تمـت، في مقابـل ذلـك ينشـط منظمـو الدعايـة بأبـراز صورتهـم البهيـة مـن خـلال التعاطـف مـع الطبقـات الدنيـا وقضاياهـا

2. GLITTERING GENERALITY مع هذه التقنية يتم اظهار محاسن القرارات المتخذة/ السياسة المقررة/ البرنامج الانتخابي.واحاطتها بهالة من الاهمية والتقدير والمشاعر الطيبة. فعندما يتم وصف تحرك مطلبي بأنه ديموقراطي/ سلمي/ انساني/ اكاديمي/ قانوني.. وما الى ذلك من توصيفات فأنما يترك بالاذهان رسائل اولية "حسنة" عن هذا التحرك/ او المرشح/ او السياسة المتبعة.

3. TRANSFER هذه التقنية مرتبطة فعليا بأشياء يقدرّها الناس ويحترمونها، فمضمون الاعلان عن شئ صحي او خيري او وطني او انساني يفعل فعله اكثر اذا قُدّم عبر نتائج احصائية او تجارب حية من خبرات الناس العاديين او بناء على وقائع مؤثرة حصلت. والمثال يحدث في التحرك اوعند تقرير المشاريع الوطنية الهامة حيث يعمد المنظمون الى ربطها بشعارات وطنية (العلم/ الرمز الوطني/ معلم اثري..) او باللعب على الحس الوطني كالقول بأننا كلنا معنيون بالمسؤولية، مما يدفع الناس الى الاخذ بالانتاج المحلي وتفضيله على المستورد.

4. TESTIMONIALS، الاشخاص المهمون، القادة المؤثرون، الساسة المعروفون يدخلون ايضا لعبة الدعاية والتأثير خاصة عندما يظهرون مع نجوم الرياضة والفن الذين يستخدمونهم لرفع شعارات مؤيدة او مناهضة او لدعم قضيتهم، وذلك بهدف استقطاب محبي هذه النجوم الى التحرك. (بعض السياسيين يظهرون في مناسبات اجتماعية عديدة برفقة نجوم الرياضة

والسينما في محاولة لتحسين صورتهم وشعبيتهم لدى انصار هذه النجم او ذاك..)

5. PLAIN FOLKS في بعض الاحيان تعتمد الدعاية مأثورات التراث الشعبي او الرموز الثقافية السائدة كي تجد رسالتها صدى وتتقرب من الناس. فنزول النخب الى الشارع للسير مع الطبقات الكادحة وتناول الطعام الشعبي معهم وارتداء الساسة للجينز ومشاركتهم جمعيات اهلية ومنظمات المجتمع المدني نشاطات ومهرجات تراثية، ما هي الا محاولة تلميع لصورة هؤلاء في الوسط الشعبي وكسب تأييدهم واشعارهم بأنهم قريبون من قضاياهم.

6. BANDWAGAN وهي المعنى المتجسد في تعبير:"كل انسان يفعل ذلك!» فأذا كان فلان (رجل مهم/ زعيم وطني) يقوم به فلا شك انك ستقوم به او تحب ما يفعله. ولنتصور كم يتأثر الناس بعامل المشابهة والمماثلة مع من يحبون، عندما يقال لهم بأن اكبر شخصيات البلد تفعل ذلك، وقد يشعر من لا يقوم به بأن هناك خطب لديه

اذن مع الوقت الذي ندرك فيه بأن تحرك ما أو سياسي مرشح او جهة معينة تستخدم احدى هذه الطرق في البروباغندا، كمحاولة لأقناع شرائح اجتماعية عديدة وجماهير عريضة بتوجاته/ افكاره/ قناعاتها. يجدر بنا للتو ان نفصل الفكرة عن الوسيلة ونقيّم مقدار قيمة هذه الفكرة/ السياسة/ الحراك كم تستحق فعلا بأن تكون قضية جديرة بالاهتمام او على شئ من التقدير كما يزعمون ويروّجون!

*خلاصة القول: تلعب وسائل الاعلام في الحراك الشعبي دورا فاعلا وجوهريا بل هي "حارس البوابة":

- فأذا كان القيمون على الوسائل الاعلامية سواءً مالكين او مراسلين او محررين اكثر تعاطفا مع قضية ما او حالة خاصة فبألتأكيد سيؤثرون على مستهلكي اعلامهم
- وأذا لم يهتم الاعلام ووسائله لقضية أو تحرك وتجاهله ولم يوله حقه من النشر والبث والاهتمام الكافي بتداعياته في مجمل برامجه ونشرات أخباره فأنها قد تتلاشى وتنتهي.
- واذا ما أكثرت وسيلة اعلامية من تعزيز انطباعات مركزة حول ظاهرة / قضية/ تحرك جماهيري..فأنها بذلك تحاول تكوين رأي عام (مؤيد او معارض)
- وأذا اصبح احدنا يتصرف او يتحدث او يفكر بما يقال في الاعلام فليعلم انه اصبح رهين تلك الدعاية.. وكلما اتسعت دائرة التصرف الجماعي بأنسجام ما تبثه وسيلة اعلامية مرئية ليصبح الجميع على قناعة بما يبث على انه هو "الصح" ولا مجال للدحض والـتأويل ..فمعنى ذلك بأن الدعاية فعلت فعلها..

*دور وسائل التواصل الاجتماعي والاعلامي في الحراك الشعبي العربي

في كتابهما المعنون "انبثاق سياسة المعرفة" الصادر عام 1999 طرح باحثان مستقبليان اميركيان هما جون اركيلا ودايفيد روزنفلت نظرية "الحـرب المعرفية الافتراضية" والمفهوم الرئيسي فيها أن حروب المستقبل يجب أن تواكب التحولات الإجتماعية العميقة في بنى المجتمعات. وعليه فإن إدارتها الرئيسية ستكون متمثلة بالإعلام وليس بالأسلحة التقليدية أو بأسلحة الدمار

الشامل أو حتى بالأسلحة الذكية. وعلى هذا الأساس يرى الكتاب أن الإعلام هو ميزة فيزيائية مثله مثل الطاقة والمادة. وبذلك يصبح من السذاجة الاستمرار في قبول التعريفات التقليدية للإعلام على أنه مرسل ورسالة وأداة اتصال ومستقبل. ومفهوم الكتاب يحيل كلاً من المرسل والمستقبل وأداة الاتصال (ارسال واستقبال) إلى مجرد عناصر. أما القيمة الرئيسية فهي للرسالة. فعن طريق الرسالة يمكن خوض الحرب عبر الشبكات (Netwar). لأن حروب الغد لا يكسبها من يملك القنبلة الأكبر بل يربحها ذلك الذي يخبر الرسالة (الرواية) الفضلى! بهذا يطرح الكتاب وبجرأة مفهوماً جديداً للقوة، إذ يتنبأ بتحول القوة من عسكرية (أسلحة وعتاد) إلى إعلامية (علاقات إنسانية). وبمعنى آخر فإن القوة ستتحول من مادية إلى لآمادية. ويصبح الصراع مرتكزاً على قطبي التنظيم/ الإرباك (حيث النصر للطرف الأكثر تنظيماً والأقل إرباكاً). وعندها تصبح القدرة على إرباك العدو مساوية للقدرة على تدميره. ولعل التحركات في تونس ومصر وغيرها من الدول العربية جاءت تطبيقاً عملياً لهذه النظرية ما يجعل منها اداة مرجعية لقياس الاحتمالات وردود الفعل في الدول المرشحة و/او المتخوفة من تحركات مشابهة.

فالاعلام الاجتماعي لعب دورا مركزيا في الحراك الشعبي وما رافق ذلك من اساليب نشر وبث فضائي كان العامل المؤثر في بلوغ هذا الحراك ذروته، فقد اشارت مجلة فورين بوليسي الأميركية أن تنبؤات العديد من العرب بأن الفضائيات العربية الاعلامية الناشطة ستساعد في اندلاع ثورة شعبية في الشرق الأوسط أصبحت حقيقة. وأكدت المجلة أن قناة الجزيرة على سبيل المثال لعبت دورا رئيسيا في الثورة الشعبية بتونس التي بدأت شرارتها في مدينة سيدي بوزيد، وانتهى بها الأمر كموجة عارمة أطاحت بالنظام المصري. الا ان تقنية

هذه القنوات الاعلامية لا تزال تنتمي الى عصر ما قبل "سياسة المعرفة". بأعتبارها تعتمد على مبدأ الالحاح الاعلامي والتكرار المركز والمتابعة المستمرة وهي التقنية الاعلامية التقليدية التي لم تعد قادرة على مجاراة عصر الاعلام الجديد. ورغم النقد الموجه لوسائل الاعلام التقليدية فمن نافل القول ان وسائل الاعلام الجديد وشبكات الإعلام الاجتماعي - يوتيوب، تويتر، فيس بوك، المدونات- قلبت مفهوم الإعلام رأسا على عقب وأسقطت كثيرا من نظرياته، فبعد أن كان المفهوم الأساسي للإعلام هو توفير المؤسسات الإعلامية للمواد الإخبارية للمتلقي، أصبح الجمهور هو من يعطي المعلومة لوسائل الإعلام وهذا ما سيدفع العديد من الأنظمة التقليدية القائمة لمراجعة حساباتها وإعادة النظر في الإمكانات الكامنة لدى أجيال الشباب بعد أن أصبح الإعلام الجديد قوة رابعة في التأثير والحراك.

ثورة الإعلام الجديد، بتقنياته المتطورة وبالسماء المفتوحة أمامه، كسر الحواجز وتغلّب على عامل التأخر الزمني في نقل الخبر والحدث من خلال سرعة الوصول والانتقال المذهل للخبر المتكامل، ونزع قيود واحتكار تدفق المعلومة الموثقة بالكلمة والصوت والصورة، فكان السلاح الأساسي، والرافعة الكبرى التي ساعدت على انتصار ثورة وانتفاضة الشعبين التونسي والمصري، فما الذي حدث ؟ لنستعرض اولا واقع بداية الحراك في بعض الدول العربية:

- الثورة التونسية (والتي تعرف أيضًا بثورة الكرامة أو ثورة الأحرار أو ثورة الياسمين أو ثورة 14 جانفي)، هي ثورة شعبية اندلعت أحداثها في 18 ديسمبر 2010 تضامنًا مع الشاب محمد البوعزيزي الذي قام بإضرام النار في جسده تعبيراً عن غضبه على بطالته ومصادرة العربة التي يبيع عليها من قبل الشرطية فادية حمدي (وقد توفي البوعزيزي بيوم الثلاثاء الموافق 4

يناير 2011 نتيجة الحروق في مستشفى بن عروس للحروق البليغة) أدى ذلك إلى اندلاع شرارة المظاهرات في يوم 18 ديسمبر 2010 وخروج آلاف التونسيين الرافضين لما اعتبروه أوضاع البطالة وعدم وجود العدالة الاجتماعية وتفاقم الفساد داخل النظام الحاكم. ونتج عن هذه المظاهرات التي شملت مدن عديدة في تونس عن سقوط العديد من القتلى والجرحى من المتظاهرين نتيجة تصادمهم مع قوات الأمن، وأجبرت الرئيس زين العابدين بن علي على إقالة عدد من الوزراء بينهم وزير الداخلية وتقديم وعود لمعالجة المشاكل التي نادى بحلها المتظاهرون، كما أعلن عزمه على عدم الترشح لانتخابات الرئاسة عام 2014. كما وعد بفتح المواقع الالكترونية في تونس كاليوتيوب بعد 5 سنوات من المنع، بالإضافة إلى تخفيض أسعار بعض المنتجات الغذائية تخفيضاً طفيفاً.

لكن الاحتجاجات توسعت وازدادت شدتها حتى وصلت إلى المباني الحكومية مما أجبر الرئيس بن علي على التنحي عن السلطة ومغادرة البلاد بشكل مفاجئ بحماية أمنية ليبية إلى السعودية يوم الجمعة 14 يناير 2011. فأعلن الوزير الأول محمد الغنوشي في نفس اليوم عن توليه رئاسة الجمهورية بصفة مؤقتة وذلك بسبب تعثر أداء الرئيس لمهامه وذلك حسب الفصل 56 من الدستور، مع إعلان حالة الطوارئ وحظر التجول. وبناءً على ذلك أعلن في يوم السبت 15 يناير 2011 عن إجراء انتخابات رئاسية مبكرة خلال فترة من 45 إلى 60 يومًا. وبذاك شكلت الثورة التونسية المفجر الرئيسي لسلسلة من الاحتجاجات والثورات في عدد من الدول العربية

- ثورة مصر: بعد نحو عشرة أيام من سقوط النظام التونسي، وبعد دعوات أطلقها نشطاء عبر مواقع التواصل الاجتماعي على الإنترنت، تظاهر الآلاف

مــن المصريــين في 25 يناير/كانــون الثــاني 2011 م مطالبــين بالإصلاحــات ثــم برحيــل النظـام، لكـن الشرطـة تصـدت لهـم بالهـراوات ومسـيلات الدمـوع وبالدهـس أحيانـاً. لم ينكفـئ المتظاهـرون أمـام قمـع الأجهـزة الأمنيـة بالهـراوات، وواصلـوا الاحتجاجـات في أغلـب المـدن المصريـة، ودخلـوا في اعتصـام دائـم ومفتـوح شـارك فيـه الملايـين بميـدان التحريـر وسـط القاهـرة، ونظمـوا مظاهـرات حاشـدة في المـدن الرئيسـة الأخـرى، ولم تفلـح سياسـات الوعـد والوعيـد والإغـراء والتهديـد التـي انتهجهـا حسـني مبـارك في وقـف الثـورة التـي نجحـت في الإطاحـة بـه في 11 فبراير/شـباط 2011 م بعـد 18 يومـا مـن انطلاقتهـا. وهكـذا مـع انـدلاع الثـورة التونسـية فالمصريـة بـدا أن المنطقـة العربيـة مقبلـة عـلى زلـزال شـديد لم يكـن حتـى أكـبر مراكـز الرصـد والدراسـات يتوقعـه، ولم يمـض وقـت طويـل حتـى تحولـت الثـورة التـي انطلقـت مـن تونـس إلى كـرة ثلـج عملاقـة، فأخـذت المنطقـة العربيـة تمـور مـن شرقهـا إلى غربهـا بثـورات شـعبية نجـح بعضهـا في اقتـلاع أنظمـة وتغيـير سياسـات .

- ثورة ليبيا: وعلى نفس الشاكلة لكن مستفيدة هذه المرة من نجاح الثورتين انطلقت الثورة الليبية في 17 فبراير/شباط 2011 م بدعوات للتظاهر عبر مواقع التواصل الاجتماعي على الإنترنت، مطالبين بإسقاط نظام العقيد معمر القذافي، وشيئا فشيئا- ومع سقوط قتلى وجرحى- تمكن الثوار الليبيون من بسط سيطرتهم على مناطق الشرق الليبي، وبعض مناطق الغرب والوسط وأخيرا سقطت العاصمة طرابلس الغرب بين أيديهم و ظل الثوار يلاحقون العقيد القذافي الذي كان مختبئا في مكان ما الى ان وجدته في مسقط رأسه وبرصاصة مجهولة من الذين اعتقلوه انتهت حياة حاكم.

- وبالتزامــن مـع انـدلاع الثـورة الليبيـة كانـت عـدد مـن المـدن اليمنيـة الكـبرى تغـلي

مـن جـراء حكـم الرئيـس عـلي عبـد اللـه صالـح الـذي قـدم - أسـوة بزعـماء عـرب- تنازلات عـدة، بـدءاً مـن التخـلي عـن التمديـد والتوريـث، مـرورا باقـتراح تعديـلات دسـتورية تـرضي المعارضين، وانتهـاء بالمزاوجـة بـين قتـل المتظاهريـن وأمـر الجيـش بحمايتهـم. لكـن الثـوار اليمنيـين رفضـوا الإذعـان وواصلـوا التظاهـر في أغلـب الميادين، مخيريـن صالـح بـين التحـول إلى رئيـس سـابق أو إلى رئيـس مخلـوع واحالتـه إلى المحكمـة. فأنتهـى الامـر الى توقيـع مبـادرة واتفـاق مـع المعارضـة برعايـة خليجيـة / سـعودية تفـضي الى الخيـار الاول.

- وفي سوريا انطلقت الإحتجاجات يوم الثلاثاء 15 آذار/مارس عام 2011 م ضد القمع والفساد وكبت الحريات وتلبية لصفحة: الثورة السورية ضد بشار الأسد.على الفيسبوك في تحدّ غير مسبوق متأثرة بموجة الاحتجاجات العارمة التي اندلعت في الوطن العربي مطلع عام 2011 م وبخاصة الثورة التونسية وثورة 25 يناير المصرية. قاد هذه الثورة الشبان السوريون الذين طالبوا بإجراء إصلاحات سياسية واقتصادية واجتماعية ورفعوا شعار:«حرية... حرية» لكن قوات الأمن والمخابرات السورية واجهتهم بأعتبارهم جماعات تخريبية ينفذون مؤامرة فتحول الشعار عندها إلى «إسقاط النظام».

يرجع كثير من الباحثين هذا الحراك الجماهيري العربي الى عدة روافع أساسية، ساعدت على انتصارها وفوزها بإنهاء وخلع النظام القائم وتحقيق التغيير، ويتقدم تلك الروافع الإعلام الجديد وثورة الاتصالات وتقنياتها المختلفة، التي جعلت من الحدث العربي حدثاً نوعياً وملفتاً لشعوب العالم، ففي الحدث التونسي والمصري واليمني والليبي والسوري المتحرك، برزت وسائل الإعلام والاتصال المتطورة سلاحاً هاماً في يد المنتفضين من عامة الشعب، وجعلت

كل مواطن صحافيا متجولا، ومع تقدّم مسار الأحداث أخذ دور تقنيات الإعلام الجديدة ومنها الـ«الفيسبوك»، يتّسع شيئا فشيئا حتى تحوّل إلى وكالة أنباء مباشرة، سهّلت تواصل المتظاهرين مع بعضهم البعض، وقرّبت المسافات بين ما يحدث في مختلف الجهات، حتى أصبح بإمكان مواطن هذه الدول نقل الحدث بالكلمة المكتوبة أو المسموعة، وبالصوت والصورة، إلى وكالات الانباء ومحطات التلفزة والقنوات الفضائية ومنها الى كل أصقاع الأرض، ولم تستطع السلطات الامنية من أن تواجه كل تلك التقنيات بالأساليب التي دأبت عليها الأنظمة الديكتاتورية في محاصرة هبات الشعوب وسحقها وإخمادها، ومنع وصول صوتها إلى خارج دائرة الحدث حتى في البلد ذاته.

كانت تقنيات الإعلام ووسائل الاتصال المتطورة مثل «يوتيوب» و«وتويتر» وفي المقدّمة تقنية الـ«فيسبوك»، التي أبدع الشبان المنتفضون في استثمارها، سلاحاً فعالاً في اختراق الحصار الإعلامي وفي تنفيذ أمرين:

أولهما، التواصل بين المنتفضين أنفسهم وفي تحركاتهم في الشارع وفي تبادل المعلومات والخبرات السريعة وفي نشر أسماء المعتقلين والشهداء والجرحى، وفي العمل على خلق حالة احتقان شعبي عن تعنّت السلطة والانظمة، وتشجّيع الناس على النزول للشارع وكسر حاجز الخوف (ابتدع التونسيون تعبير «عمار 404؟»، وهو الاسم الذي اعتمدوه ليرمزوا به إلى الرقابة التي كانت مفروضة على العشرات من المواقع والمدونات الالكترونية). ومن هنا بات موقعا «تويتر» و«فيسبوك»، أداتين رئيسيتين لحشد الناس والإعلان عن أماكن التجمعات ومواعيدها.. الخ.

وثانيهما، في الاتصال مع العالم الخارجي، ونقل صورة الاحداث لوسائل الإعلام ولمنظمات حقوق الإنسان وللرأي العام الدولي بشكل عام أولاً بأول، ليجعل من

تحرك شعوب هذه الدول المنتفضة ثورة عابرة للحدود. وساعد على ذلك وجود نسبة مرتفعة من مستعملي الانترنت، هذا الوعي المعلوماتي أدى إلى إشعال ثورة سلمية نموذجية، حركت الناس وايقظت الهمم وإلى توليد تغيير، وعليه فإن ثورة الإعلام الجديد، التي يقودها الآن شبان محترفون من بين جموع المنتفضين باتت تقض مضاجع تلك الأنظمة، التي أصبحت هي وتقنيات الفيسبوك وأداة الانترنت بشكل عام على تضاد وعداء مستديم، كما ان هذه الثورة بتقنياتها المتجددة كل يوم، أصبحت مجالا مهما للتواصل الاجتماعي، يمكّن الناس في بعض الدول من تبادل الخبرات والتأسيس لأعمال هامة والتعبير عن آرائهم بحرية. كما أن العديد من حركات المعارضة في أكثر من بلد عربي وغير عربي، ظهرت ونمت بشكل ملحوظ على «الفيسبوك» في مناطق وبلاد تتعرض فيها حقوق الإنسان للقمع والاضطهاد او يستشري فيها أخطبوط الفساد.

مع شبان الانترنت نجد انفسنا أمام ظاهرة ستكون لها انعكاساتها على العالم العربي بشكل غير مسبوق، حيث سيتحول العالم الافتراضي على الحاسوب وعلى الشاشة الصغيرة للهاتف المحمول، من عالم وهمي لا يأخذ على محمل الجد حركة الناس واحتجاجاتهم، إلى عالم حقيقي له مفاعيله على الساحة السياسية، سيصبح الشباب الناشط على الانترنت وتقنياته المختلفة، قوة مؤثرة وفاعلة على الأرض وفي تقرير مصير الأحداث وسيرها. كما سيدفع الكثير من الأنظمة إلى البحث عن أفضل السبل لمواجهة هذا العامل الهام الآخذ في التبلور، والقابل للتطور بشكل متسارع وغير مسبوق، كما أثبتت وقائع الحراك الشعبي، حيث أعطى نشطاء العالم الافتراضي (نشطاء عالم ثورة الاتصالات وتقنياتها) مصداقية كبيرة في أدائهم ونقلهم لصورة الحدث على أرض الواقع في نقل حركة كل الناس إلى دائرة الفعل والتأثير، لقد أصبحوا هؤلاء الشباب بلا شك قوى صاعدة

ومؤثرة جديرة بالاهتمام والملاحظة. فهل يمكن اعتبار الثورات الحاصلة اليوم في عدد من دول العالم العربي بانها «صحوة رعاع» عملا بالنظرية التي قدمها المنظر الماركسي انطونيو غرامشي عن دور الفئات المهمشة الفاعلة من غير النخب التقليدية في مسيرة التغيير؟ ربما هذا ما حصل في العالم العربي من خلال استخدام وسائل الاعلام الاجتماعي، اذ تحول الفرد الذي يستخدم هذه الوسائط والذي يبادر في قيادة حركة الاحتجاجات الى نخبة جديدة قادرة على التأثير بشكل ضخم على الرأي العام، فبات يصنع التاريخ ويحرك مساراته على حساب النخب القديمة التي كانت تقوم بهذه المهمة.[6]

*استنتاج فصلي

بات من الواضح ان اي حراك جماهيري او تحرك شعبي انما يهدف الى «تغيير» وضع ما والا ما معنى «حركيته»، ولان التغيير هو المحور الاساس له، فأن هذا العامل- المحور يتحدد عبر عنوانين رئيسسيين:

اولهما: استراتجيات التغيير ويتم بشكل مخطط عبر فئات واتجاهات نفسية ابرزها:

1. الافراد المعنيون
2. التنظيمات
3. المجتمعات المحلية
4. وحدة المشاعر
5. تكوين الاتجاهات
6. بناء القيم والادراكات

ثانيهما: تكتيك الفعل المباشر ويتم بدوره عبر دعاة التغيير او ما يعرفون بوكلاء التحول وهم:

1. المختصون في اتخاذ القرارات (الابتكارية)

2. القادة ويتوزعون على :

a. المديرون (الذين يرأسون التنظيم ويملكون القوة)

b. المحامون (يستخدمون المنطق لتكريس القوة)

c. المناصرون (يدعمون بالمال والتمويل)

d. الفنيون (يقومون بالخدمة الادارية والفنية)

e. المدراء (يتولون تنظيم الوقت وادارته)

f. المنظمون (المؤثرون في اداء البرامج والنشاطات)

3. المؤيدون وهم :

I. العمال (منفذو مجهود التغيير المطلوب)

II. المانحين (يساهمون بأعانات مختلفة)

III. المتعاطفين (يقومون بأعمال بعيدة عن الاضواء..)

ولا نغفل بالطبع الدور الذي يلعبه التواصل الالكتروني على صعيد الحراك والتغيير، فوسط هذا العالم تظهر قوة المدونات الإلكترونية في احداث التغيير وفي كسر الحواجز التي ترفعها السلطة بوجه مواطنيها، اذ تم احصاء اكثر من 37000 مدونة عربية ناشطة عام 2009، 6000 منها كانت تتبادل وتتشارك المعلومات والمواد فيما بينها، وقد اخفى اغلبية المدونين اسماءهم نتيجة سياسات القمع في المنطقة لدرجة بات ينظر باحثو الاتصال والسوسيولوجيا الى انه بامكان الاعلام ووسائله تغيير العالم بأسره من خلال المدونات والوسائط الاجتماعية الاخرى. سيما واننا نعيش الجيل الثاني من عصر الانترنت والمعروف بالجيل «التشاركي والتواصلي مع الاخرين» مما سمح بتبادل الافكار والمعلومات

وبالتفاعل مع الاحداث، وبأتاحة الفرصة لأي شخص في العالم على ابداء رأيه ونشر افكاره وتبادلها. وجاءت هذه الحقبة بعد الجيل الاول من الانترنت الذي بدأ عام 1995 عبر نشر المعلومات بشكل عادي عبر قاعدة «المرسل- المتلقي». الا اننا بدأنا اليوم بالدخول في الجيل الثالث من الانترنت الذي يعتمد على البث المباشر والحيّ، وهذا ما يحول الانسان الى كائن رقمي يتفاعل مع الاحداث في كل لحظة، ويجعل من المواطن العادي مراسلا ..

خلاصة عامة

تخضع انماط السلوك الاجتماعي التي ساد الاعتقاد طويلا بأنها تكتسب بالتعلم والثقافة لقوانين الفيزياء في الواقع، فقانون الاعداد الكبيرة (والذي يعني انه كلما تزايد عدد التجارب تزايد احتمال حدوث النتيجة المتوقعة احصائيا، فأذا قذفت قطعة نقدية معدنية في الهواء فسيكون أحتمال ان تقع على الصورة 50% دائما مع زيادة رميها المتواتر، فلو قذفتها عشر مرات مثلا قد تحصل على 3 صور و7 كتابة، ولو قذفتها 100 مرة قد تحصل على 60 صورة و40 كتابة، لكنك لو قذفتها 1000 مرة لأصبح الاحتمال اكبر في تقارب النتيجة بين 500 صورة و500 كتابة) الذي تم تقديره استقرائيا او عشوائيا يفترض بانه كلما كبر العدد او ازدادت المرات التي يتكرر فيها الحدث فأن احتمال حصول اي حدث مماثل متوقع سواء اكان ذلك احصائيا او عشوائيا وهكذا الامر بالعالم البشري اذا تواصلت مجموعات لا تعرف بعضها عبر الانترنت الى عمل منسق فأنما احتمال ان يؤلفون معا "الشلة الذكية" واردا مع ازدياد تمرير المعلومات والخطط والمواقع ومع زيادة عدد المتواصلين (وقد يكونون بضعة اشخاص في كل أماكن متفرقة من العالم) يغدو احتمال حصول فعل معين من قبلهم اكثر تأثيرا واحتمالا من قبل، وهذا ما اصطلح الباحثون على تسميته بتقنية : ضغط الرفاق!

«ضغط الرفاق»، وفق هذا المفهوم - التقنية يقول عالم الاجتماع دونكان واتس

ان نجاح منتج ما يمكن ان يتحقق بفعل تعاقب المعلومات التي يجعل اعدادا كبيرة من الناس تشتري المنتج نفسه لأنهم وجدوا الاخرين يشترونه (ويعرف هذا المفهوم ايضا بأسم الاحتشاد او سلوك القطيع الذي سبقت الاشارة عنه) فمن الواضح هنا كلما ارتفع سلوك الناس لفعل شيئا ما (شراء منتج/ القيام بتصرف معين في مكان عام) تزايد معها نشوء ظاهرة سلوك جماعي مماثل يمكن مراقبته لا بل والتنبؤ به وهذا واقع مع جموع الناس عند الاجابة على استطلاعات رأي والتصويت: كيف يظهر التأثر بألاخر فعليا؟.

على ما تقدم من تعريفات لظاهرات السلوك الجماعي وبناءً على مفهومنا لضغط الرفاق يسهل فهمنا ميل الناس نحو التجمع او الاتجاه نحو الاخذ بظاهرات دون اخرى..اذ كلما زاد عدد الاشخاص المعنيين بالسلوك كلما كان التأثير أشد مما قد يهيئ لنتيجة حتمية لا راد لها .

الهوامش:

1 ـ JAMES M.HENSLIN, SOCIOLOGY a down to earth approach 7th, U.S.A..2005

2 ـ غوستاف لوبون، سيكولوجية الجماهير، ترجمة هاشم صالح، دار الساقي، بيروت 1991

3 ـ د.وضاح شرارة، " في خطابة الصورة- محاضرات في علم النفس الاجتماعي"، معهد العلوم الاجتماعية، الجامعة اللبنانية، بيروت 1992 (غير منشور)

4 ـ د.فرديك معتوق، جذور الحرب الاهلية، دار الطليعة، بيروت،

5 ـ د.مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي : سيكولوجيا الانسان المقهور، معهد الانماء العربي، بيروت 1992

6 -الفيسبوك- ومآثر تقنيات التواصل - /.../www.airssforum.com